علم اجتماع

# التطوّر الرّاهن للعالَم

## أوهام وحقائق 1927

غُوستاف لُو بون

0 07 22 98 923 0 11 6 23

ترجمة

باسل الزّين

دار الفارابي

# التطوّر الرّاهن للعالَم:

# أوهام وحقائق (1927)

## غوستاف لو بون

### ترجمة

### باسل الزّين

التطوّر الرّاهن للعالَم:
أوهام وحقائق (1927)
غوستاف لو بون
ترجمة: باسل الزّين
العنوان في لغته الأصلية:
*L'évolution actuelle du Monde, Illustions et Réalités* (*Éd.1927*)
ترجمة عنوان الكتاب بالإنكليزية:
*The Current Evolution of The World: Illusios and Facts 1927*
*By Gustave Le Bon*
*Translated by Bassel Al-Zein*
الطبعة الأولى: أغسطس ـ آب 2022 (1000 نسخة)
This Edition Copyrights@Dar Al-Rafidain 2022
All Rights Reserved / جميع حقوق الطبع محفوظة ©
حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافة نابضة بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخة أصلية من هذا الكتاب واحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكل من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القرّاء بالكتب.

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: +9647714440520 / +9647811005860
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
daralrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

---

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.
ISBN: 978 - 9922 - 671 - 54 - 3

# مقدّمة المترجم

تَنعَقِدُ مضامين هذا الكتاب على جُملةِ أطاريحَ مُتراصّةٍ ومُتجانسة، بيد أنّ قطب الرّحى فيها يدور حول ثلاث مسائل جوهريّة نرى من الضّروريّ أن يُسَلَّطَ الضّوءُ عليها، ونعني تحديدًا: الثّورة العلميّة وعجزها عن إحداث تغيير جذريّ في البنى الذّهنيّة، واحتدام الصّراع بين النّخب وعامّة الشّعب، ومآلات الحروب القادمة.

حقيقة الأمر أنّ الثّورات العلميّة أدّت إلى فهمٍ مُغاير لطبيعة الأشياء، ذلك بأنّها وقفت على بعض العلل الأولى للطّبيعة، واستبدلت الفهم العلميّ الرّصين بالتخيّلات الغيبيّة، والتّفسيرات الأسطوريّة. ومع ذلك، يرى لو بون أنّ العقل العلميّ ظلّ عاجزًا عن تكريس مفاهيمه، وعن إحداث خلخلة في التصوّرات السّائدة، فجاءت الفتوحات العلميّة لتُسهِّل حياة النّاس، ولتزيد من قسوة الحروب وضراوتها، لكنّها لم تستطع أن تَفتَّ من عضد الأوهام، أو أن تأتي على التصوّرات الغيبيّة، والسّحر، والشّعوذة.

بيد أنّ ما يُثير دهشة الكاتب واستغرابه ليس امتناع عامّة الشّعب عن الإمساك بالفتوحات العلميّة، والوقوف على مندرجاتها، وتبيّن كشوفاتها فحسب، بل عزوف الطبقة العلميّة الواعية عن تطبيق المبادئ التي استلهمتها، والكشوفات التي حقّقتها، والتّجارِب التي اختبرتها، على واقع حياتها اليوميّة. فالمؤسف، بالنّسبة إلى لو بون، أن تضطلع نخبة علميّة مقتدِرة معرفيًّا بمهمّة الدّفاع عن أوهامٍ صوفيّة، وغيبيّة، من دون أن تُكلِّف نفسها عناء إدماج الكشوفات العلميّة في صميم حياتها اليوميّة.

والحال أنّ المجتمع العلميّ نفسه عانى من تناقضٍ غير مُفسَّر: فمن جهةٍ عهد إلى العقل بمهمّة استجلاء قوانين الطبيعة، واستنطاق محجوباتها، ورصد قوانينها، ومن جهة أخرى طَرَح هذه الكشوفات جانبًا، وتعاطى مع الوقائع بعقليّة ساذجة، وأسلم حياته لرؤى غيبيّة، وأقحم مجتمعاته في سياسات تتنافى ومندرجات العقل السّليم، في ضرب من التّباين

الصّارخ الذي لم يجد لو بون تفسيرًا له سوى أنّ الأوهام الصوفيّة، والعوامل الوجدانيّة، والأخطاء السيكولوجيّة، والوراثة الذّهنيّة، ما زالت تفعل فعلها، وتحكم البنى العقليّة لأكثر النّاس تطوّرًا، وفي أكثر الحضارات قدرة على إلهام العالم وقيادته.

على المقلب الآخر، كان من تبعات تمدّد الشيوعيّة بعامّة، والاشتراكيّة بخاصّة، نشوب صراع عنيف بين النّخبة وعامّة الشّعب. الحقيقة أنّ لو بون يعزف قدر المستطاع عن الديمقراطيّة الشّعبويّة التي تنطوي، في خَلَدِه، على دِكْتاتورية صاخبة، ذلك بأنّ الديمقراطيّة التي تُتيح للعامّة أن تختار ممثّليها تُهدِر البعد العقلانيّ، وتحشد أدواتها لمخاطبة الغرائز، وشحذ العواطف. بهذا المعنى، عادت الطبقة النّخبويّة الحاكمة غير قادرة على رسم سياسات ماليّة واقتصاديّة واجتماعيّة وتربويّة سليمة، انطلاقًا من معاييرَ عقلانيّة واضحة، ورؤًى ثاقبة، بل باتت محكومة بالاستجابة إلى تطلّعات الشّعوب، مع كلّ ما تنطوي عليه هذه التطلّعات، برأي الكاتب، من سذاجة وتسطيح.

والحال أنّ المفاهيم الشيوعيّة، من مثل دِكْتاتورية البروليتاريا، والمساواة، وإلغاء النظام الطبقيّ، لم تَزِدِ الشّعوب إلّا فقرًا وعَوَزًا. وعليه، أصبحت المساواةُ مساواةً في البؤس والحرمان، ناهيك بكون هذه المفاهيم قد أتت على المبادرات الفرديّة، والجهود الشخصيّة، فباتت الصّناعات تُدار من قِبَل الدّولة، الأمر الّذي أسقط الحافزيّة، وأتى على الإبداع، ونزع أجمل ما في الفردانيّة من تألّق وتميّز.

لذا كان لا بدّ من العودة إلى النظام الرأسماليّ المصقول، إذ من شأن الاشتراكيّة، إذا ما غُرست في المجتمعات الأوروبيّة، أن تقضِيَ على تألّق الحضارة الغربيّة، وأن تؤدّي إلى هلاكها.

في سياق موازٍ، يرى لو بون أنّ إحلال السّلام تصوّر مشروع، لكن لن يُكتب له أن يُرسى في المدى المنظور. لذا استشرف حربًا قادمة (الحرب العالميّة الثّانية)، ذلك بأنّ القادة والشّعوب لم يتوصّلوا بعد إلى مرحلة وعيٍ كافية تسمح لهم باستشراف أفق المعاني الجديدة للحروب، فهم يفتقرون إلى الرؤى الثّاقبة، والتوقّعات النّاجعة، والاستشرافات

البيِّنة. والحال أنّه يرى في الحروب القادمة حروبًا حتميّة لا يُمكن تجنّبها، إلى حين تكوّر الوعي، وانجلاء الضّباب المعرفيّ، وانقشاع غيوم الجهل، واتّضاح مجانيّة الشّعارات وعدم جدواها.

بهذا المعنى، يرى لو بون أنّ الحروب القادمة لن تكون حكرًا على السّلاح، بل يذهب أكثر من ذلك، معتبرًا أنّ الحروب الاقتصاديّة أشدّ قساوة وضراوة. في هذا السّياق، يعترف الكاتب أنّه لو اكتفت ألمانيا، في خِضَمِّ الحرب العالميّة الأولى، بشنّ حرب اقتصاديّة من دون اللّجوء إلى حرب عسكريّة، لكانت هي المنتصرة اليوم، وَلَمُنِيَ الحلفاء بهزيمة نكراء.

وبعد، إذا كان مستقبل الحروب يتوقّف حصرًا على القوّة الاقتصاديّة، فهذا يعني أنّ التّحالفات لن تبقى على حالها، فحُلفاء اليوم هم أعداء الغد، والعكس بالعكس.

من هذا المنطلق، يُمكن أن نفهم سعي بريطانيا آنذاك إلى فرض سيطرتها الاقتصاديّة على العالَم، كما يُمكننا أن نتبيّن سعي فرنسا الدّؤوب إلى اجتراح تفاهُمٍ مع ألمانيا.

الحقّ أنّ المستقبل هو للدّول المقتدرة اقتصاديًّا، أي للدّول القادرة على بسط سلطتها الاقتصاديّة في ضرب من المواءمة الخلّاقة بين متطلّبات النّظام الرأسماليّ، وأحكام النّظام الاشتراكيّ.

عند هذا الحدّ تبرز الولايات المتّحدة الأمريكيّة بوصفها هذه الدّولة المقتدرة، الدّولة التي استطاعت حقًّا، برأي الكاتب، أن تُحقّق المواءمة المنشودة.

الواقع أنّ الولايات المتّحدة أبعد ما تكون عن تبنّي المفاهيم الاشتراكيّة، لكنّها أبعد ما تكون أيضًا عن إطلاق العنان للنظام الرّأسماليّ على عواهنه. من هنا، رصد لو بون قدرة القادة على تكريس نظام اقتصاديّ يجعل العامل شريكًا لربّ العمل، سواء من خلال منحه أسهمًا في الشّركة التي يعمل فيها، وذلكم لَعَمرنا ما يُضفي الأمان الوظيفيّ والاطمئنان النّفسيّ، أو

من خلال ردم الهوّة بينهما من خلال تجانسهما اجتماعيًّا ـ زيارات متبادلة، علاقات ودّ ومحبّة، إلخ، ـ وارتدائهما، في كثير من الأحيان، الزيّ نفسه، وتقاسم الأرباح، إلخ.

خلاصة القول، استطاع لو بون أن يُحلِّل بنى المجتمع الأوروبيّ والأمريكيّ تحليلًا ثاقبًا، وأن يستكنه دوافعه السيكولوجيّة، ومنطلقاته المعرفيّة، وأوهامه، وضلالاته، كما استطاع أن يعود بجملة استنتاجات تؤكّد عظيم عبقريّته، وعمق بصيرته، وصوابيّة توقّعاته.

# إهداء

**إلى الكولونيل سادي كارنو** Sadi Carnot

**في ذكرى سنوات طويلة من الصّداقة**

**غوستاف لو بون**

# مُقدّمة: الوجه الرّاهن للعالَم

يُمثّل العصرُ الرّاهن حقبةَ تقدّمٍ وتقلّبات تُميِّزُ، بعمق، الحضارة الحديثة من كلّ ما سبق للبشريّة أنْ شاهدته يُولَد وينمو ويختفي على امتداد تاريخها الطّويل. فالشّعوبُ تُلفي نفسها في منزلةٍ بين عالَمٍ ينتهي وآخر يبدأ.

سوف تتوقّف بنية العالم الجديد على النزاع الذي سينشب بين القوى الخلّاقة والقوى المحافظة والقوى المدمِّرة التي تؤثّر في حياة الشّعوب.

الواقع أنّ القوى الخلّاقة التي تُولَد كلّ يومٍ في المختبرات والمصانع قد حوّلتِ الحياة الماديّة، وأعطت الحضارات مظهرًا جديدًا.

تُمثّل القوى المحافظة تراث الأسلاف بالنّسبة إلى الشّعوب. الحقّ أنّ المبادئ الموجِّهَة للسلوك تتبلور في مجال اللا وعي. أمّا القوى المدمِّرة فتعمل في الاتّجاه المعاكِس للقوى السابقة. حقيقة الأمر أنّ طموحات الحكّام، والمنافسة بين الشّعوب، واستياء الجماهير، تنتمي كلّها إلى دائرة القوى المدمِّرة. في هذا السّياق، تُظهِرُ الكوارث التي لُوحِظَت منذ بدايات الحرب الأخيرة إلى أيّ حدّ يُمكن أن تُدمِّر العالَم.

وبعد، تنجم غالبيّة المشاكل التي ندرسها في هذا المؤلَّف عن التهديدات التي لا تزال القوى المدمِّرة تُشكّلها على مختلف البلدان. لذا ينصبّ اهتمام الحكّام الأكبر في إيجاد الوسائل الملائمة للحدّ من خطرها.

يكفي أن نُلقي نظرة على الوجه الرّاهن للعالَم كي نتبيّن الدور الذي تلعبه القوى المدمِّرة.

انقسمت غالبيّة دول أوروبا: ألمانيا، وإيطاليا، وبولندا، إلخ، من جرّاء المنافسة على الحدود، فهي لا تُفكّر إلّا في التوسّع ولو على حساب جيرانها.

تُضاف إلى تهديدات النّزاعات الخارجيّة هذه تهديدات النّزاعات الداخليّة التي تتحدّد من خلال منافسة الأحزاب. وعليه، من أجل تجنّب الفوضى النّاجمة عن هذه الصّراعات الدّاخليّة، خضعت أمم كبرى، مثل إسبانيا وإيطاليا، لسلطة الدِّكْتاتوريات.

في السياق نفسه، لم تنجُ الشّعوب الأكثر استقرارًا نتيجة ماضٍ طويل من الفوضى التي وقعت أوروبا ضحيّتها اليوم. ذلك بأنّ إضرابًا عامًّا كان كفيلًا بتدمير إنجلترا، كما تسبّب إضراب عمّال المناجم في خسائرَ قُدِّرت بالخسائر النّاجمة عن حرب كبرى.

إلى ذلك، شهدتِ السّياسة الخارجيّة البريطانيّة اضطرابًا شبيهًا بالاضطراب الذي شهدته سياستها الدّاخليّة. فبعد أن خسِرَت إيرلندا، راحت المستوطنات تُطالب باستقلالها، وأُقفِلَت الأسواق الخارجيّة، التي كانت تمنحها الحياة، في وجهها. لقد جسّد مليون ونصف مليون عاطل عن العمل خطورة الوضع.

لم تكن الدّول الأوروبيّة الأخرى في وضعيّة أفضل. فقد عادت روسيا من جديد إلى الهمجيّة، وسعت ألمانيا بمشقّة في إصلاح وضعها الاقتصاديّ، وفرنسا وقعت فريسة الانقسامات التي كادت تُدمِّر وجودها الماليّ.

خلاصة القول إنّ الفوضى التي أرخت بظلالها على أوروبا امتدّت لِتَطَال أجزاء أخرى من العالَم. فالشّرق برمّته، من تركيا إلى الصّين، ألفى نفسه منخرطًا في حروب أهليّة مُروِّعة.

والحال أنّ جزءًا كبيرًا من العالَم يبدو غارقًا في الفوضى. على المقلب الآخر، أمكن لأمريكا، البلد الوحيد الذي استفاد من الحرب، أن تنجو من أسباب الخراب الذي وقعت كلّ الشّعوب ضحيّته. لقد استطاعت أن تقبض بكلتا يديها على أكثر من نصف ذهب العالَم. الواقع أنّ أكبر دول أوروبا مدينة لها، فهي تُمارس عليها أكثر فأكثر هيمنة ماليّة ثقيلة للغاية أحيانًا. أضف إلى ذلك أنّها تحرّرت من كلّ تأثير اشتراكيّ، وتلقّى عمّالها أجورًا أكثر ارتفاعًا بكثير من عمّال الدّول الأخرى، إلى حدّ أنّهم حَظَوْا بحياةٍ كريمةٍ حسدهم غالبيّة البرجوزاييين الأوروبيّين عليها.

ينجم أحد أكبر مخاطر الوقت الرّاهن، إن لم يكن أكبرها لأنّه يُهدِّد وجود الحضارات نفسها، ينجم عن التطوّر الذي حقّقته وسائل التّدمير. بعبارة أوضح، وَضَعَتِ اكتشافاتُ العلم في خدمة المشاعر ـ المشاعر التي لم يتبع تطوّرها تطوّر الذّكاء ـ وسائلَ تدميرٍ قويّة للغاية، إذ بات بالإمكان تدمير عواصم كبرى في بضع ساعات فحسب. يتعلّق الأمر هنا بتهديد لم يشهده العالم من قبل.

إلى ذلك، عمد رجال الدّولة المشهورون، رغبةً منهم في تجنّب هذا الاحتمال المخيف، إلى تأسيس مجتمع الأمم، حيث بحث ممثّلو الشّعوب، بوساطة عمليّات التّحكيم، عن إرساء السّلام.

الحقّ أنّهم لم ينجحوا في هذا الأمر بعد. في هذا السياق، تُظهر نقاشاتهم أنّ الاختلافات في المشاعر تفصل النّاس بعضهم عن بعض أكثر ممّا يفصلهم تباعد المصالِح.

الواقع أنّ هذا المسعى من أجل إرساء سلام طويل الأمد ليس جديدًا. إذ طالما بحثت الدّول المـُنْهَكة، بعد فترات الصراع الكبرى، عن المجموعات القادرة على إحلال السّلام. فبعد عشرين عامًا من انتهاء الحروب النابليونيّة أَمِل مؤتمر فيينا(1) وضعَ حدّ لعصر النّزاعات.

حقيقة الأمر أنّ كلّ هذه المجموعات تظلّ فاعلة ما دامت لم تظهر صعوبات تعجز القرارات السلميّة عن حلّها. لقد لاحظنا وبحقّ أنّ مجتمع الأمم لو وُجِد في الحقبة التي أُسّست فيها وحدة إيطاليا، لكان تَحَقُّق هذه الوَحدة مستحيلًا. ذلك بأنّ كلّ دولة صغيرة من الدّول التي تكوّنت منها إيطاليا آنذاك كانت لتلجأ إلى مجتمع الأمم، الذي كان سيستخدم تأثيره من أجل حمايتها.

وبعد، تملك كلّ هذه الأبنية القانونيّة التي تدّعي تأبيد وضعيّة العالَم في لحظة ما مُعطاة، تملك فائدة موقّتة لا جدال فيها، بيد أنّ تأثيرها لا يُمكن أن يستمرّ طويلًا. بوجيز العبارة، لا يُمكننا أن نجعل الأمم تستقرّ ما لم نعمل على استقرار تطوّر الحياة.

إلى جانب الجهود المبذولة من مجتمع الأمم من أجل إحلال السّلام، بحث الدّبلوماسيّون عن تثبيته بمعيّة طريقة الحلفاء القديمة. للأسف، يُظهر التاريخ القديم أو الحديث أنّ المعاهدات تبقى من دون فعاليّة عندما تكفّ عن أن تكون متناسقة مع المصالح المتناقضة للأطراف. لقد رأينا هذا الأمر مرّة أخرى أيضًا في الحرب الأخيرة، عندما لم تتردّد إيطاليا في الانقلاب ضدّ حليفها الألمانيّ عندما وجدت مصلحتها في هذا الانقلاب، على الرّغم من الالتزامات الشّكليّة.

في أيّامنا هذه، تكمن الأسس الفعّالة الوحيدة للتحالفات في اشتراك المصالح الاقتصاديّة. هذا الاشتراك الذي يعود إليه سبب التّقارب بين فرنسا وألمانيا.

الواقع أنّ التجمّعات الاقتصاديّة الدوليّة، مثل التّجمّع الذي تكوَّن حديثًا بين فرنسا وألمانيا ودول أخرى مختلفة من أجل ضبط بعض المنتجات ـ الصُّلب تحديدًا ـ هي التي بإمكانها أن تُرسي السّلام أكثر من كلّ مشاريع التّحالف ونزع السّلاح والتّحكيم التي أُعِدَّت بِشقّ الأنفس في المجالِس.

من السّهل إظهار، من وجهة نظر عقلانيّة، أنّ الشّعوب تملك مصلحة أكبر في أن تساعد بعضُها بعضًا بدلًا من أن تُدمّر بعضها بعضًا. لكن للأسف يلعب العقل دورًا ضعيفًا للغاية في الحياة السياسيّة. لقد تراجع هذا الدّور أيضًا مذ هيمنت القوى الجمعيّة التي تُعتَبر ميزة التطوّر الديمقراطيّ الحديث.

الحقّ أنّ القوى الجمعيّة قوى عمياء، وفجائيّة، لا يملك العقل أن يؤثّر فيها بصورة فاعلة، تمامًا كما لو كان يُمارس تأثيره في سيلٍ متدفّق. لذلك يُمكن القول إنّ الحروب المستقبليّة قد تولد من جرّاء موجة غضب شعبيّ تجتاح في لحظة ما كلّ الاتفاقيّات التي شيّدها الدّبلوماسيّون بشقّ الأنفس. بهذا المعنى، اندلعت حرب 1870 نتيجة انفجار غضب الجماهير الذي أطلقت برقيّةٌ مزيّفةٌ بمهارةٍ العنانَ له.

علاوة على ذلك، من المحتمل أن تكون أكثر الصراعات المستقبليّة خطورةً هي الحروب الداخليّة الناجمة عن الثورات الشّعبيّة التي تسبّب وسيتسبّب فيها رُسُل الدّيانة الاشتراكيّة.

وبعد، نقول وبحقّ: أنْ تَحْكُم يعني أن تتوقّع. لكن أنّى لك أن تتبيّن في التشابك المعقّدِ الأسبابَ التي تتأتّى منها الحوادث الكبرى؟

الواقع أنّ الصّعوبة كبيرة، إذ من شأن الأخطاء الصّغيرة في السياسة أن تُحدث في بعض الأحيان آثارًا كبيرة. بهذا المعنى، كان من التّبعاتِ الأولى لرُؤى راعي إبلٍ غامضٍ في الصّحراء العربيّة، لا سيّما بعد تكوينِ دينٍ جديد، تأسيس إمبراطوريّة كبيرة، ومن التبعات البعيدة الحروب الصليبيّة التي عجّلت في سيطرة أوروبا على الشّرق.

اليوم، مع اعتماد الشّعوب بعضها على بعض، يُمكن المنافساتُ البسيطة بين الدّول المتجاورة، وإن كانت دولًا صغيرة للغاية، أن تُطلِق العنان لنزاع عالميّ. تُشكّل الحرب الأخيرة خير مثال على ذلك.

وبعد، من دون ادّعاء القراءة في كتاب القَدَر، يُمكننا، في الحدّ الأدنى، أن نُسلِّط الضّوء على بعض العوامل الأساسيّة التي يبدو أنّها ستؤثّر في التطوّر القادِم للعالَم.

في هذا السياق، تُضاف إلى القوى التدميريّة ذات المنشأ القديم، التي أتينا على ذكرها في بداية هذا الفصل، القوى التدميريّة الجديدة، ونعني تحديدًا الحركة النقابيّة والاشتراكيّة، التي تتأتّى من الهيمنة الحديثة للتأثيرات الجمعيّة.

مالَت المجتمعات، تحت تأثير الحركة النقابيّة، إلى الانقسام إلى مجموعات صغيرة. إلى ذلك، لم تُعنَ كلّ مجموعة إلّا بمصالحها الخاصّة، مع كلّ ما يتطلّبه هذا الأمر من عدم اكتراث للمصلحة العامّة. لقد غدت قوّة النقابات كبيرة للغاية. بهذا المعنى كادت النّقابات هذه أن تتسبّب حديثًا في إفساد انتظام إنجلترا برمّتها من خلال إعلانها الإضراب العام.

حقيقة الأمر أنّ نشاطها انحصر قديمًا بطبقة العمّال، لكنّها امتدّت الآن لتطال طبقة الموظّفين، والمعلّمين. إلى ذلك، وجد الاتحاد العمّالي العام نفسه ـ من بعد أن نجح في توحيد كلّ نقابات العمّال ـ قادرًا على استيعاب المدافعين المحترفين عن الدّولة.

كان من نتائج هذا الاستيعاب أَنْ وجدت الحكومات نفسها عاجزة عن تأمين متطلّبات موظّفيها، وخير مثالٍ على ذلك الحكومة الإيطاليّة قبل مجيء الفاشيّة.

مع ذلك يجب ألّا يَختلط تجمّع المصالح النقابيّة، الذي يُشكّل جوهر الحركة النقابيّة، مع الاشتراكيّة التي أناطت بالدّولة، وليس بالنقابيّين، الإدارة العامّة للمؤسّسات.

الواقع أنّ الاشتراكيّة هي في الوقت نفسه حركة سياسيّة ودينيّة. فهي لا تستمدّ قوّتها من عقيدتها، بل من العناصر الصوفيّة التي تُشكّل خيرَ سندٍ لها.

يُفضي نجاحها إلى إثبات أنّ النّاس، منذ العصور البعيدة حتّى زماننا هذا، لم يستطيعوا الاستغناء عن الإيمان الدينيّ في إدارة حياتهم. يبدو أنّه يتعذّر وضع حدّ لهذه الحاجة الصوفيّة، شأنها في ذلك شأن الجوع والحبّ.

وبعد، لا تتعارض القوى التدميريّة، التي أشرنا إلى قوّتها للتوّ، مع القوى الخلّاقة النّاتجة عن المختبرات فحسب، بل تتعارض كذلك مع القوى المحافظة التي خلقها الماضي.

يكمن أحد أكثر الأوهام السياسيّة خطورة في عصرنا الحالي في الاعتقاد أنّه بمقدور شعب ما أن يتحرّر من التأثيرات السّلفيّة التي تُشتقُّ طبيعتُه منها.

لقد وقع ضحيّة هذا الوهم رجال الثّورة الفرنسيّة عندما اعتقدوا أنّه بمقدورهم تأسيس عصر جديد يشهد على قطيعتهم التامّة مع الماضي. كما وقعت اليوم ضحيّة الوهم نفسه الأحزاب السياسيّة المتطرِّفة، إذ طمحت إلى تغيير المجتمع من خلال جملة مراسيم. لكنّها نسِيَت أنّ الإنسان لا يخرج على نفسه، فهو ابن الماضي، ولا يُضيف إلّا القليل على التراث الذي يحمله معه منذ الولادة. ثمّة مجموعات سياسيّة مختلفة يُمكن أن تَفرِض نفسها عليه

للحظة، لكن ليس بمقدورها أن تستمرّ إلّا إذا توافقت مع الركيزة السّلفيّة للذهنيّات التي ينبغي لتلك المؤسّسات أن تحكمها. الحقّ أنّ التّنظيمات الجديدة في ظاهرها تُشتقّ في الأعمّ الأغلب من التنظيمات الماضية كما تُشتقّ النبتة من البَذْرة. ولذلك، يُمثِّل تاريخُ الشّعوب المـُسْتَقِرَّة بفعل حياتها السابقة استمراريّةً كبيرة، على الرّغم من الاضطرابات الواضحة التي يحفل بها أحيانًا.

في هذا السّياق، أكّد رجل دولة شهير ما يلي: «خضعت المسائل الاقتصاديّة، والسياسيّة، والأخلاقيّة لقوانين عامّة، حيث تسمح الطريقة التجريبيّة، إذا طُبِّقَت بشكل سليم، بالبحث مُجدّدًا عن الأُسس، وتكريس الاستمراريّة».

حقيقة الأمر أنّ القوانين العامّة هذه قد فُهِمَت بشكل سيّئ للغاية، ولذلك نجد أنّ الأمبيريّة تلعب دورًا كبيرًا في المجال السياسيّ.

لا تملك الأمبيريّة هذه كمرشدٍ لها سوى معرفة الدوافع التي تُحرِّك النّاس. والحال أنّه ينبغي اللجوء إلى السيكولوجيا من أجل السّعي إلى فهم الحوادث التي يُشكِّل تتابُعها التاريخَ. وعليه، تُفسِّر السيكولوجيا جزءًا كبيرًا من الظواهر السياسيّة، والعسكريّة، والاجتماعيّة. إلى ذلك، تدخل أسباب انتشار الاشتراكيّة، وتقلّبات الإرادات الشّعبيّة، والدور الصوفيّ للمعتقدات، والقضايا الماليّة نفسها، تدخل في اختصاص السيكولوجيا.

لقد أصبح هذا العلم ضروريًّا بالنّسبة إلى الحكّام المعاصرين. فقد توصّل الأمريكيّون، من خلال استخدام قوانينه، إلى حلّ مشكلة صراع الطبقات على أراضيهم، المشكلة التي هدّدت العالَم القديم باندلاع نزاعات هائلة. على المقلب الآخر، أغرق رؤساء الإمبراطوريّات الكبرى أوروبا في مهاوي الخراب والدمار نتيجة إغفالهم بعض قوانين السيكولوجيا الجمعيّة، هذه المهاوي التي لم تنجح حتّى الآن في الخروج منها.

بالنّظر إلى الهيمنة الحديثة للتأثيرات الجمعيّة، ينبغي معرفة سيكولوجيا الجماهير أكثر من معرفة أيّ شيء آخر. نحن نعلم اليوم أنّ الذّهنيّة الفرديّة والذّهنيّة الجمعيّة أمران مختلفان

للغاية. فبخلاف اعتقاد شائع جدًّا أيضًا، يُمكن القول بأنّ الوجود الجمعيّ أدنى بكثير من الوجود الفرديّ.

يكمن أحد أكبر أخطاء السياسة الحديثة في الاعتقاد بأنّ أحكام النّاس المنضوين تحت لواء الجماعة هي أرفع شأنًا من أحكام الفرد المعزول. تُمثّل قرارات الجماهير، بالنّسبة إلى السياسيّين، حقائق مطلقة.

من دون شكّ تُحافظ الفضائل الجمعيّة على ازدهار الشّعوب، بيد أنّ الأفكار التي ترفع مستوى الحضارة وتؤكّد عظمتها لا تنبثق إلّا من الفكر الفرديّ.

يعود أيضًا إلى مجال السيكولوجيا الجمعيّة أمر دراسة التأثيرات السّلفيّة التي تُهيمن على حياة الشّعوب. إذا أخذنا، على سبيل المثال، الشّعوب التي تملك ماضيًا طويلًا، فإنّنا نجد أنّ روح العرق يضع حدًّا لتقلّبات الإرادات الشّعبيّة التي تُوَلِّدها الحوادث. الحقّ أنّ روح العرق هي البحر الدائم والعميق، في حين أنّ روح الجماهير تُمثّل الأمواج المتحرِّكة التي تثيرها العاصفة. وعليه، من العبث أن يبحث الإنسان أحيانًا عن إحداث قطيعة مع ماضيه. والحال أنّنا سنرى في هذا المؤلَّف أنّه على الرّغم من كلّ الثّورات تبقى أفعال الأحياء خاضعة لإرادة الموتى الآمرة.

(1) مؤتمر فيينا هو «مؤتمر لسفراء الدول الأوروبية ترأسه رجل الدولة النمساوي كليمنس فون مترنيش. عقد المؤتمر في فيينا في الفترة من أيلول 1814 إلى حزيران 1815. كان هدفه تسوية العديد من القضايا الناشئة عن حروب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وتفكك الإمبراطورية الرومانية المقدسة. أسفر هذا المؤتمر عن إعادة رسم الخريطة السياسية للقارة، ووضعِ حدودٍ لفرنسا ودوقية نابليون في وارسو وهولندا وولايات نهر الراين والمقاطعة الألمانية في ساكسونيا على الأراضي الإيطالية المختلفة وإنشاء مناطق نفوذ لكل من فرنسا والنمسا وروسيا وبريطانيا تتوسط فيها تلك الدول في حل المشاكل المحلية والإقليمية. كان مؤتمر فيينا نموذجًا لعصبة الأمم والأمم المتحدة بسبب هدفها في إحلال السلام من جانب جميع الأطراف.

كانت الخلفية المباشرة هزيمة فرنسا النابليونية واستسلامها في أيّار 1814، الأمر الذي وضع حداً لـعشرين عامًا من الحرب المتواصلة تقريبًا. استمرت المفاوضات على الرغم من اندلاع القتال الناجم عن عودة نابليون من المنفى واستعادته الحكم في فرنسا خلال مئة يوم من آذار إلى تموز 1815. الوثيقة الختامية للمؤتمر وقعت قبل تسعة أيام من هزيمته النهائية في واترلو في 18 حزيران 1815». انظر ويكيبيديا.

# الكتاب الأوّل: القوى التي تقود العالَم

**التطوّر الرّاهن للعالَم**

# الفصل الأوّل: القوى الماديّة وغير الماديّة في التاريخ

لم تتغيّر المشاعر الأهواء التي تقود العالَم كثيرًا، لكنّ الشّعوب خضعت تدريجيًّا للتأثيرات التي وجّهتها بطرق مختلفة.

تُضاف إلى الدوافع الانفعاليّة والصوفيّة التي طالما أرشدت الإنسان على امتداد التاريخ، القوى الجديدة المنبثقة من المختبرات. ففي أقلّ من قرن، مارست بعض هذه القوى، مثل البخار، والكهرباء تحديدًا، في حياة الشّعوب تأثيرات أعمق بكثير من كلّ التأثيرات التي خضعت لها على امتداد العصور السّابقة.

الحقّ أنّ دور القوى الخلّاقة الجديدة كان ملحوظًا للغاية، لذا وجبت دراسته مطوّلًا. في هذا السياق، يكفي أن نتذكّر إلى أيّ حدّ نجح واحد من الاكتشافات الحديثة، ونعني القوى المحرِّكة المستمدّة من الفحم، في تغيير الحياة الاجتماعيّة للأمم، وقيَّد إرادات الحكومات.

بهذا المعنى، يُمكن القول إنّ الحياة السياسيّة في العالَم خاضعة جزئيًّا اليوم للقدرة المذهلة التي جعلها العلم تنبثق من الفحم الخامل، من بعد أنِ اعتُبِرَت على امتداد قرنٍ وأكثر مادّة لا قيمة لها. إلى ذلك، لم تخرج منها عناصر الحضارة الحديثة فحسب، بل خرجت أيضًا وسائل التّدمير التي تملك القدرة في الحروب القادمة على إبادة العواصم الأسطع في لحظة واحدة.

الحقّ أنّ الشّعوب التي تملك مناجمَ كبيرة من الفحم ـ أو من بديلها النّفط ـ ستحتفظ لنفسها، من جرّاء امتلاكها هذه المناجم فحسب، بتفوّق اقتصاديّ وسياسيّ كبير.

لقد أمكن لإنجلترا بفضل الفحم أن تُسيطر على البحار، ومن ثمّ على التجارة في العالَم. إلى ذلك، لم تكن نجاحات ألمانيا العسكريّة في العام 1870 على الإطلاق ـ كما كرّرنا في أكثر من مناسبة ـ السّببَ في وصولها إلى قمّة الازدهار، بل كان اكتشاف مناجم جديدة من الفحم على أراضيها. بعبارة أخرى، شكّل الفحم أصل القوّة الصناعيّة الألمانيّة. لقد سمح لها أن تطمح إلى أن تحلّ محلّ إنجلترا في هيمنتها التجاريّة على كلّ نقاط الكرة الأرضيّة. الحقّ أنّ هذا الادّعاء هو الذي يتسبّب في نشوب حرب عالميّة. أمّا الأسباب الأخرى التي جرى استحضارها من أجل تفسير أصل النّزاع فلا تعدو كونها أسبابًا ثانويّة.

يتفوّق النّفط كثيرًا على الفحم لجهة الرّاحة في استخراجه، لكنّ إنتاجه يبقى محدودًا. لذا نجد كلّ الشّعوب تتنافس اليوم في بذل أقصى الجهود من أجل الحصول على هذا السّائل النّفيس.

الواقع أنّ النّفط والفحم هما اللذان حدَّدا سياسة إنجلترا العالميّة. لقد افتقرت، بوصفها بلدًا صناعيًّا، إلى الزّراعة، لذا كان لزامًا عليها أن تستورد غذاءها. الحقّ أنّ الإنجليز لم يدفعوا ثمن البضائع المستوردة نقدًا، بل قايضوها بالبضائع المـُصنَّعة في معاملهم، ذلك بأنّ توقّف الصادرات من شأنه أن يُفضي سريعًا إلى انتشار البِطَالة.

وبعد، كثيرة هي الأمثلة التي تُثبِت أنّ دور القوى المـُحَرِّكة يتعاظم يومًا بعد يوم في الحياة السياسيّة للشّعوب. إلى ذلك، لم يمتدّ تأثيرها ليطال أوروبا فحسب، بل امتدّ كذلك ليصل إلى كلّ أطراف العالَم. فإذا أَعْوَزَ اليابانَ الفحمُ اليوم، ولم تكن واثقةً بأنّ أميركا ستزوّدها به على الدّوام، فإنّها سرعان ما ستُفاوض روسيا السوفياتيّة في شأن اتفاقيّات هامّة، على أمل أن تمتلك سُلطة استغلال مناجم سيبيريا لصالحها.

يسمح الدّور الملحوظ الذي لعبته الاكتشافات العلميّة في حياة الشّعوب بالتوجُّس من التحوّلات التي ستُحدثها الاكتشافات الأخرى.

من دون الحديث عن تحرير الطاقة الموجودة في داخل الذّرّة التي من شأنها أن تُغيِّر تمامًا شروط وجود النّاس، يُمكننا القول بأنّ الطّبيعة تنطوي على قوًى غير مُستخدمة بعد، مثل الحرارة الشّمسيّة، التي ستُطَوَّع حتمًا.

لقد لاحظتُ بالفعل في عملٍ قديم أنّ المـُحرِّك البخاريّ، الذي بالكاد يستخدم الجزء العاشر من الفحم الذي يستهلكه، كان أداة بربريّة سيُقدَّر لها الظّهور مستقبلًا في المتاحف على سبيل الفضول.

نتوقّع منذ الآن أنّ القوّة المـُحَرِّكة المـُستَخرَجة من الفحم، على شكل كهرباء، في قاع المناجم، يُمكن أن تُرسَل بعيدًا بواسطة أسلاك بسيطة.

إلى جانب القوى الماديّة التي يُمكن القول بأنّ دورها الخلّاق كبيرٌ للغاية، توجد القوى غير الماديّة التي طالما كان دورها ملحوظًا ومُهيمنًا، في بعض الحقبات، في حياة الشّعوب.

على الرّغم من اكتشاف جملة حقائق ساطعة في المختبرات ـ وهي حقائق لا تقبل الجدال أبدًا ـ فإنّ العالَم ما زال يُحكَم من قِبَل مجموعة من القوى الصوفيّة التي تظهر على شكل معتقدات دينيّة أو سياسيّة، ناهيك باعتبارها حقائق غير قابلة للنّقاش. الحقّ أنّها حكمت العالَم منذ فجر التاريخ، إذ لم يتغيّر سوى شكلها وحده.

حقيقة الأمر أنّ الآلهة التي شكّلت أساس الحضارات الكبرى، منذ جوبيتير إلى بوذا مرورًا بإله محمّد، رأت مكانتها تتراجع أو تختفي. مع ذلك، حلّت محلها الأوهام السياسيّة أو الاجتماعيّة التي نُسِبَت إليها قدرة سحريّة شبيهة بالقدرة التي عُزِيَت إلى الآلهة القديمة.

إلى ذلك، يُمكن القول إنّ تعريف الصوفيّة، التي ما زالت تحكم روح الشّعوب، وروح أسيادها، بسيطٌ للغاية، وذلكم ما ذكرته في أكثر من موضع. لقد أُلفِيَت مُكَوَّنةً من القدرة

الفوق طبيعيّة التي نُسِبَت إلى الآلهة، والمعتقدات، والشّعارات. إنّ الإنسان الخاضع لمعتقد دينيّ هو شخص صوفيّ. لقد قطع روبسبيير(2) Robespierre الرؤوس بسرعة ليُشيِّد مملكة الفضيلة، ولهذا يُمكن اعتباره صوفيًّا. قل كذلك عن صوفيّة الشيوعيّ المقتنِع بأنّ تطبيق تعاليم الإنجيل اليهودي الألمانيّ لكارل ماركس من شأنه أن يجعل الجنّة تظهر هنا على الأرض.

بهذا المعنى، تغدو قوّة الإنسان، الذي يُسيطِر عليه معتقد صوفيّ، قوّة هائلة. لا شيء أكثر أهميّة بالنّسبة إليه من انتصار إيمانه، فهو على استعداد بأن يُضحّي بثروته وحياته كي يفرضه.

عندما يجتاح الإيمان الصوفيّ حقل الفاهمة، ما من حُجّة يُمكن أن تؤثّر فيه. فالحبّ الأموميّ نفسه يستسلم أمامه. ففي الحقبة التي انتشرت فيها الطائفة البابيّة(3) في فارس في العصر الحديث، قادت النّساء بأنفسهنّ أطفالهنّ إلى السيّافين ورأينهم يُقطَّعون تحت أنظارهنّ، وأظهرْنَ فرحًا عارمًا بدلًا من أن يتخلّين عن دينهنّ. توجد في روسيا أيضًا طوائف يفرض فيها الرجال والنّساء على أنفسهم، تحت تأثير صوفيّتهم، أبشع أنواع التّنكيل بالذّات. الحقّ أنّنا لسنا بعيدين عن الزّمن الذي كان أنبياء البلد نفسه يقنعون فيه آلاف الرّجال بأن يهلكوا معهم في المحارق نفسها.

تكمن قوّة البلشفيّة تحديدًا في امتلاك عدد من الأتباع المستعدّين لزعزعة استقرار العالَم من أجل نصرة معتقدهم.

وبعد، كيف يُولَد إيمانٌ صوفيٌّ، ويكبر، ويموت؟ الحقّ أنّي عالجتُ هذا الموضوع كثيرًا في كتبي، بحيث تنتفي الحاجة إلى العودة إليه. مع ذلك، يُمكننا القول، بطريقة مختصرة جدًّا، بأنّ استمراريّة الصوفيّة في التاريخ تجد مردّها في حاجة الإنسان التي لا تُقاوم إلى الخضوع للسلطات العليا في ما يتعلّق بتوجيه حياته، لا سيّما أنّ هذه السلطات تُعتبَر معصومة من الخطأ.

الواقع أنّ هذه الحاجة قويّة للغاية، إلى حدّ أنّ أيّ شعب يبحث منذ اللحظة التي يخسر فيها آلهته عن استبدالها. بهذا المعنى، تمتلك الاشتراكيّة اليوم السّلطة الصوفيّة التي كانت تُنَسَب إلى الآلهة القديمة.

لقد ظلّ الدور الذي لعبته الصوفيّة في التاريخ مجهولًا لفترة طويلة. تجدر الإشارة، في هذا السّياق، إلى أنّ كلمة صوفيّة نفسها التي باتت تُستخدَم اليوم أكثر فأكثر في السياسة، قد استخدمت، حصريًّا، منذ خمسة عشر عامًا بمعنًى دينيّ. ذات يوم، في أثناء تواجدي مع برغسون لدى إميل أوليفييه Emile Ollivier(4)، أجرينا نقاشًا طويلًا حول المعنى الحقيقيّ لكلمة صوفيّ. عارضني برغسون مستندًا إلى مجموعة القواميس المتراكمة على إحدى الطاولات كي يُثبت لي أنّ هذا المصطلح لا يُمكن أن يحمل إلّا معنًى دينيًّا. لكنَّ رأيي كان مختلفًا، ذلك بأنّني كنتُ قد فرغتُ لتويّ من تأليف كتاب حول الثورة الفرنسيّة، أظهرتُ فيه الدور الرئيسيّ الذي لعبته الصوفيّة في هذه المأساة الكبيرة.(5)

بطبيعة الحال أنا لم أُغيِّر أحدًا، لكنّي متأكّد من أنّني سأُحقِّق اليوم المزيد من النّجاح اليوم مع المتحاورين أنفسهم. لقد أمكن لي أن أعثر حديثًا على برهانٍ جديد في كتابٍ نُشِرَ تحت عنوان: فلسفة جديدة للتاريخ، خطّه تلميذ قديم في المدرسة العاديّة العليا،(6) السيّد غيلوين(7) M. Gillouin. بالنّسبة إلى هذا المتميِّز الجامعيّ، تُشكِّلُ معرفة دور الصوفيّة في التاريخ نورًا عظيمًا يُمكن مقارنته بالنّور الذي سطع حول القديس بولس في الطريق إلى الشام.(8)

لم تنتصر الأفكار في فرنسا إلّا من بعد أن مرّت بالجامعة. والحال أنّ تأثير التصوّف في التاريخ القديم والحديث سيغدو حقيقة كلاسيكيّة، وسيصمد أمام التأويلات العقليّة التي لا تُفسِّر شيئًا.

في الواقع، طالما هيمن التصوّف على التاريخ. لقد جعل العالمَ، من ضفاف النّيل إلى ضفاف نهر الغانج مأهولًا بكائنات مقدّسة، كائنات متخيّلة بطبيعة الحال، لكنّها امتلكت مع ذلك ما يكفي من القوّة كي تُوجِّه الحضارات الكبرى.

في أيّامنا هذه، خلّت الآلهة الشخصيّة مكانها للصيغ الصوفيّة التي امتلكت قدرات سحريّة، وباتت قادرة هي أيضًا على استعباد النّفوس.

إلى عهد قريب، لم يكن يُنافِس إيمانًا صوفيًّا إلّا إيمانٌ صوفيّ آخر. بيد أنّ الأمر اختلف الآن. فالضرورات الاقتصاديّة الآمرة، التي كان يجهلها آباؤنا، تتصدّى اليوم لكلّ أشكال التصوّف.

لكن مهما بلغ اقتدار القوى الاقتصاديّة اليوم، كما في الأمس، وأغلب الظنّ غدًا، فإنّ الشّعوب ستبقى بحاجة إلى مثالٍ صوفيّ ليُوَجِّه حياتها. الحقّ أنّ هذه الشّعوب لم تلجأ إلى الاشتراكيّة، والشيوعيّة، وإلى أكثر أشكال الوهم سوءًا، إلّا لأنّها بحثت، من بعد أن فقدت المثال الذي يدعم نفوسها، عن مثال آخر بمُكْنَتِه أن يُوجِّه أفكارها وإراداتها.

ينبغي لنا أن نضع، إلى جانب التأثيرات الصوفيّة التي تقود الشّعوب، التأثيرات الانفعاليّة، أي ذلك المدى الشّاسع من المشاعر والأهواء التي تُوجِّه السّلوك. على غرار القوى الصّوفيّة، تُهيمن التأثيرات الانفعاليّة على القوى العقلانيّة التي كنّا نعتقد أنّها لا تُقاوَم.

وبعد، سنُظهر مرارًا، على امتداد هذا المؤلَّف، كم أنّ دور العقل ضعيفٌ أمام التأثيرات الصوفيّة والانفعاليّة التي حكمت العالَم حتّى الآن، وستستمرّ من دون شكّ في حكمه إلى أجل غير مسمًّى.

# الفصل الثّاني: كيف تُولَد الآراء والمعتقدات؟

### دور السّذاجة في التاريخ

منذ أقدم العصور حتّى الأزمنة الحديثة، لعبت السّذاجة دورًا أساسيًّا في التّاريخ. لقد خلقت أُلوهيّات مُقْتَدِرة وَجَّهَت النّفوس، وأرشدتِ الحضارات الكبرى. كما جعلت الأهرامات، والمعابد، والكاتدرائيّات وكلّ عجائب الفنّ التي جَمَّلَتِ العالَمَ تنبثق من العدم. ربّما كان

محتَّمًا على للإنسان، من دون السّذاجة، أن يستمرّ في العيش في الكهوف، وأن يُنازل الوحوش التي تحيط به من أجل مرعاه الضّئيل.

الحقّ أنّ السذاجة القديمة جعلتِ العالَم مأهولًا بجحفلٍ من الآلهة التي لا يرقى إليها الشكّ أبدًا.

على امتداد آلاف السّنين، تدخّلت هذه الآلهة، المفيدة منها والضارّة، في أفعال الإنسان. قلّة هم الفلاسفة، مثل لوكريتوس،(9) الذين انتهى الأمر بهم إلى الشكّ في وجودهم، لكنّ ريبيّتهم لم تلقَ صدًى رَحْبًا.

يُشكّل تاريخ الآلهة على امتداد العصور ظاهرة من أروع الظواهر السيكولوجيّة وأكثرها إفادة. بهذا المعنى، اعتبرتِ الشّعوب، التي وصلت إلى أكثر مراحل الحضارة تقدّمًا، أنّها أثبتت على نحوٍ قاطع وجود آلهة محض مُتخيَّلة. وذلكم ما يُظهر بوضوح أنّ الخيال قادر على خلق ظواهر وهميّة، والتّعاطي معها لاحقًا بوصفها حقائق لا تقبل النّقاش. وعليه، بعيدًا من الظواهر العلميّة المثبتة تجريبيًّا، يُمكننا أن نتساءل دائمًا أين تنتهي الحقيقة، وأين يبدأ الخطأ؟

لقد خال العصر الحديث نفسه تَحَرّر، بفضل أنوار العقل، من كلّ أوهام الماضي، إذ غدا العقل المحض هو مرشده الوحيد.

مع ذلك، أثبتت الملاحظة الأدقّ استمرار السّذاجة القديمة. بعيدًا من المختبرات، تستمرّ هذه السّذاجة ــ سذاجة دينيّة، وسذاجة سياسيّة، وسذاجة إزاء كلّ ما هو خارق ــ في السيطرة على العقول.

الواقع أنّ السّذاجة، خلافًا لكلّ ما يُعلَّم، ليست على الإطلاق نتيجة بسيطة للجهل، ذلك بأنّها تُلاحَظ لدى العلماء الأكثر شهرة، وذلكم ما سوف تُثبته الحقائق التي سنأتي على ذكرها في

هذا الفصل. الحقّ أنّهم كانوا خيرَ نُصَراء للمعتقدات الدينيّة القديمة، والسّحر، وتحضير الأرواح.

لقد أذهلتني هذه الظاهرة كثيرًا في الفترة التي كنتُ أبحث فيها عن تحديد المصادر السيكولوجيّة للآراء والمعتقدات التي كان لها التأثير الأكبر في روح الشّعوب. كيف نفهم إيمان المفكّرين المشهورين بِدِيْنٍ يترك فيه خالقُ العوالم اللا متناهية التي تسبح في الفضاء ابنَه يموت من جرّاء تعذيبٍ مُريعٍ كي يفتديَ خطأ الآباء القدامى. الحقّ أنّه جرى قَبُول فظاعات كهذه من قِبَلِ أسياد العقل مثل غاليليه، وديكارت، وباسكال. في الواقع لم تُثِرْ دهشتَهم رؤيةُ إلَهٍ وحشيّ للغاية يحكم على مخلوقاته الضّعيفة بأن يُخَلَّدوا في النّار لا لشيء إلّا لأنّهم نسوا للحظة أن يخضعوا لقوانينه الصّارمة.

وبعد، تُثبت المعتقدات المماثلة، التي لوحِظتَ في الأديان جميعًا، ولدى كلّ الشّعوب، بصورة قطعيّة أنّ عبثيّة عقيدة ما لا تَحُول دون انتشارها، وأنّ أعلى درجات الذّكاء لا تقف حائلًا دون الإيمان بالعقائد، مع العلم أنّه ما من حجّة عقليّة يُمكنها الدّفاع عنها.

سوف نرى قريبًا تفسيرَ هذه الظاهرة، وسوف نُلاحظ أنّ أصل المعارف العلميّة وأصل المعتقدات يخضعان لأشكال منطقيّة مختلفة، وإذا ما تطابقا في بعض الأحيان إلّا أنّهما لا يؤثّران بعضهما في بعض. وبعد، سنتناول الآن هذه الثنائيّة بالبحث والتّدقيق.

بعيدًا من الحاجات العضويّة التي يُخصِّص الإنسان من أجل إشباعها الجزء الأكبر من وجوده، نجد أنّه مُوجَّه في الحياة من خلال آراء موقّتة، ومعتقدات ثابتة بصفة عامّة.

الحقّ أنّ المعتقدات والمعارف هما عمليّتان عقليّتان مختلفتان للغاية. بعبارة أوضح، يُمكن القول إنّ المعتقدات ليست عقلانيّة ولا إراديّة، وذلك بخلاف رأي الكثير من الفلاسفة. الواقع أنّ المعتقد هو فعلُ إيمانٍ ذو أصلٍ لا واعٍ يتبنّى عقيدة بأكملها، ويقبل بأحكامها.

حقيقة الأمر أنّ المكانة، والتأكيد، والتكرار، والعدوى الذّهنيّة، والعقل نادرًا، هي العوامل الاعتياديّة أو التقليديّة التي تُشكِّل الآراء والمعتقدات.

تختلف المعرفة كثيرًا عن المعتقد. فالمعرفة عمليّة واعية تُبْنَى ببطء من خلال المراقبة والتّجربة. تبنّت البشريّة لفترات طويلة جملة معتقدات قبل أن تمتلك المعارف.

خلاصة القول إنّ المعتقدات والمعارف التي تنتمي إلى مراحل مختلفة من الحياة العقليّة، لا تؤثّر بعضها في بعض. مع ذلك يعتنق بعض الرجال المشهورين معتقداتٍ طفوليّة. على سبيل المثال، يتبنّى هؤلاء الرجال ذكريات السّحر والشعوذة الأكثر توهّمًا في العصر الوسيط بوصفها يقينيّات غير قابلة للنقاش.

من الوهم إذًا الاعتقاد أنّ أهليّة التعاطي مع بعض المواضيع العلميّة يجب أن تترافق مع أهليّة مماثلة في التعاطي مع المواضيع الدينيّة أو السياسيّة. بهذا المعنى، تملك المعتقدات السياسيّة والدينيّة منطلقات ودوافع يتجاهلها المنطق العقلانيّ، ولا يتأثّر فيها قطّ.

وبعد، سوف نرى، من خلال الأمثلة التي سنأتي على ذكرها، أنّ السّذاجة ما زالت تلعب دورًا رئيسًا في تاريخ الشّعوب، ولذلك سنُخصّص لدراستها فصلًا مُستقلًّا.

مارس تحضير الأرواح، وعمليّات الشّعوذات، وسبت السّاحرات،(10) والشيطان، والتعويذات، والسّحر، إلخ، في العصر الوسيط تأثيرًا كبيرًا. لم يشكّ أحد، في تلك الحقبة، في قوّتها. فقد جاهر آلاف النّاس بعلاقاتهم مع الشّيطان، واعترفوا، على الرغم من خشيتهم من التّعذيب، أنّهم كانوا يذهبون إلى سبت السّاحرات.

الواقع أنّ محاكمات أعمال السّحر كانت كثيرة للغاية في تلك الحقبة، إلى حدّ أنّ المحارق التي أُعِدّت من أجل حرق السّحرة أحياءً لم تنطفِئ على الإطلاق. في هذا السياق، وضع أشهر القضاة مؤلّفاتٍ تهدف إلى تحديد الخطوات الواجبة الاتّباع من أجل إفشال تعاويذ المشعوذين.

انعقدت المحاكمة الأخيرة في فرنسا في عهد لويس الثالث عشر. فقد كان مقتنعًا بأنّه أُرْسِلَ فيلق من الشياطين إلى جسد ممسوسي لودون،(11) والحال أنّ أوربان غراندييه(12) أُعْدِمَ حرقًا بعد أن عانى كلّ صنوف التّعذيب.

تلاشى كلّ هذا الحشد الغفير من الشياطين، والأشباح، وأبناء الظلمات، أمام التقدّم العلميّ. لقد جرى الاعتقاد بأنّ السّحرة نُفُوا إلى القرى البعيدة من كلّ حضارة.

وبعد، غيّرت الأوهام شكلها لكنّها لم تختفِ لا لشيء إلّا لأنّ السّذاجة غير قابلة للتدمير. لذلك رأينا في أيّامنا هذه محاولة إعادة إحياء كلّ السّحر الماضي، وتعظيمه، تحت أشكال بالكاد تختلف عن أشكال الماضي: استحضار الموتى على الطاولات المستديرة، ورفع الجسم في الهواء، وتناسخ الأرواح، إلخ.

لقد وقع علماء مشهورون ضحيّة هذه الأوهام. فقد أكّد الكيميائيّ الكبير وليام كروكس(13) William Crookes أنّه عاش لعدّة أشهر مع شبحٍ راح يتجسّد أمامه يوميًّا. قل كذلك عن الفيزيائيّ المميَّز لودج(14) Lodge الذي نشر كتابًا سرد فيه تفاصيلَ دقيقةً عن تواصله مع ابنه ريموند في العالم الآخر من بعد أن قُتِل في الحرب.(15) الأمر نفسه يُقال عن الفيزيولوجيّ الشّهير ريشيه(16) Richet الذي أكّد أنّه رأى وتفحّص طويلًا محاربًا يعتمر خوذة يخرج من جسد وسيط روحانيّ.

لا يُمكن مناقشة معتقدات كهذه تنتمي إلى المجال اللا عقلانيّ. فملايين النّاس اقتنعوا وما زالوا مقتنعين بأنّ الله أرسل جبريل إلى محمّد كي يُلقّنه أسس ديانة جديدة لا يُمكن أن تتّفق مع أيّ منطق عقلانيّ. فإيمان المؤمن، سواء كان عالمًا أو جاهلًا، يبقى راسخًا. الحقّ أن لا قيمة للعقل في حضرة الإيمان الصوفيّ. لقد أمكن لي أن أُلاحظ، من خلال تجارِبَ مختلفة، بأيّ سهولة خُدِعَ العلماء مُذ وَلَجوا دائرة ما هو صوفيّ.

الواقع أنّ السّذاجة لا متناهية حتّى في المسائل المتعلّقة بالعلم المحض. وعليه، يكفي أن يقوم الرّجال الذين يتمتّعون بمكانة اجتماعيّة كبيرة بعرض آرائهم حتّى تُتَبَنَّى. فالرسائل

المنسوبة إلى الأشخاص المشهورين، التي زوَّرها مزوِّر بالكاد يلمّ بالقراءة، وأُدرِجَت في تقارير أكاديميّة العلوم، خير شاهد على ما نقول. يكفي أن نستشهد باستقطاب أشعّة اليورانيوم التي أكّدها بيكيريل (17) Becquerel، والوجود المـُتَخيَّل للأشعّة «N». المشهورة للتدليل على صحّة ما نقول.

الواقع أنّ تاريخ التواقيع الخاطئة معروفٌ للغاية، لذلك يبدو التطرّق إليه هنا مفيدًا. فنحن نعلم مغامرة دوديه (18) Daudet المذهلة التي زوّدته بعناصر روايته الشّهيرة: الخالد.

حقيقة الأمر أنّ تاريخ الاستقطاب المفترض لأشعّة اليورانيوم هو أيضًا علامة فارقة. فعندما اكتشف بيكيريل في العام 1893، من بعد بول دو سان فيكتور - Paul de Saint Victor، الانبعاثات التلقائيّة لليورانيوم، اعتقد أنّه في حضرةِ ضربٍ من الوميض الفوسفوريّ، ولهذه الغاية أجرى تجارب «تُثبت على نحوٍ قاطع، برأيه، أنّ الأشعّة المنبعثة تتكسّر، وتنعكس، وتستقطب شأنها في ذلك شأن أشعّة الضوء».

هذا الرأي، الذي عارَضْتُه وحدي بواسطة التجارب التي تحدّثتُ عنها في كتابي **تطوّر المادّة**، قُبِلَ في غضون ثلاث سنوات من قِبَل كلّ علماء أوروبا، وأخّر بشكل ملحوظ اكتشاف الظواهر الإشعاعيّة. لقد اعترِفَ أخيرًا بأنّنا في حضرة قوّة مجهولة حتّى الآن ـ الأمر الذي لم أكفّ عن ترداده ـ قوّة لا يربطها شيء بالضوء، ومع ذلك أمكن لي أن أُطلق عليها لاحقًا اسم الطاقة الكامنة في الذّرّة.

إلى ذلك، ما زالت حالة الشعاع «N.»، التي خال كلّ الفيزيائيّين الفرنسيّين أنفسهم رأوها على امتداد عامين اثنين، تُدرَّس، مع العلم أنّهم لم يروها على الإطلاق من بعد أن تبدّد الاقتراح القائل بها.

لن أدخل إلى كلّ تفاصيل تاريخهم، بل سأكتفي بأن أُشير إلى أنّ اكتشاف الشعاع «N.» تمّ على يد أُستاذ تشهد ألقابه الأكاديميّة بأنّه ذو مكانة كبيرة. وبعد، امتلك هذا الأستاذ، المعروف بطبعه العصبيّ، قوّة إيحاء (19) كبيرة لوحِظت مرّاتٍ كثيرة، في أوروبا وفي

الهند على وجه الخصوص، إذ جرى الإقرار بكلّ مزاعم هذا المُوحِي بوصفها حقائق. إلى ذلك، انتدبت أكاديميّة العلوم الفيزيائيّ ماسكارت Mascart (20) كي يذهب إلى مختبر هذا المخترِع ومراقبة صحّة ادّعاءاته، لكنّه وقع ضحيّة هذه الهلوسة الغريبة: قياس انحراف موجة الشّعاع وطولها اللتين لا تُوجدان إلّا في عقل هذا الموحي.

وعليه، منحت الأكاديميّة صاحب هذا الاكتشاف جائزة قَدْرها 50.000 فرنك، ولمدّة عامين امتلأت تقارير أكاديميّة العلوم بملاحظات تصف في كلّ يوم الخصائص المذهلة لهذه الأشعّة. في هذا السياق نظّم السيّد أرسونفال M. D'Arsonval مؤتمراتٍ بشأنها. أمّا صديقي المميّز إميل بيكارد Emile Picard فقد جافاه النّوم.

عِلاوة على ذلك، لم يُلحظ وجود هذه الأشعّة إلّا من خلال الاختلافات الضئيلة في السطوع الناجمة عن إسقاطها على صفيحة فوسفوريّة. وذلكم ما يُفسِّر قليلًا قابليّة الإيحاء (21) لدى العلماء الذين اعتقدوا أنّهم رأوها.

بيد أنّ الوهم الجمعيّ تبدّد فجأة من خلال التّجربة الشّهيرة التي قام بها فيزيائيّ غريب، الوهم الذي أظهر من خلاله مبتكر الأشعّة «N.» الانحراف المفترَض لتلك الأشعّة عن طريق منشور. (22) بيد أنّ المنشور أُزيلَ خفية في الظّلام، ومع ذلك استمرّ مبتكر الأشعّة في قياس الانحراف المزعوم للأشعّة المتخيَّلة.

التّجربة كانت قاطعة. بعبارة أخرى، كانت التّجربة حاسمة، إذ لم يتوصّل أيّ من الفيزيائيّين، الذين شاهدوا أكثر من مرّة الأشعّة «N.» إلى رؤيتها من جديد. لقد توقّف فجأةً إرسال الملاحظات حول هذه الأشعّة إلى أكاديميّة العلوم.

الواقع أنّه من السّهل الاستشهاد بأمثلة شبيهة كثيرة تُظهر دور السذاجة، لا سيّما في العلوم شبه الدّقيقة مثل الطبّ.

وبعد، أعتقد أنّه بإمكاني تلخيص القوانين العامّة التي تحكم ولادة المعتقدات وانتشارها من خلال العبارات الآتية:

1 ـ إنّ المجالات الصوفيّة والانفعاليّة والعقلانيّة هي مجالات مستقلّة تمامًا، ولا تؤثّر بعضها في بعض.

2 ـ يُمكن العلماءُ المشهورون أن يفقدوا كلّ روحٍ نقديّة، وذلك مذ يَلِجون مجال المعتقد.

3 ـ لا تحول عبثيّة العقائد ـ العقائد الدينيّة والسياسيّة ـ دون انتشارها.

4 ـ تترسّخ المعتقدات الصوفيّة وتنتشر بفعل تأثير المكانة، والإيحاء، والعدوى. الحقّ أنّ الاستدلال لا يلعب أيّ دور في انتشارها.

5 ـ غالبًا ما يُتَحَوَّل نحو معتقد صوفيّ بشكلٍ فوريّ، كما حصل مع شخصيّة بولين Pauline في مسرحيّة بوليكت Paulyeucte (23) التي تبنّت فجأة ديانة لا تعرف عنها شيئًا، وكتبَت: «أرى، وأعرف، وأعتقد، عندئذ أتحرّر من الأوهام!».

6 ـ يملك بعض الأشخاص قوّة تأثير هائلة تجعل كلّ إيعازاتهم تبدو كما لو كانت حقائق راسخة.

7 ـ تكمن ميزة أيّ معتقد صوفيّ في أنّ تأثيره لا يُلحظ عن طريق المراقبة، ولا التّجرِبة، ولا الاستدلال.

8 ـ لا يُزعزع الإيمان الذي يخلقه الإيعاز أو الإيحاء إلّا إيعاز أو إيحاء أقوى منه. فالمؤمن لا يتخلّى عن معتقده إلّا لكي يتبنّى معتقدًا آخر مماثلًا.

9 ـ تنتشر بعض المعتقدات السياسيّة، مثل الاشتراكيّة والشيوعيّة، لأنّها تمتلك على وجه الخصوص كلّ خصائص المعتقدات الدينيّة، لذا سرعان ما تخلق الإيمان الخاصّ بها.

10 ـ يختبر المؤمن دائمًا رغبةً ملحّة تكمن في نشر إيمانه، والتضحية طوعًا بحياته وبحياة الآخرين من أجل نصرته.

11 ـ لا تُثْبِتُ رؤيةُ ظاهرةٍ ذات نسقٍ صوفيّ من قِبَلِ عدد كبير من الشّهود شيئًا بخصوص حقيقتها. فشهادات آلاف الناس الذين رأوا الشّيطان وحضروا سبت السّاحرات لم تُشكّل دليلًا على وجود الشيطان وعلى وجود الساحرات.

12 ـ ما يجعل المعتقدات تختلف عن الآراء البسيطة هو أصلها الصوفيّ. الواقع أنّ الآراء البسيطة تكوّنت من خلال التأييد المؤقت لقضيّة بعينها. ولذلك تنجح التّجربة في تغيير الآراء، لكنّها لا تُمارس أيّ تأثير في المعتقد.

13 ـ يُمكن الآراء والمعتقدات أن تزول في بعض الأحيان، لكنّ الروح الصوفيّة تبقى غير قابلة للتدمير.

# الفصل الثّالث: الصّراعات بين الأحياء والموتى

من بين العناصر المختلفة التي تُوَجِّه حياة الشّعوب، ينبغي لنا أن نذكر أيضًا، إلى جانب الحاجات الماديّة والتأثيرات الصوفيّة، إرادة الموتى الآمرة.

لقد بدأت السيكولوجيا، التي لم تتفحّص قديمًا إلّا روح الأحياء، في دراسة روح الأموات حيث يُهيمن الجيش اللا مرئيّ على العالَم ويحكم التّاريخ.

في الحقيقة، لا يستريح الموتى في القبور، بل يستمرّون في العيش في ذواتنا، فهم السّادة الحقيقيّون لغالبيّة أفعالنا. بعبارة أوضح، عندما نخال أنفسنا نتصرّف بحريّة، نخضع، في الغالب، لإراداتهم.

يُمثّل جيش الموت هذا ما نُطلق عليه، وبحقّ، روح العرق، وهي روح قويّة للغاية، ذلك بأنّ الجماعة التي يخلقها الموتى هي أكثر تجانسًا.

الحقّ أنّ تكوينها لم يتمّ بين ليلةٍ وضحاها. بشكلٍ عام، يتطلّبُ ترسيخُ روحِ عرقٍ بواسطة الموتى، أي عرق يملك إرادات مشتركة ويتصرّف، من ثمّ، بطريقة مماثلة في الظروف الهامّة، قرونًا طويلة.

كيف تتشكّل روح عرق؟

تُمثِّل كتلة من الرّجال تجمّعوا صدفة في الغزوات والفتوحات غبرةً بسيطة من الأفراد، غبرة تتجمّع مؤقّتًا عن طريق إرادة القائد. بيد أنّها سرعان ما تتبدّد عندما يختفي القائد أو تضعف قوّته.

لكي يغدوَ جمهورٌ ما شعبًا، ينبغي له أن يخضع، كما حصل في بروسيا، لنظام عسكريّ صارِم، أو أن يكتسب على امتداد قرون، كما حصل في إنجلترا، شبكة من التراثات والعادات والمعتقدات المتماثلة.

عندما تتثّبت الخصائص السيكولوجيّة لعرق ما، تنتقل بفعل الوراثة مع كثير من الانتظام شأنها في ذلك شأن الخصائص التّشريحيّة. يملك مجموع الأفراد أيضًا، على الرّغم من عدم اتّساقهم بدايةً، روحًا سلفيّة تُعطيه التّوجيه السلوكيّ نفسه.

تُضاف إلى تلك الروح السّلفيّة اللا واعية التي تُكوّن البنية العقليّة للعرق، الروح الفرديّة الواعية التي تتعدّل باستمرار بفعل البيئة، والحوادث، والتّربية، إلخ.

غالبًا ما تُمثِّل الرّوحُ الفرديّةُ حَرَكِيَّةَ أمواجِ البحر، بيد أنّ تغيّرَها لدى الأعراق المستقرّة محدود بفعل تأثير الروح السّلفيّة.

للموتى سيكولوجيا خاصّة بهم أيضًا. إنّها تختلف عن سيكولوجيا الأحياء من خلال جملة خصائص، وتحديدًا من خلال ثباتها.

الموتى محافظون دائمًا، لذا يملكون إراداتٍ آمرة لا تلين البتّة.

يتجلّى تأثيرهم بخاصّة عندما تُعَرّض مصالح العرق، أي حياة الموتى، للخطر شأنها في ذلك شان مصالح الأحياء. الحقّ أنّ الأموات هم الذين أرغموا في العام 1914 شعبًا كاملًا متفاجئًا من تعبئة غير متوقعة على التنازل فورًا عن مصالحه اليوميّة من أجل السَّير إلى الحدود.

وبعد، لم يتراجع أيّ من الاشتراكيّين الذين أقسموا على الإضراب في حالة الحرب. لماذا؟ هل شكَّلَ خضوعهم التلقائيّ ثمرة التفكير العقلانيّ؟ على الإطلاق. الحقّ أنّ خضوعهم هذا يجد مصدره الوحيد في إرادة الموتى التي لا تُقاوم.

الواقع أنّ أحقادَ الموتى مروِّعةٌ للغاية. فهم لا يحتملون الأحياء الذين لا يشعرون مثلهم. حقيقة الأمر أنّ جيش الموتى هو الذي أجبر إنجلترا على إعطاء الحريّة لإيرلندا، وهو الذي أرغم شعوب النّمسا على الانقسام إلى دول مختلفة. إلى ذلك، كان دور الموتى في أصول الحرب الأخيرة ملحوظًا للغاية.

بعبارة أوضح، تُعتبَر قدرة الموتى قويّة للغاية إلى حدّ أنّها لا تُدمَّر إلّا عن طريق قدرة موتى آخرين. ذلكم بالتّحديد ما يحصل عندما نُهجّن أفرادًا من أعراق مختلفة. فالموتى الذين ينتمون إلى أصول مختلفة لا يتوافقون بعضهم مع بعض، لذا تراهم يطبعون الروح الواعية بدوافعَ متناقضة. لذلك سرعان ما يؤدّي التّهجين على نطاق واسع إلى تفكيك الروح السلفيّة. في هذا السياق، يُمكن تشبيهُ شعبٍ هجينٍ هائمٍ بين التأثيرات المتناقضة بسفينة من دون دفّة تُبحِر في مهبّ الرّيح.

وبعد، خسر الإسبان كلّ مستعمراتهم لأنّهم جهلوا هذه المبادئ، في حين أنّ الإنجليز حافظوا عليها لأنّهم لم يختلطوا بالسكّان الأصليّين.

تقود الملاحظات السّابقة، التي تُحُقّق منها عن طريق التّجارِب القَرْنيّة،(24) إلى قانون أساسيّ عن السياسة الحديثة مفاده أنّ الكثير من رجال الدّولة يبدون جاهلين، قانون يُمكن أن نصوغه على النّحو الآتي:

تلعب المؤسّسات السياسيّة لشعبٍ ما دورًا ضعيفًا في حياة هذا الشّعب. الواقع أنّ روحه السّلفيّة التي تُوجِّه قَدَره هي التي ينبغي أن تُفرَض عليه، وليس المؤسّسات من أيّ نوعٍ كانت.

يبدو من غير ذي طائل التطرّق إلى الحقائق التاريخيّة من أجل تبرير هذا الزّعم. يكفي أن ننظر إلى الدول المجاورة التي تخضع لمؤسّسات مماثلة، لكنّها تتشكّل من أعراق مختلفة. تلكم هي تحديدًا حالة أمريكا.

لقد شكّلت أميركا قارتين كبيرتين شبه منفصلتين: الولايات المتّحدة لأمريكا الشّماليّة، التي يقطنها الإنجلوساكسونيّون، ودول أمريكا الجنوبيّة التي يسكنها الإسبان الذين يُخالطهم بعض السكّان الأصليّين.

على الرّغم من أنّ كلّ الجمهوريّات اللاتينيّة في أمريكا الجنوبيّة تبنّت المؤسّسات السياسيّة للولايات المتّحدة: فصل السّلطات، وزراء، حريّة الإعلام، أي كلّ واجهة المؤسّسات الديمقراطيّة، فإنّها لم تتمكّن من التوصّل إلى أيٍّ استقرار. لقد ظلّت الدِّكْتاتوريات المطلقة، حتّى اللحظة الراهنة، نظامها الحقيقيّ الوحيد.

نستخلص بسهولة من كلّ ما تقدّم أنّه يوجد اختلاف كبير بين الشّعوب التي ترسّخت روحها بفعلِ ماضٍ طويل، والشّعوب التي لم تترسّخ روحها بعد. يُمكن للشّعوب الأولى، كما الثّانية، أن تعاني وطأة الثّورات العنيفة، لكنّ الماضي، أي أفعال الموتى، يستعيد سريعًا

إمبراطوريّته. تلكم بالضّبط كانت حالة إنجلترا عندما أوصلَت عشوائيّة الانتخابات الاشتراكيّين إلى السّلطة. حقيقة الأمر أنّ حكومتهم تختلف قليلًا عن حكومة المحافظين.

إنّ استقرارَ روحِ عرقٍ بمعيّة الحراسة التي يؤمّنها له موتاه من شأنه أن يمنحه قوّة كبيرة، لكنّ هذا الاستقرار يُمكن أن يغدو سببًا للتوقّف والانحطاط إذا مارس الموتى تأثيرًا مفرطًا. وبعد، إذا كانت البلاد التي لا ماضي لها، ومن ثمّ التي لا تعرف روحًا مستقرّة، ترزح تحت رحمة الصُّدَف، من دون غدٍ موثوق، فإنّ الأمم المستقرّة للغاية، أي تلك التي يُعتبر عنصر المحافظة لديها فعّالًا للغاية، تُعاني الكثير من الصّعوبات من أجل تحقيق التقدّم. الحقّ أنّها لن تتوصّل، إذا استمرّت في التّراجع، إلى التأقلم مع الضرورات الجديدة إلّا إذا كابدت خسائرَ حصيلتها الثّورات العنيفة.

يدخل الموتى أحيانًا، من جرّاء إفراطهم في المحافظة، في صراع مع الأحياء، فهم محكومون بالتغيّر النّاجم عن الاختلافات في البيئات. والحال أنّ الشّعوب تترجح بين مجموعات سياسيّة متطرّفة، تبعًا للانتصار المؤقت للأحياء أو الأموات.

لوحظت هذه النّزاعات بين الأحياء والموتى في فرنسا كما في إنجلترا، لكنّها كانت أكثر تواترًا في فرنسا، إذ إنّ الوَحدة لم تكتمل بعد. فمنذ مئة وخمسين عامًا، لم تنفصل ثوراتنا بعضها عن بعض إلّا من خلال عدد قليل من السّنوات. لقد أتى بعد الثّورة الكبرى التي ادّعت تكريس المساواة والحريّة، ديكتاتور عسكريّ ألغى الحريّات، وأعاد تكريس التبيانات القديمة عن طريق النَّبَالَة التي أَسَّسها. وسرعان ما حلَّ محلّه حكّامٌ طالبوا باستعادة النّظام الملكيّ، ومن ثمّ حلّ محلّهم ملك دستوريّ أطاحَ به الثّوريّون الاشتراكيّون. انتهى الأمر بهؤلاء الثّوريّين بأن روَّعوا الأمّة ترويعًا عظيمًا إلى حدّ أنّ السّواد الأعظم من الشّعب هلَّل لدكتاتور قادت أخطاؤه السيكولوجيّة إلى تدمير فرنسا بعد فترة ازدهار عابرة.

استمرّت الجمهوريّة التي حلّت محلّه أكثر من خمسين عامًا. لكن إذا نجحت في تجنّب الثّورات المتعلّقة بالسّلالات الحاكمة، فإنّها لم تنجح على الإطلاق في تفادي تغيير النّظام. فمن بين اثني عشر رئيسًا للجمهوريّة، أُجبر ستّة رؤساء على مغادرة السّلطة، وتَرَجَّحت

أشكال الحكومات بين المحافظة المفرطة، في ظلّ رئاسة مارشال شهير، وراديكاليّة ليست أقلّ تطرّفًا في خلال فترة الاضطهادات الدينيّة.

لقد وضعت الحرب الكبرى مؤقتًّا حدًّا لهذه الانقسامات. لكن سرعان ما استُعِيدَت لتقع فرنسا من جديد ضحيّة هذه الترَجُّحات بين الفوضى والرجعيّة.

تُلفى فرنسا حاليًّا في حقبة تُسيطر عليها التأثيرات المتطرِّفة: تهديدات تُطاول الصناعة ورأس المال، وصراع الطبقات، والاضطهادات الدينيّة في الألزاس، إلخ. تنجم كلّ هذه الانقسامات عن الصّراعات بين الأحياء والموتى.

# الفصل الرّابع: التّبعات السياسيّة لأخطاء السيكولوجيا

تبحث العقلانيّة الكَنْطِيّة ـ التي هي أساس الفلسفة الأكاديميّة ـ دائمًا عن تفسير الحوادث من خلال المنطق العقلانيّ، مع العلم أنّ هذا المنطق كان على الدّوام غريبًا عنها.

يستند العالِمُ في مختبره إلى التجربة والملاحظة بوصفهما أساسًا لاستدلالاته. أمّا الجماهير التي نادرًا ما تُعمِل عقلها فلا تملك سوى آراء مقترحة.

بعيدًا من المواضيع العلميّة المحض، لا يملك الأناس الأكثر ثقافةً آراء راسخة أكثر من الجماهير. ولذلك ينطوي سلوكهم السياسيّ في بعض الأحيان على كثير من الأخطاء.

إذا شئنا أن نحصر إطار بحثنا في بعض الوقائع التي تعود إلى خمسين سنة مضت فحسب، فبوسعنا القول إنّ تاريخنا تكوّن، في جُلِّه، من جرّاء أخطاء السيكولوجيا.

حقيقة الأمر أنّ أخطاءً من هذا القبيل هي التي قادت نابليون إلى القيام بحملات لغزو إسبانيا وروسيا، وهي التي أدّت، في نهاية المطاف، إلى سقوطه. ثمّة خطأ سيكولوجيّ آخر

دفع بالملك شارل العاشر إلى إعلان القرارات التي أطاحت به.

ثمّة خطأ سيكولوجيّ آخر أكثر أهميّة أيضًا قاد نابليون الثالث إلى دعم المشروع البروسيّ ضدّ النّمسا،(25) مع العلم أنّه كان بمقدوره بكلمة واحدة فقط أن يَحُول دون نشوب تلك الحرب. الحقّ أنّ الخطأ الناجم عن سادوا(26) Sadowa سيُفضي سريعًا إلى سيدان(27) Sedan، وسيتسبّب في سقوط الإمبراطوريّة.

لم يكن هذا الخطأ المـُحَمَّل بتبعاتٍ كثيرة خطأً إمبراطوريًّا فحسب، بل كان كذلك خطأ جمعيًّا، ذلك بأنّ غالبيّة الفرنسيّين، والصّحافيّين الذين يُمارسون تأثيرًا فاعلًا، والجامعيّين، رحّبوا بحماسةٍ بانتصار بروسيا.

الواقع أنّ هزيمة ألمانيا في العام 1918 هي تبعة من تبعات خطأ سيكولوجيّ جسيم ارتكبه الإمبراطور غِيُّوم. لقد خال نفسه مُحِقًّا للغاية عندما افترض أنّ شعبًا من التّجار لا يملك جيشًا ـ لا سيّما أنّه اغتنى من خلال تجارته مع المتحاربين ـ لن تخطر في باله على الإطلاق فكرة الدّخول في حرب، فهو لا يكترث لها البتّة. من هنا خال نفسه قادرًا على تفجير السّفن، وتخطّي الحدود الثابتة، والإفلات من العقاب.

عقلانيًّا، هذه الحجّة صحيحة للغاية، لكنّها خاطئة جدًّا من وجهة نظر المنطق الجمعيّ. أظهر القيصر دراية واسعة بقوانين هذا المنطق الخاصّ، عندما فهم أنّ احترام الذّات المجروح لأيّ شعبٍ من الشّعوب يُنسيه مصالحه. في الحقيقة، ينبغي لهذا الشّعب أن يُهزَم كي يعيَ أنّ قوانين المنطق العقلانيّ وقوانين المنطق الجمعيّ لا يجمعها أيّ معيار مُشترَك.

بعبارة أخرى، غالبًا ما تؤدّي المطالبة بتطبيق المنطق العقلانيّ في تفسير سلوك الشّعوب إلى أخطاء فادحة. لقد شاهدنا هذا الأمر، مرّة أخرى، قبل حرب العام 1914، عندما أكّد الاشتراكيّون المدعومون من الكثير من الأساتذة المشهورين أنّ الحرب مع ألمانيا تبدو، عقلانيًّا، مستحيلة، لذا ينبغي وضع حدّ للتسلّح.

تُعلِّم السيكولوجيا فنّ التلاعب بالجماهير، وتحويل مشاعرهم وفق ما تقتضيه الحاجة. في هذا السّياق، يُعطينا شكسبير مثالًا صارخًا في الخطاب الذي نسبه إلى أنطونيوس الذي خطب في الجمهور أمام جثّة يوليوس قيصر. بدوره يُزوّدنا بسمارك بمثال أكثر واقعيّة، مُستفيدًا من سرعة انفعال الشّعب الفرنسيّ. الحقّ أنّه زيَّف بعض كلمات برقيّة مُسالِمة بهدف إحداث موجة غضب وطنيّ عارم كيما يُطلق العنان للحرب التي لم يُرِدْها ملك بروسيا، ولا إمبراطور الفرنسيّين.

يتكوّن فنّ الحكم، في جزء كبير منه، من معرفة ردّات الفعل الجمعيّة تحت تأثير عناصر الإثارة الخارجيّة.

تخضع ردود الفعل هذه لقوانين عامّة يُمكن معرفتها بسهولة، إذا كانت متماثلة لدى شعوبٍ مختلفة. لكنّها تختلف تبعًا للأعراق: الأعراق الإنجليزيّة، والفرنسيّة، والإسبانيّة، إلخ، وتُمارس تأثيراتٍ مختلفة تبعًا لعناصر الإثارة المتماثلة. بهذا المعنى، لم يحصل بسمارك في إنجلترا، مع برقيّته المزيَّفة، على النتائج نفسها التي حصل عليها في فرنسا.

وبعد، لا تتأتّى صعوبة حكم النّاس من كون قوانين السيكولوجيا الفرديّة تربطها علاقات بعيدة بالسيكولوجيا الجمعيّة فحسب، بل ترتبط كذلك بمسائل أخرى. تنامت هذه الصّعوبة بفعل ظاهرة تحوّلات الشخصيّة، التي ظهرت في مرحلة ما من حياة الشّعوب، وتحديدًا في خلال الفترات الثوريّة الكبرى.

بخلاف الآراء التي تُتَبَنَّى بشكل عام، يُمكن القول إنّ شخصيّة كلّ كائن لا تعدو كونها تأليفًا، أو بعبارة أخرى حصيلة جمعٍ بسيط بين عدد من الشخصيّات المتعدِّدة والمـُرَكَّبة. تظهر هذه الشّخصيّات المتعدّدة عندما تتغيّر ظروف الحياة.

ينجم استقرار فرديّتنا الظّاهر ببساطة من المحيط الذي نعيش فيه. الواقع أنّ الإنسان الذي تؤطِّرُه الفئة الاجتماعيّة المنتمي إليها، وانشغالاته اليوميّة، لا يتغيّر البتّة. لكن، على العكس،

إذا تغيّرت الظّروف المحيطة به فإنّه يتغيّر. فالإنسان اللطيف يُمكن أن يُصبِح عنيفًا، والمُسالِم مُقاتِلًا، والفاضل سيرى فضائله تتفكّك.

طَبَّقتُ، قديمًا، هذا المفهوم على تفسير سلوك الجمعيّات الكبرى(28) للثّورة الفرنسيّة. الحقّ أنّه وحده الذي سمح لي بتفسير كيف أنّ البرجوازيّين المسالمين: كتّاب عدل، وقضاة، وأطبّاء، إلخ، غَدوا كائنات دمويّة، إذ لم يتوانوا عن قطع رؤوس آلاف النّاس، وانتشال ما تبقّى من أجساد الملوك من القبور، وتحطيم آثار ثمينة، إلخ. بعد انتهاء الاضطرابات، لم يتمكّن هؤلاء الرّجال أنفسم، الذين غدوا خَدَمَ نابليون الطّيّعينَ، من تفسير سلوكهم السّابق. في الواقع، لم يكن بإمكانهم فهم سلوكهم على هَدْيِ السيكولوجيا البدائيّة المعروفة في تلك الحقبة.

إذا كانت الشّخصيّات المـُشَكَّلة حديثًا قد تلاشت مع زوال الحوادث التي أدّت إلى انبثاقها، فإنّه من شأن استمرار الحوادث نفسها أن يُحافظ على تلك الشّخصيّات الجديدة لزمن طويل.

يبدو أنّ الأوهام الدينيّة والسياسيّة تملك امتيازًا مفاده خلق شخصيّات مصطنعة مستمرّة والحفاظ عليها.

يكشف إضراب عمّال المناجم الذي امتدّ طويلًا وقوّض أسس الإمبراطوريّة البريطانيّة عن التحوّلات الممكنة التي يُمكن أن تخضع لها الذّهنيّات الأكثر ثباتًا، على الرّغم من قدرة التأثيرات السلفيّة. ثمّة تحوّلات أعمق حدثت قديمًا في النّفس البريطانيّة تحت التأثير الدينيّ للإصلاح.

يُزوّدنا تاريخ الثّورة الروسيّة بأمثلة أخرى على هذه التحوّلات، أمثلة أقلّ إقناعًا، لأنّ الرّوح السّلافيّة(29) ظلّت غير متبلورة، فلم تقبل الخضوع لاستقرار دائم.

إذا كانت التغيّرات الكبرى في الشخصّيات، التي لُوحظت خلال الثّورات، هي بعامّة تغيّرات لا تعرف حدودًا زمنيّة، فذلك لأنّ روح العِرق تعمل سريعًا على إعادة الشخصيّات التي تشكّلت مؤقّتًا إلى الحالة الطبيعيّة.

لكن في حالة البَلِيّة التي تمتدّ طويلًا، كما حصل في الحرب الأخيرة، فإنّ روح العرق تُصاب، لذلك تستغرق إعادة تكوينها أحيانًا جيلًا كاملًا.

نحن الآن تمامًا في واحدة من حقبات تحوّل الشخصيّات المطوَّل. فالشّباب المـُصمِّم في عصر الصّراعات، كما الشّباب الذي تأثّر بهذه الصّراعات، يختلف تمامًا عن الأجيال السّابقة.

الحقّ أنّ مثال الشّباب الحاليّ ليس جديدًا بالتّمام، إذ إنّه شبيه بالمثال الذي مارسه الشّباب الرومانيّ في زمن هوراس،(30) والذي يختصره الشّعار الآتي: انتهِزِ الفرصة. إنّه شباب بائس وطموح. حقيقة الأمر أنّه لا يهتمّ كثيرًا بقيمة النظريّات السياسيّة، بل يرجعه إلى القادة القادرين على خدمة تطلّعاته.

على الرّغم من كلّ التقدّم الذي تحقّق، ما زالت السيكولوجيا في حقبة بدائيّة تُشبه الحقبة التي نشأت فيها الخيمياء(31) قبل أن تتحوّل إلى كيمياء. في اليوم الذي تغدو فيه علمًا، سيتمكّن رجال الدّولة من تفادي الأخطاء السياسيّة الفادحة التي نُسِج منها التاريخ.

(2) ماكسيمليان فرانسوا ماري إيزدور دي روبسبيير (بالفرنسية: Maximilien François Marie Isidore de Robespierre) (1758 ـ 1794) «هو محام فرنسي ورجل دولة كان أحد أشهر وأكثر الشخصيات تأثيرًا في الثورة الفرنسية. بصفته عضوًا في الجمعية الوطنية ونادي اليعاقبة، قاد حملةً من أجل حق الذكور في الاقتراع العام، ومن أجل إلغاء كل من تبتّل رجال الدين والعبودية. كان روبسبيير مناصرًا صريحًا للمواطنين الذين لم يكن لهم صوت، ولقبولهم غير المقيد في الحرس الوطني والمناصب العامة، وحقهم في حمل السلاح دفاعًا عن النفس. لعب دورًا بارزًا في إثارة الرأي العام الذي تسبب بسقوط المَلَكية الفرنسية في العام 1792 وعقد المؤتمر الوطني الفرنسي. بصفته واحدًا من الأعضاء القادة

لتمرد كومونة باريس، انتُخب روبسبيير مندوبًا في المؤتمر الفرنسي في مطلع أيلول عام 1792، إلا أنه سرعان ما انتُقد لمحاولته تأسيس حكم ثلاثي أو دكتاتورية. في ربيع عام 1793، بعد خيانة دوموريز، حث على تأسيس جيش سان كيلوت لسحق أي متآمر ضد الثورة. عُين عضوًا في لجنة السلامة العامة القوية. ذاع صيت روبسبيير لدوره خلال عهد الإرهاب، الذي أشرف خلاله على اعتقال وإعدام عدد كبير من الخصوم السياسيين الذين عدهم هو وحلفاؤه معارضين للثورة. مارس نفوذه من أجل قمع الجيروندیين من اليمين، والهيبرتيين من اليسار، والدانتونيين من الوسط. تشير التقديرات إلى أن ما يقارب 17,000 شخص حُكم عليهم بالإعدام بالمقصلة خلال عهد الإرهاب بعد تقديم قانون المشتبه بهم. يبقى مدى منْح المتهَمين درجة ملائمة من الإجراءات العادلة قبل إعدامهم مسألةً مثيرة للجدل.

في النهاية، كان هوس روبسبيير بتصوّر جمهورية مثاليّة، ولامبالاته إزاء التكلفة البشرية لإقامتها سببَ تشويه سمعته، ما جعل كلًّا من أعضاء المؤتمر وعموم الفرنسيين ينقلبون ضده. انتهى عهد الإرهاب حينما اعتُقل مع العديد من حلفائه في انقلاب الترميدوريين في 9 نوفمبر وأُعدم في اليوم التالي، وهي حوادث استهلت فترةً تُعرف بالانقلاب الترميدوري. تبقى مسؤولية روبسبيير الشخصية عن تجاوزات عهد الإرهاب موضع جدال حاد بين مؤرخي الثورة الفرنسية. كان روبسبيير بالنسبة إلى بعض المؤرّخين رمزَ عهد الإرهاب خلال العام الثاني (من التقويم الثوري الفرنسي)، غير أنه كان بالنسبة إلى بعضهم الآخر المنظّرَ الأبرز للثورة وجسّد التجربة الديمقراطية الأولى للبلاد، التي مثلها الدستور الفرنسي لعام 1793 (والذي عُطل فورًا)». انظر: ويكيبيديا.

(3) البابية أو الدين البابي أو الدعوة البابية هي دعوة نادى بها ودعا إليها السيد علي محمد الشيرازي الملقب بـ«الباب»، أي باب معرفة الله. فقد كان يرمي الباب من ذلك اللقب إلى كونه فاتحة وبشيراً لظهور أعظم من ظهوره، إلا أن عامة الناس فهموه حسب المعتقدات الشيعية على أنه الواسطة بين القائم الموعود والناس. وفي الواقع لم يحتمل بعض أتباعه لمّا سمعوا أنه هو القائم نفسه، فتخلّوا عن إيمانهم أو تزلزلوا. والدعوة البابية ظهرت في

إيران في القرن الثالث عشر الهجري أو التاسع عشر الميلادي كديانة جديدة مستقلة عن الديانات السابقة لها، لكنها حلقة في سلسلة تتابع تلك الديانات، وهي باعتقادهم أيضًا خاضعة لمفهوم التطور بتعاقب رسالات الله للبشرية، ولذا لا تكون البابية آخر مراحل تجلي نزول الوحي الإلهي للإنسانية، أو آخر ما تستحقه الإنسانية من الرسالات السماوية. فكانت هذه الدعوة تقول إن الباب قد جاء ليمهد الطريق لمن سماه «من يظهره الله» أي بظهور بهاء الله الذي ذكر أن بمجيئه ستتحقق نبوؤات الأديان السابقة. انظر ويكيبيديا.

(4) إميل أوليفييه: (1825 ـ 1913): رجل دولة فرنسيّ. كان من أشدّ المعارضين للإمبراطور نابليون الثالث، تولّى منصب رئيس الوزراء عندما سقط نابليون.

(5) الحقّ أنّ كلمة صوفيّ دخلت اليوم حيّز الاستخدام في كل الخطابات الرسميّة. لقد استخدمها رئيس مجلس النوّاب مرّتين في أحد خطاباته. في السياق نفسه، ألقى السيّد M. Painlevé خطابًا أمام اتّحاد السّين Seine التابع للحزب الجمهوريّ الاشتراكيّ، تطرّق فيه مرارًا إلى تأثير الصوفيّة: «عندما يضع حزب ما برنامجًا، ينبغي له أن يُضمِّنه الكثير من العناصر الصوفيّة».

(6) المدرسة العاديّة العليا École Normale Supérieure: من أهمّ المدارس في فرنسا. أُنشِئت في الأصل لتوفير تدريب متجانس لمعلّمي المدارس الثانويّة في فرنسا.

(7) رينيه غيلوين (1881 ـ 1971): مُفكّر يميني، وكاتب، وناقد، وصحفيّ، وسياسيّ فرنسيّ.

(8) انظر سفر أعمال الرّسل، الإصحاح التاسع: «وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغتة برق حوله نور من السماء».

(9) لوكريتوس Lucrèce (حوالي 99 ـ 55 ق.م)، فيلسوف وشاعر روماني. نظم قصيدة مطوّلة دعاها «في طبيعة الأشياء» De rerum natura، وقد وصف فيها خصائص المادة

وطبيعة الذرّات التي يتألف منها الكون، وتحدّث عن أصل الإنسان والأحوال الجوية والزلازل والأمراض وغيرها. انظر: ويكيبيديا.

(10) سبت الساحرات يعبر عن أحد المعتقدات التي كانت تعتقدها دول أوروبا خلال القرون الوسطى في القرن 17، والتي كان عبارة عن خدعة أو كذبة يُرَوَّج لها بواسطة الكنيسة الكاثوليكية في الإمبراطورية الرومانية، من أجل توسيع القطاعات التابعة لها في الدولة والأراضي والممتلكات الخاصة بها، فكانت التهمة التي تلقيها على كل من يقف أمام هذا الهدف هي «الزندقة»، حيث مارست الكنيسة كافة الأساليب الوحشية في تعذيب هؤلاء الفتيات التي أطلقت عليهنّ ساحرات، وقد قُتل 9 ملايين شخص في هذه الحملة، كان للنساء النصيب الأكبر فيها. سبت الساحرات: كانت الفكرة الشائعة عن حياة الساحرات، والتي روجت لها الكنيسة عبر رجالها في جميع الدول الأوربية، أن يوم السبت هو اليوم المقدس لديهنّ حيث يجتمعن من أجل ممارسة طقوس وعبادات خاصة للشيطان، مع تقديم فروض الولاء والطاعة الكاملة له من أجل الحصول على المزيد من القوى الخارقة والتعويذات. طرق تعذيب وحشية: مارس رجال الكنيسة أقسى أساليب التعذيب وحشية على كل من كانت تثبت عليه تهمة ممارسة السحر، بخاصة من النساء، حيث كانت تُكْسَر ساقها أو تخلع أظافرها أو تُغَطَّس في الماء الساخن، وكنّ يُعَرَّضن للكوي والحرق في أماكن مختلفة من أجسادهن أو يجْبَرْن على الجلوس على كراسيّ حديدية مغطاة بالإبر والمسامير الحادة، حتى تُنزع الاعترافات منهن، وعُرض بعض هذه الأدوات الخاصة بالتعذيب والتي اختُرِعَت خصيصًا من أجل هذا الأمر في متحف مدينة «مورا» في سويسرا عام 2009. محاكمة الساحرات: كان القضاة الرسميون داخل هذه المحاكم من ممثلي الكنائس الكاثوليكية، وكانت التهمة الواقعة على جميع من قُدِّموا للمحاكمة في هذه الفترة هي الهرطقة أو الزندقة لممارسة الشعوذة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، حيث تُصنع محاكمات هزلية أمام الجموع البشرية والتي كان الهدف منها هو توضيح عام للجميع بأن كل من تسوّل له نفسه الوقوف ضد أهداف الكنيسة أو مساعيها في الدولة

سوف يلقى نفس المصير، وغالبًا ما كانت الأحكام ما بين الشنق أو الحرق، وقُدر عدد المحكوم عليهم خلال هذه الفترة بـ9 ملايين شخص، أغلبهم من النساء.

انظر: https://www.almrsal.com/post/528680.

(11) قضيّة Urslines de Loudun أو Possédées de alaoudun: هي مطاردة شهيرة أطلقها الكاردينال ريشيلو في ثلاثينيّات القرن السادس عشر ضدّ القسّ الكاثوليكيّ أوربان غراندييه (انظر الحاشية اللاحقة)، في بلدة لودون بفرنسا، بعد اتّهامه بإبرام صفقة مع الشيطان. لقد استحضرت اسمه أخوات دير أورسولين اللواتي قلن إنّ الشيطان يتملكه أثناء نوبة الهذيان. أدّت هذه القضيّة الشيطانيّة إلى بروز أدبٍ جديد لا مثيل له سابقًا.

(12) أوربان غراندييه Urbain Grandier: (1590 ـ 1634): قسّ فرنسيّ اتّهم بالسّحر في قضيّة شياطين لودون، وأُعدِمَ حرقًا.

(13) السير وليام كروكس (1832 ـ 1919): كيميائي وفيزيائي بريطاني، عضو في الجمعية الملكية ولديه وسام استحقاق، أسهم في الكلية الملكية للكيمياء بلندن، حيث عمل في علم الأطياف في جمعية الأبحاث النفسية، وكان رائداً بالأنابيب المفرغة حيث اخترع أنبوب كروكس.

(14) أوليفر لودج (1851 ـ 1940): فيزيائيّ بريطانيّ، ومُشارك أساسيّ في تطوير الراديو، وحائز براءات اختراع كثيرة. كان مديرًا لجامعة برمنغهام من العام 1900 حتى العام 1920.

(15) كان لودج مقتنعًا بأنّ ابنه ريموند قد تواصل معه، وإنّ كتابه «ريموند أو الحياة والموت» 1916 هو وصف لتجارب ابنه في عالم الأرواح.

(16) البروفيسور تشارلز روبرت ريشيه (1850 ـ 1935) هو عالم فيزيولوجي فرنسي في كوليج دي فرانس المعروف بعمله الرائد في علم المناعة. في عام 1913 حصل على

جائزة نوبل في علم وظائف الأعضاء أو الطب «تقديراً لعمله في الحساسية المفرطة». كرس ريشيه سنوات عديدة لدراسة الظواهر الخارقة والروحية.

(17) أنطوان هنري بيكيريل (1852 ـ 1908)، مهندس وفيزيائي فرنسي. ينحدر من عائلة فيزيائيين، حيث كان كل من والده وجده فيزيائيين وأستاذين في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي بباريس. تلقى تعليمه الثانوي والجامعي في أشهر المعاهد الفرنسية كمدرسة لويس لو جران (Lycée Louis - le - Grand) والمدرسة المتعددة التكنولوجيا البوليتكنيك (l'École polytechnique)، حصل على جائزة نوبل في الفيزياء سنة 1903 بفضل مساهمته العظيمة في اكتشاف النشاط الإشعاعي، وحصل على وسام رمفورد سنة 1900، وعلى وسام هلمهولتز عام 1901، وعلى وسام برنارد عام 1905. وقد سميت وحدة القياس الدولية للنشاط الإشعاعي بيكريل (becquerel أو اختصارًا Bq) نسبة إليه. وهناك فوهات على القمر والمريخ تحمل اسمه.

(18) ألفونس دوديه (1840 ـ 1897): روائي فرنسي من نوابغ الكتّاب الفرنسيّين. ارتبط بالمدرسة الطبيعية، وامتزجت في أعماله اللوحات الواقعية للحياة اليومية بالخيال. ألف العديد من الروايات (الشيء الصغير 1868، تارتاران من كاركاسون 1872، سافو 1884، الخالد 1886) بالإضافة إلى قصص طويلة وأخرى قصيرة (رسائل من طاحونتي 1866، 1867، قصص الاثنين 1873).

(19) الإيحاء Suggestion: «الإيحاء في اللغة: الإشارة، والكلام الخفيّ... ونحن نستعمل اليوم هذا اللفظ للدلالة على المعاني الآتية: 1 ـ فعل أوحى: أوحى إليه أي ولّد في ذهنه فكرة... 2 ـ الإيحاء اسم يدلّ على ما يحدث في الذّهن من فكر أو تصوّر بتأثير عامل خارجيّ... 3 ـ ومع ذلك، فإنّ معنى الإيحاء في الفلسفة الحديثة لا يخلو من اللبس والغموض، فبعض الفلاسفة يشترط في الإيحاء أن يكون الموحى إليه غير شاعر بأسباب التأثير الذي حدث فيه، أو بالفكرة التي أوحي إليها به». انظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، الجزء الأوّل، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ، 1982، ص181.

(20) إليوتير إيلي نيكولاس ماسكارت Éleuthère Élie Nicolas Mascart (1837 ـ 1908): أستاذ الفيزياء العامة والتجريبية في Collège de France لمدة 36 عامًا، ترأس المكتب المركزي للأرصاد الجوية، وأقام محطة مراقبة في أعلى برج إيفل. رئيس العديد من المنظمات والجمعيات العلمية، وكان عضوًا ثم السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم. تمكن من تحقيق مشاريع كبرى، بما في ذلك إنشاء المدرسة العليا للكهرباء واعتماد الوحدات الكهربائية الدولية.

(21) قابليّة الإيحاء Suggestibilité: «هي استعداد الشّخص لقَبُول الإيحاء بسهولة»، المرجع نفسه، ص182.

(22) المنشُورُ (في علم الهندسة) Prisme: جسمٌ كثيرُ السطوح قاعدتاه أَو طرفاه مضلعان متساويان ومتماثلان ومتوازيان، وكل سطح من سطوحه الأُخرى الجانبية متوازي أَضلاع، وينسب المنشور عادة إِلى شكل قاعدتيه، فمنشور ثلاثيّ أَو رباعيّ، وهلمَّ جرًّا.

(23) إشارة إلى مسرحيّة (مأساة) بوليكت لبيار كورناي Pierre Corneille التي كتبها بين عامي 1641 و1642، إذ ضحّى بوليكت بنفسه لأنّه رفض التّخلي عن الإيمان المسيحيّ، وذلكم ما دفع زوجته بولين وصهره إلى التحوّل نحو الديانة المسيحيّة.

(24) التي تحدث مرّة كلّ قرن.

(25) كانت دولة بروسيا حينئذ ولعدة أعوام تزداد قوة في ظل حكم بسمارك (المستشار الحديدي)، وبدا أن حربًا توشك أن تنشب بين بروسيا والنمسا، فأسعد ذلك نابليون كثيرًا، إذ خُيل إليه أنها ستكون حربًا طويلة تنتهي بإنهاك قوى الطرفين، ومن ثم تصبح فرنسا القوة المتفوقة في قارة أوربا، ولكن الحرب لم تستمر سوى سبعة أسابيع، فقد سُحِقَت جيوش النمسا، ثم توجهت الجيوش والمدافع البروسية نحو فرنسا.

(26) في العام 1866 دمَّر الجيش البروسي القوة الرئيسية للجيش النمساوي عند نقطة الوسط بين البلدة البوهيمية كونِغراتس (وهي اليوم هرادتس كرالوفه التشيكية) وسادوا (وهي اليوم سادوفا التشيكية).

(27) معركة سيدان معركة وقعت خلال الحرب الفرنسية البروسية بين الجيش البروسي والجيش الفرنسي في 1 سبتمبر 1870، أسفرت عن إلقاء القبض على الإمبراطور نابليون الثالث. كان الألمان قد دحروا الفرنسيين بعدة معارك فرعية صغيرة. وكانت هذه المعركة الحد الفاصل، فقد خطط بسمارك لهذه الحرب مع أركان جيشه وعلى رأسهم هيلموت فون مولتكه منذ هزيمتهم للنمسا، في حين اعتمد الفرنسيون على أمجادهم وسمعة جيشهم. وكان (مولتكه) قد قسم قواته إلى ثلاثة جيوش لتتقدم في ثلاثة محاور وتلتقي في باريس. واستخدم الألمان المخترعات الحديثة في الحرب. فالسكك الحديدية لنقل الجنود، والأسلاك البرقية لإصدار الأوامر، ووضعوا المؤن والذخيرة في كل قرية باتجاه الحدود. اتجه الجيش الفرنسي بقيادة المارشال باتريس ماكماهون ويرافقه الإمبراطور نابليون الثالث في مهمة رفع الحصار عن متز، وارتكب القائد الفرنسي ماكماهون عدة أخطاء عسكرية، كبدت جيشه خسائر فادحة، اضطرته إلى التراجع إلى سيدان، وهناك استطاع (مولتكه) أن يحاصر القوات الفرنسية ويسلط عنيها مدافعه. ولم يستسلم الفرنسيون بسهولة، بل اشتدت المعارك وتساقط القتلى من الطرفين. وأخيراً اضْطُر الإمبراطور نابليون الثالث الموجود بين جنوده المحاصرين أن يأمر ضُبَّاطه برفع العَلَم الأبيض لإنهاء هذه المجازر، وأرسل إلى ملك بروسيا الكتاب التالي: «لمّا كنتُ لم أتمكن من الموت مع جنودي فإنني أضع سيفي على أعتاب جلالتكم». بلغ قتلى الفرنسيين 1700 جندي، وأسر 82 ألفًا مع الإمبراطور. وتقدمت القوات الألمانية باتجاه باريس وحاصرتها. وأنهت هذه المعركة الإمبراطورية الثانية في فرنسا، ومهدت لقيام الاتحاد الألماني.

(28) الجمعية التأسيسية الوطنية (بالفرنسية: Assemblée nationale constituante): هي الجمعية الوطنية الفرنسية التي أُسست في 9 تموز 1789 خلال المراحل الأولى من الثورة الفرنسية. حُلَّ في 30 أيلول 1791 وخلفه المجلس التشريعي.

(29) سِلاف Slave: السلاف أو الصّقالبة هم مجموعة إثنية لغوية هندو أوروبيَّة يتحدثون باللغات السلافيَّة المتنوعة للمجموعة اللغوية البلطيقية السلافيَّة الأكبر. هم مواطنون في أوراسيا، ويمتد انتشارهم من وسط وشرق وجنوب شرق أوروبا على طول الطريق نحو الشمال والشرق إلى شمال شرق أوروبا وشمال آسيا (سيبيريا) والقوقاز وآسيا الوسطى (وخاصةً كازاخستان وتركمانستان)، وكذلك تاريخياً في أوروبا الغربية (لا سيَّما في ألمانيا الشرقية) وغرب آسيا (بما في ذلك الأناضول). من أوائل القرن السادس انتشروا ليعيشوا في غالبية مناطق أوروبا الوسطى والشرقية والجنوبية الشرقية. يوجد اليوم عدد كبير من الجالية السلافية في جميع أنحاء أمريكا الشمالية، ولا سيما في الولايات المتحدة وكندا نتيجة للهجرة. انظر: ويكيبيديا.

(30) كوينتس هوراتيوس فلاكس أو هوراس (باللاتينية: Qvintvs Horativs Flaccvs): (65 ق.م في فينوسا ـ 8 ق.م في روما)، كان شاعرًا غنائيًا وناقدًا أدبيًا لاتينيًا من رومانيا القديمة في زمن أغسطس قيصر، قيل إن له تأثير في الشعر الإنجليزي. أصر هوراس على أن الشعر يجب أن يقدم السعادة والإرشاد. عُرف الشاعر بالقصائد الغنائية والمقطوعات الهجائية. انظر: ويكيبيديا.

(31) علم الكيمياء القديمة.

# الكتاب الثّاني: الأوهام المتعلّقة بمسألة الأمن

## الفصل الأوّل: التّنافس بين الشّعوب والأوهام السّلميّة

تتوق كلّ الشّعوب إلى السّلام، ومع ذلك لا تنجح في الاتّحاد من أجل إرسائه، حتّى في بلدانها. وعليه، انقسمت أمَمٌ كبرى وما زالت إلى أحزاب سياسيّة لا تبحث إلّا عن تقاسم السّلطة، وهي على استعداد للتضحية بمصير وطنها، وبمصير العالَم، لنصرة مبادئ عبثيّة. ثمّة دول صغيرة ناشئة، تكوّنت على حساب الملكيّة النّمساويّة التي يزداد وجودها الاقتصاديّ صعوبة يومًا بعد يوم، لا تُفكّر إلّا في غزو أراضي جيرانهم. في هذا السّياق، وعلى الحدود الشّرقيّة لأوروبا، سقطت إمبراطوريّة ضخمة من جديد في فخ البربريّة، وذلك بتأثير نظريّات مُضَلِّلة، وهدّدت سلام العالَم. أبعد قليلًا، ثمّة حشد آسيويّ جاهز للوقوف ضدّ أوروبا التي تمنعها خلافاتها الدّاخليّة من التنبُّه للخطر.

ذكَّرنا كثيرًا بأنّ الضّرورات الصّناعيّة للعصر الحاليّ خلقت اعتمادًا متبادلًا بين الشّعوب. وعليه، ينبغي لهذا الاعتماد المتبادل أن يجعلها تتضامن بعضها مع بعض، ومن ثمّ، أن تقودها إلى أن تُساعد بعضها بعضًا عوضًا عن استنفاد نفسها في صراعات لا طائل منها. لكنّ هذه الضّرورات، ذات النّظام العقلانيّ المحض، تبقى من دون أيّ تأثير في المشاعر والأهواء التي تحكم سلوك الجماهير.

مع ذلك، يفيد هذا الاعتماد المتبادل بأنّه ما من حكومة قادرة اليوم على اتّخاذ أي إجراء من دون أن يكون له تداعيات في العالَم بأسره.

إذا نَجَتِ الحضارات الكبرى من الاضطرابات التي نمرّ بها، فإنّ التّضامن بين الشّعوب سيغدو قانونًا عالميًّا. لكن قبل أن يتسنّى له أن يسود، يجب عليه أن يتعايش مع حقائق

الوقت الرّاهن وأن يجهد في حماية نفسه من التّهديدات التي نراها تتعاظم.

في ما يتعلّق بهذه التّهديدات، يُمكن القول إنّ الأخطاء كانت فادحة. والحال أنّ ذكرى ما تكبّدته فرنسا نتيجة الأوهام السلميّة التي سبقت كارثة العام 1914، يجب أن تكون خير درسٍ نتعلّم منه.

يكفي لكي نحلّ المسألة الشّائكة المتعلّقة بحفظ السّلام، أن نحثّ أممًا كثيرة على الاعتراف بضرورة التعاون من أجل مواجهة معتدٍ مُستقبليّ.

يعود هذا المفهوم الأوّليّ عن الضمانة، كما نعلم، إلى الرّئيس وِلْسن. فبحسب مشروعه، ينبغي للولايات المتّحدة وإنجلترا أن تلتزما بالوقوف إلى جانب فرنسا إذا هاجمتها ألمانيا من جديد. وفي ظلّ هذه الظّروف، لا يعود بإمكان الإمبراطوريّة أن تُفكّر في حرب انتقام، وعندئذ يُلغى السّلام مضمونًا على الأقلّ لبعض الوقت.

لا شيء في الظّاهر أبسط من ذلك، لكن في الظّاهر فقط. على الرّغم من النّصائح الإنسانويّة للرئيس ولسن، رفض برلمان الولايات المتّحدة بشدّة مشروعه.

وبعد، يُشكّل اختلاف ذهنيّات مختلِف الشّعوب الدوافع الأساسيّة التي تمنع الأمم الكبرى من الاتّحاد من أجل إرساء السّلام، في حين أنّ العقل يُثبِت لهم ضرورته.

وعليه، أظهر ثلاثون مؤتمرًا بالفعل استحالة أن تتشارك الشّعوب ذات الذّهنيّة والمصالِح المتباينة في هدف مشترك.

سواء أكانت مفاهيم حلفاء فرنسا القدامى عادلة أو ظالمة، ينبغي أخذها بالحسبان. علاوة على ذلك، تختلف أفكار الحقّ والعدالة تمامًا تبعًا للشّعوب التي تتذرّع بها.

لذا من غير الطائل سيّاسيًّا المطالبة بفرض أفكار شعبٍ ما على شعبٍ آخر عندما تكون ذهنيّة هذين الشّعبين مختلفة للغاية.

علاوة على ذلك، ينبغي لنا ألّا ننسى بأنّه في الوقت الذي تظهر فيه الحقيقة، تُصبِح الصّيَغ الموضوعة في وقت السِّلم، بصفة عامّة، غير فعّالة. نحن نعلم كم هي عبثيّة القرارات الإنسانويّة لمحكمة لاهاي ـ على الرّغم من أنّها مقبولة عالميًّا ـ التي تُطالِب بوضع حدّ للحروب، وجعل تلك التي يُمكن أن تندلع أكثر إنسانيّة. الحقّ أنّها لم تمنع وقوع أيّ نزاع، وبعيدًا من أن تتميّز الحرب الأخيرة بطابعها الإنسانيّ، كانت، على العكس، الأكثر وحشيّة من بين الحروب التي سجّلها التاريخ. لقد تبيّن مدى وحشيّتها بالنّسبة إلى أولئك الذين أرادوا قبل كلّ شيء احترام اتفاقيّات لاهاي في وجه عدوّ لا يحترمها البتّة.

وبعد، لِنُجِلَّ المثال السّلميّ، لكن لننظر إليه على أنّه بعيد، وغير قابل للتحقّق حاليًّا، ومن دون فعاليّة تُذكَر في وجه الأهواء والكراهيات التي ما زالت تُحرِّك نفوس الشّعوب.

الحقّ أنّ الصّعوبة الأكبر التي تواجه الأمم تكمن في بقائها متَّحدة في الدّاخل كي لا تُهزَم في الخارج.

خالَ محبّو البشر، الذين حلموا بسلامٍ دائم مؤسَّس على الأخوّة المفترضة بين الأمم، أنّ ذهنيّات كلّ الشّعوب متشابهة، وأنّ هذه الشّعوب تتباعد بفعل تباين مصالحها فحسب.

لا شكّ في أنّ اختلاف المصالح عميق للغاية، لكنّ اختلاف الذّهنيّات أعمق بكثير.

تكفي المؤتمرات الكثيرة التي عُقِدَت منذ إقرار السّلام كي تُبيِّن، كما قلتُ أعلاه، كم أنّ تنافر المشاعر وتناقض الأفكار بين الشّعوب يتعذّر اختزالهما. فالكلمات نفسها لا توقظ الأفكار نفسها في العقول المختلفة، ذلك بأنّ سوء فهم كامل يُسيطر على علاقاتها في ما بينها.

أثبت المؤتمرات، والاجتماعات، إلخ، إلى أيّ حدّ ظلّت القوى العقلانيّة عاجزة عن قيادة سلوك الشّعوب. وبعد، شهدت الإنسانيّة ولادة أدمغة قادرة على حساب وزن الكواكب،

والتقاط البرق، لكنّها بالكاد أحصت، في المجال الاجتماعيّ، وجود عدد قليل من العقول التي تعرف كيف تُوجِّه مصير الأمم بشكل مفيد.

والحال أنّه ينبغي لنا ألّا نبحث عن تلك الأدمغة في المؤتمرات الثّلاثين التي انعقدت. لا شكّ في أنّ المجتمعات محدودة للغاية من النّاحية العقليّة، لكن عندما تتكوّن من أناس ينتمون إلى أعراق مختلفة، تظهر دونيّتها الذهنيّة بشكل واضح.

وبعد، يُمكننا، على هَديِ أنوار هذه المفاهيم، ومن دون أن ننسى أنّ فرنسا وإنجلترا انخرطتا في صراع امتدّ لقرون طويلة ـ من دون الحديث أيضًا عن عشرين عامًا من الحرب ضدّ نابليون ـ أن نُفسِّر إخفاق المؤتمرات التي انعقدت من أجل التوفيق بين الشّعوب.

سوف نلاحظ أيضًا أنّ هذه المؤتمرات كشفت عن استمراريّة كبيرة في السياسة التي اتّبعتها بعض الشّعوب. بغضّ النّظر عن الأحزاب التي تبوّأت سدّة الحكم في إنجلترا: محافظون، ليبراليّون، اشتراكيّون، فقد فكّرت وتصرّفت بالطّريقة نفسها. بفضل هذه الاستمراريّة حصلت إنجلترا من هذه المؤتمرات على كلّ ما يُمكن أن تتمنّاه.

بعد هذه المؤتمرات الدوليّة التي انعقدت في لندن تحت رئاسة حكومة اشتراكيّة، دُعِيَ المندوبون لكي يشهدوا تطوّر مئة بارجة مُسَلَّحة بشكل مذهل. عندها فهموا، من دون خطابات لا طائل منها، أنّ إنجلترا تعتزم الاحتفاظ بهيمنتها على أوروبا، الهيمنة التي اكتسبتها من خلال الحرب، والتي مارستها ألمانيا سابقًا.

لن نُشدِّد كثيرًا على التّعارض الذّهنيّ بين الشّعوب، الذي نادرًا ما يُعيره السّياسيّون اهتمامًا، ومع ذلك يُهيمن على علاقاتهم. حقيقة الأمر أنّ هذا التّعارض يظهر عندما يجتمع أناس من أعراق مختلفة في مؤتمر ما من أجل مناقشة مصالحهم أو نظريّاتهم.

بغضّ النّظر عن سوء الفهم المتبادَل بين الشّعوب، إنّ الحروب أصبحت مميتة للغاية، ومُكلِفة جدًّا، إلى حدّ أنّ الشّعوب ستتردّد كثيرًا قبل أن تنقضّ بعضها على بعض.

علاوة على ذلك، تختلف الحروب الحديثة كثيرًا، من حيث تبعاتها، عن كلّ الحروب السّابقة، وتحديدًا حروب الإمبراطوريّة الأولى، التي تخطّتها في بعض الأحيان لجهة مدّتها، وتساوت معها لجهة العنف المستخدَم.

إلى ذلك، لم تُفْقِر الصّراعات الطويلة، التي شهدتها الحقبة النابليونيّة، أوروبا، لأنّ نهايتها تزامنت مع اكتشافات عظيمة، مثل القوّة الميكانيكيّة للفحم، التي سمحت بتعاظم قدرة الشّعوب واغتنائها.

لقد بيّنتُ في موضع آخر(32) أنّه في بداية الحرب الكبرى، مثّلت القوّةُ المحرِّكةُ للفحم المستخرَج سنويًّا في ألمانيا العملَ الذي يُمكن أن يُنتجه 950 مليون عامل.

وبعد، سيطرت إرادة الملوك، قديمًا، على حياة الأمم، أمّا الحروب فنجمت بخاصّة عن الرّغبة في غزو المقاطعات أو في نشر المعتقدات. اليوم حلّت إرادة الشّعوب محلّ إرادة الملوك، لكنّ الصّراعات لم تتقلّص: لقد غدت ببساطة أكثر فتكًا، ليس بسبب اكتشاف أسلحة جديدة فحسب، بل بخاصّة بسبب تطوّر الأفكار الديمقراطيّة التي قادت إلى استبدال قوى تتألّف من ملايين الأشخاص وتضمّ كلّ الجزء الصّالح من السكّان بالجيوش الصّغيرة القديمة.

فهل يقود الاعتماد الاقتصادي المتبادل هذه الشّعوب إلى أن تحبّ بعضها بعضًا أو على الأقلّ إلى أن تتحمّل بعضها بعضًا؟

لا يهمّ ما إذا كانت الحكومة ملكيّة أو ديمقراطيّة أو شيوعيّة أو ثيوقراطيّة. الحقّ أنّ قيادتها تُلفى اليوم مُنَظَّمَةً، بشكل مباشر أو غير مباشر، من قِبَل إرادات غريبة، وذلكم ما

يُفسِّر عدم تأثيرها وندرة فعلها. ما من شيء يدفع أيّ شعب إلى طلب السّلام إذا كان جيرانه يُريدون الحرب.

ولذلك سيُهيمن الارتياب طويلًا على العلاقات الدّوليّة. على الرّغم من الاكتشافات المذهلة للعصر الحديث، إلّا أنّه يبقى خاضعًا على الدّوام لتأثيرات البربريّة القديمة.

# الفصل الثّاني: أوهام متعلّقة بنزع السّلاح وبالحلفاء

عندما وُقِّعت معاهدة فرساي،(33) بعد حربٍ من أفظع الحروب التي يُمكن للتاريخ أن يحفظ ذكراها، ظلّت الشّعوب مقتنعة بأنّه سوف يُفتَتَحُ عصرٌ من السّلام الرّاسخ بسبب التّوليفات المتبصِّرة التي تخيّلها الرّئيس ولسن، والأساتذة الذين يُرافقونه.

بيد أنّ الآمال هذه راحت تتلاشى يومًا بعد يوم. فالصّراعات التي نشأت في أعقاب المؤتمرات بين الحلفاء القدامى حلَّت محلّ ضربات المدافع ضدّ العدوّ المشترك. لقد ظهرت تهديدات الحرب في كلّ مكان. والجحيم الذي خلناه ينتمي إلى الماضي، بات يلوح في الأفق.

وُلِد من خيبات الأمل هذه استياء عالميّ راح يؤثِّر في كلّ عناصر الحياة السياسيّة والاجتماعيّة. في هذا السّياق، اتّجهت الشّعوب نحو الخطباء الذين جلبوا لهم آمالًا جديدة.

حقيقة الأمر أنّ أسباب اليأس معروفة، لذا يكفي أن نُذكِّر بها باختصار. وعليه، سوف يُظهر هذا التّعداد دور الأوهام في حياة الشّعوب.

تُعَدّ مسألة نزع السّلاح، التي استدعت عقد الكثير من المؤتمرات، واحدة من المسائل التي سلّطت الضّوء على سلطة الأوهام التي تحدّثت عنها للتوّ.

بطبيعة الحال، استهدفت مشاريع نزع السّلاح ألمانيا بالدّرجة الأولى، لكنّ الحلول المقترحة تظلّ طفوليّة.

هل نزعم أنّنا حرمنا الجيش الألمانيّ من مَدَافعه وبنادقه؟ ليس عليهم سوى أن يُصنّعوها بالقرب من الحدود التي تفصل بروسيا الشّرقيّة عن روسيا. هل نُريد منعها من تصنيع المتفجّرات؟ هذا الأمر مستحيل تمامًا، لأنّ أخطر أنواع هذه المتفجّرات ـ النيترو ـ غليسيرين(34) على سبيل المثال ـ يُمكن الحصول عليه من خلال مزيج بسيط من منتجات غير ضارّة على الإطلاق عندما تُفصَل بعضها عن بعض، ناهيك بكونها تُستخدَم كثيرًا في الصّناعة. هل نُفكّر في منعها من تصنيع طائرات حربيّة؟ لكنّ الطّائرة الحربيّة لا تعدو كونها طائرة تجاريّة استُبْدِلَت المتفجّرات أو المدافع فيها بالبضائع.

من الواضح للغاية أنّنا لن نأمل في نزع أسلحة ألمانيا، وفي الحقيقة، لم تنجح اللجان الإشرافيّة في الحصول على أيّ شيء.

إنّ مشاريع نزع سلاح ألمانيا، أو بالأحرى نزع سلاح أيّ شعب، هي مشاريع تضليليّة برمّتها.

يبدو الأمل بالحصول على السّلام عن طريق التّحالفات وهميًّا أيضًا. وعليه، بيّنتُ مرارًا كم كانت فائدة هذه التّحالفات ضئيلة، وأستحضر تحديدًا دراسة للسيّد إيزولسكي Iswolski ـ سفير روسيا سابقًا ـ نصحني بموجِبها أن أحذف، من كتابي الصّغير عن الأقوال المأثورة الذي ترجمه إلى الروسيّة، مقطعًا أُبيِّن فيه أنّ التّحالفات لن تستمرّ بعد زوال المصالِح التي أدّت إلى ولادتها.

يُزوّدنا التّاريخ بحالات كثيرة شبيهة بحالة إيطاليا التي انقلبت في الحرب الأخيرة، كما أشرتُ أعلاه، ضدّ ألمانيا، على الرّغم من معاهدة التّحالف التي ربطتها بها، وذلك منذ اللحظة التي تيقّنت فيها من ضرورة تغيير المعسكر.

تُشكّل مصالح الشّعوب ـ كي لا أكرّر وأعيد كثيرًا ـ المرشد الوحيد في شؤون التّحالف.

عندما نتبيّن مصالح السياسة الإنجليزيّة، نرى بطريقة لا تدع مجالًا للشكّ أنّ بريطانيا العظمى ستُجبَر، سواء من خلال معاهدة ضمان أو من دونها على التّحالف مع فرنسا في حال اعتدت ألمانيا عليها، تحت طائلة أن تُهاجم نفسها بنفسها. الواقع أنّ التّنازلات التي قُدِّمت من أجل الحصول على تحالف بريطانيّ كانت برمّتها تنازلات غير مفيدة.

كان حكّامنا محقّين تمامًا في إرضاء تطلّعات شعبهم من خلال مطالبتهم بإصرار، في عدد كبير من المؤتمرات، بنزع السّلاح وتوفير الأمان عن طريق التّحالفات. لكن ليس بوسع هذه المؤتمرات أن تُفضي إلى أيّ نتيجة عمليّة، ويعود السّبب في ذلك إلى تباعد المصالِح والذّهنيّات في الوقت الرّاهن. الحقّ أنّ تأثيرها الوحيد المفيد يكمن في خلق آمال وهميّة لا يبدو أنّ الشّعوب قادرة على تخطّيها.

سوف يكون التّعاملُ مع هذه التّطلّعات بوصفها يقينيّات أمرًا خطيرًا للغاية. وعليه، إذا خالت الشّعوب نفسها ضمنت السّلام بفضل ميثاق الضّمان الّذي جرت المطالبة به مرارًا، فإنّ ممثليها في البرلمان سيطالبون على الفور بتعليق الخدمة العسكريّة، وسوف تُصبح قوّاتنا سريعًا ميليشيات ضعيفة، شأنها في ذلك شأن كلّ الميليشيات، في مواجهة جيش منظّم.

الواقع أنّ الاعتقاد الأعمى بسلام مؤكَّد له تبعات أخرى أيضًا. الحقّ أنّ فرنسا منقسمة حاليًّا بين أحزاب سيّاسيّة تفصلها بعضها عن بعض كراهيات يتعذّر اختزالها، وتطلّعات يتعذّر التّوفيق في ما بينها. ثمّة عامل وحيد يُمكن أن يلعب دور الموحِّد بين هذه الأحزاب، وأعني الخشية من عدوّ بإمكانه أن يستفيد من انقسامها.

إلى ذلك، لا يجرؤ الفلاسفة أبدًا على التّأكيد أنّه بوسع سلام مؤكّد أن يكون نافعًا. حقيقة الأمر أنّ الأسطر الآتية المستلّة من مجلّة أجنبيّة مرموقة لا تنطوي على أيّ مفارقة:

«يؤيّد الفلاسفة، من دون عناء، الفكرة القائلة إنّه حيث توجد حياة توجد حرب، وإنّه لا يُمكننا أن نتصوّر السّلام العالميّ إلّا على شاكلة استبداد عالميّ يحني ظهور النّاس جميعًا

تحت النّير نفسه».

بهذا المعنى، نجحت الإمبراطوريّة الرومانيّة، بفضل استبداد مماثل، على امتداد قرون عدّة، من نشر السّلام. الحقّ أنّ السّلام لن يكونَ عالميًّا إلّا في اليوم الذي يحكم فيه العالَم بأسره سيّد واحد.

كان من المثير للاهتمام معرفة رأي رجال الدّولة المشهورين بالمسائل السّابقة. في هذا السّياق، نشر لودفيك نودو M. Ludovic Naudeau آراء بعض منهم في كتاب بالغ الأهمّيّة حمل عنوان: **الحرب والسّلم**. سوف نورد هنا مقتطفات عديدة من دراسته هذه، وسوف نرى فيها جانبًا كبيرًا من عدم اليقين الذي سيطر على الأذهان، ولا سيّما على أذهان الأساتذة الأكثر تميّزًا حيث استمرّت الأفكار الوهميّة تُسيطر عليها.

وبعد، استهلّ لودفيك نودو سلسلة الإجابات بإجابة السيّد أولارد M. Aulard، وهو أستاذ سابق في جامعة السّوربون.

بالنّسبة إليه، «لا يُمكن لفرنسا أن تحصل على الأمان إلّا في ظلّ فدراليّة أوروبيّة تُشكِّل جزءًا من مجتمع الأمم».

نسيَ الكاتب أن يُشير إلى وسائل ضمان هذه الفدراليّة المريبة، ولذلك أتت إجابته، كما يعترف بنفسه، «غامضة وغير كافية».

لم يكن السيّد M. Seignobos ـ وهو أستاذ في السّوربون ـ أكثر دقّة من زميله، فقد لاحظ أنّ المسائل التي تُطرَح عليه تتعلّق بالمستقبل.

«يفترض توقّعُ المستقبلِ جملةَ قوانين. والحقّ أنّ التّاريخ لا تحكمه قوانين، ذلك بأنّ التطوّر البشريّ، الذي هو موضوع دراسة هذا التّاريخ، لم يحدث سوى مرّة واحدة». لذا يأمل «أن تزول الحرب كما زالت العبوديّة». ويرى أنّ «تكوينَ أخلاقٍ عالميّةٍ أمرٌ ممكنٌ، إذ من شأنها أن تجعل الشّعوبَ برمّتها غير قادرة على الإفصاح عن رغبتها في الحرب».

وبعد، تقتصر مشكلة الأمن، برأيه، «على منع الحكومات من توريط الشّعوب في الحروب». وللوصول إلى هذا الأمن، «يكفي: 1 ـ نزع سلاح الدّول الكبرى، فهي وحدها القادرة على امتلاك قرار الحرب، 2 ـ حظر تصنيع كلّ أنواع الأسلحة».

لا شيء، كما نرى، أبسط من هذه الأطاريح!

الواقع أنّ السيّد M. de Launay، عضو أكاديميّة العلوم، كان أقلّ توهّمًا، إذ اعتبر أنّ الوسائل المطروحة لضمان الأمن هي وسائل وهميّة.

«الحرب، يقول ـ على الرّغم من اشمئزازه منها ـ ستكون الحالة الطّبيعيّة بين الكائنات الحيّة جميعًا. وعليه، ينبغي لنا، إلى حين خلق إنسانيّة متفوّقة، أن نكتفي بالهُدْنات، والبحث بكلّ الوسائل الماديّة والأخلاقيّة عن ضمان أمنٍ معرَّضٍ للتّهديد باستمرار. كيف يُمكن لنا أن نتوقّع تطوّرًا في الأُخوّة العامّة، إذا كنّا نشهد كلّ يوم في بلدنا تقدّمًا سريعًا للكراهية بين المواطنين؟ [...] لذا ما زلتُ أؤيِّدُ الاتّفاقات الاقتصاديّة والاستعماريّة مع ألمانيا...».

ويخلُص الكاتب إلى القول: «إذا كنّا نملك الحدّ الأدنى من التبصّر، فينبغي لنا أن نتسلّح كي نُدافع عن أنفسنا».

في السّياق نفسه، أبدى السيّد M. Maurice Bompard، سفير فرنسا، ثقة ضعيفة بمحكمة لاهاي، وبمجتمع الأمم.

«لن يضمن نظام مجتمع الأمم الأمن، شأنه في ذلك شأن نظام التّوازن الأوروبيّ... ويلٌ للشّعب الذي ينزع سلاحه مراهنًا على العمل الدبّلوماسيّ وحده من أجل المحافظة على استقلاله. الحقّ أنّ الأمن هو مسألة دنيويّة لا تتعلّق البتّة بالميتافيزيقا. حقيقة الأمر أنّها لم تُحَلّ حتّى اليوم بشكل مجرّد، والشّعوب التي لم تُقدِّم لها حلًّا بسيطًا وعمليًّا، وأعني الحلّ

الذي ما زال يفرض نفسه اليوم أيضًا، اختفت عن سطح الكرة الأرضيّة تحت ضربات الأمم الأكثر حيويّة، لكي لا نقول الأكثر بربريّة».

توصّل السيّد M. Painlevé (35)، عضو أكاديميّة العلوم، ووزير الحرب، إلى خلاصات مماثلة، رافضًا الاعتقاد أنّ:

«الشعوب لا تُدرك أنّ الحروب لا تحلّ شيئًا، ولا تُصلِح شيئًا، ولا تُفضي إلّا إلى إفقار عامّ في الإنسانيّة».

ويُضيف:

«بينما تُغذّي فرنسا الأمل الصّادق بعدم استخدام السّلاح، فإنّها تُلفي نفسها مضطرّة إلى المحافظة على خاصرتها من خلال درع يجري تعزيزه في كلّ يوم، بهدف صون السّلام نفسه».

إذا استبعدت الاستشهادات السّابقة الإيديولوجيات السّلميّة التي لا تفعل شيئًا سوى أنّها تُسهِّل مشاريع الانتقام الألمانيّة، فإنّنا نستخلص أنّ الرّجال المشهورين، من مختلِف الأحزاب، يتّفقون على إثبات أنّ إمكانيّة الأمن الوحيدة حاليًّا تكمن في تسلُّحٍ كافٍ كي تمحو من أذهان الشّعوب الأخرى فكرة مهاجمة جيرانها.

حقيقة الأمر أنّ السّلام لا يتحقّق إلّا إذا توصّلت الأحزاب السيّاسيّة التي تقسم فرنسا اليوم إلى التوحّد ضدّ عدوّ مشترك. من أهمّ الدّروس التي يُمكن أن نستقيها من التّاريخ دَرْسٌ مُفاده أنّ الشّعوب المتفرِّقة تختفي سريعًا من المشهد العالميّ. وخير شاهد على ما نقول: اليونان في الأزمنة الغابرة، والجمهوريّون الإيطاليّون في العصر الوسيط، وبولندا في الأزمنة الحديثة. انتهى الأمر بكلّ هذه الشّعوب إلى العبوديّة من جرّاء خلافاتها الدّاخليّة.

تكمن القوّة السّياسيّة لأيّ شعب في وَحْدة مشاعره وأفكاره. عندما يفقد هذه الوحدة، يفقد كلّ شيء.

# الفصل الثّالث: أوهام متعلّقة بقيمة التّحكيم

ما زالت الآراء الجماعيّة المصوغة في مختلِف اجتماعات مجتمع الأمم مبهمة للغاية لكي تُبَرِّر الآمال التي تُصاحب ولادة هذا المجتمع. مع ذلك تُعَدُّ مَحاضِرُها مثيرة جدًّا للاهتمام لأنّها تكشف عن الفكر الحقيقيّ لممثّلي كلّ بلد.

من بين الخطابات التي أُلْقِيَت في جنيف، يُعَدّ خطاب رئيس الحكومة البريطانيّة في تلك الحقبة السيّد الاشتراكيّ ماكدونالد MacDonald (36) الخطاب الأكثر تميّزًا، فهو يكفي وحده لكي يوضح إلى أيّ حدّ تكون أوهامُ الحكّام في بعض الأحيان كبيرة.

انطلق رئيس الوزراء البريطانيّ من فرضيّة أساسيّة مفادها أنّ التّحكيم يكفي من أجل إرساء سلام مؤكَّد في العالَم.

سوف تتعلّم العقول السّاذجة، التي تفترض أنّه بإمكان التّحكيم أن يضمن السّلام، بمجرّد اطّلاعها على أيّ كتابٍ في التّاريخ، وفق أيّ سهولة تستطيع الحكومة التي ترغب في الحرب أن توجِد الذّرائع من أجل افتعالها أو إعلانها.

يبدو من غير ذي طائل، من أجل ضرب الأمثلة، العودة إلى ملك بروسيا فريديرك الثّاني، (37) الذي ترك للقضاة العاملين تحت إمرته ـ على الرّغم من اجتياحه فجأة مقاطعة الـSilésie ـ مهمّة إيجاد الحجج الكافية لغزوته. لنتذكّر أيضًا أنّ بسمارك لم يفعل شيئًا في العام 1870 سوى أنّه غيّر بضع كلمات في إحدى البرقيّات، وكان هذا الأمر كافيًا ليُثير في فرنسا موجة سخط عنيفة أجبرت الحكومة السّلميّة آنذاك على إعلان الحرب. لو كانت فرنسا مُسلّحَة بما يكفي آنذاك لأثارت الخشية في نفس بسمارك، ولحالَت دون إقدامه على مغامرته.(38)

علاوة على ذلك، هل ثمّة من يعتقد أنّ التّحكيم كان قادرًا على منع اليابانيّين من تأسيس قوّتهم من خلال صراعٍ مع روسيا، أو على منع الأتراك من محاولة إنقاذ إمبراطوريّتهم عن

طريق طرد اليونانيّين من أراضيهم؟

من المرجَّح إذًا، كما بَيَّنا في الفصل السّابق، أن تبقى القوّة المـُسَلَّحة لفترة طويلة الدّاعم الفعّال الوحيد للحقّ وللطّموحات التي تحوّلت إلى حقوق.

الواقع أنّ الوزراء الإنجليز أنفسهم لم يشكّوا في هذا الأمر، ذلك بأنّهم خصّصوا مبالغَ ضخمة من أجل زيادة عدد طائرات أسطولهم الجويّ، وعدد سفن أسطولهم البحريّ. على المقلب الآخر، ثمّة شعوب أخرى ـ ومن بينها فرنسا ـ رأت أنّه يجب الاكتفاء بالتّحكيم كسلاحٍ دفاعيّ. وعليه، ينبغي لها لكي تحمي نفسها بهذه الطّريقة أن تعمد إلى التخلّي عن سلاحها!

عِلاوة على ذلك، ينطوي خطاب الوزير الإنجليزيّ ـ الذي أشرتُ إليه أعلاه ـ إلى جانب النّصائح الخطيرة، ينطوي على تأمّلات صحيحة للغاية. إليكم بعض هذه التّأمّلات:

«يتخيّل أنصار السيّاسة السّطحيّة أنّهم إذا كتبوا بعض العبارات على الأوراق، فسوف يَفُونَ بالتزاماتهم، وينامون قريري العين. إنّه لمن الحماقة الاعتماد على مظاهر الأمن، والاستناد إلى قانون الأمم في الوجود، ومن الحماقة أيضًا الاعتقاد أيضًا أنّ هذا الوجود ستضمنه أوراق واتّفاقات. صدّقوني، ما من ورقة، وما من معاهدة ستمنحكم الأمن. أنتم ضحايا وَهْمٍ خطير وأزليّ».

بيد أنّ السيّد ماكدونالد كان مقتنعًا بأنّه يُمكن إرساء السّلام والمحافظة عليه استنادًا إلى نظام تحكيم فحسب. لذا قام بصياغة التّنبؤات الآتية:

«أقول للأمم الصّغيرة:

سوف تُسْحَقون في أيّ نزاع دوليّ قادم، إذا اعتمدتم في أمنكم على المظاهرة المضلِّلة التي لا توجد إلّا على الورق. الوسيلة الوحيدة لتجنّب الكارثة هي التّحكيم».

يقول لنا الوزير نفسه، لاحقًا، كيف تعمل، برأيه، محكمة التّحكيم:

«الحقّ أنّ الاختبار الأوّل الذي سيخضع له المعنيّون يكمن في سؤالهم:

«هل أنتم جاهزون لقَبول التّحكيم؟»

أمّا الاختبار الثّاني فيكمن في سؤالهم:

هل تخشون الضّوء؟ أو بالأحرى هل ستكونون على الدّوام أطفال الظّلمات؟ لتشرحوا لنا».

على الرّغم من أنّ رئيس الحكومة الإنجليزيّ كان رجلًا على قدر عظيم من التّقوى، شأنه في ذلك شأن سلفه لويد جورج، فإنّه وجد صعوبة كبيرة في الاعتقاد أنّ ممثّلي القوى العظمى الجاهزة للدّخول في صراع قادرون على التّراجع أمام احتمال أن يُطلَق عليهم «أطفال الظّلمات». الواقع أنّ تدخّل أسطول مُدَرّع يبدو أكثر فعاليّة.

في الوقت الذي كان خطباءُ جنيف يُلْقون خُطَبًا إنسانيّة أملًا في رفع العوائق التي تُعزّز الكراهية في نفوس الشّعوب، وتجعلها تنقضّ بعضها على بعض، استمرّ التطوّر الصّناعيّ في العالَم، ونزع إلى خلق تضامن المصالِح الذي أظهرتُ مرارًا تفوُّقه على التّحالفات.

ولذلك نتوقّع، بمعزل عن العقبات النّاجمة عن تبعات الحرب الأخيرة، اللحظةَ التي سيُفرَض فيها على الفرنسيّين والألمان، بفعل قوّة الأشياء نفسها، أن يُوحّدوا مصالحهم، على الرّغم من سوء التّفاهم الذي يُفرِّق بينهم. لقد شاهدنا بالفعل أمثلة عديدة على هذا الأمر. نذكر منها حاجة خبراء المعادن اللورينيّين(39) إلى فحم الكوك(40) الألمانيّ، وحاجة الألمان إلى الحديد الفرنسيّ، الأمر الذي دفع بهم إلى الاتّحاد.

يبدو، إذًا، أنّ فرنسا ستُجبر، في نهاية المطاف، تحت تأثير هذا القدر الغامض الذي يُهيمن، بحسب الحكمة القديمة، على إرادات الآلهة والنّاس، على توحيد مصالحها مع عدوّها

المتوارَث. الحقّ أنّ توحيد المصالح هذا، كما فهمه جيّدًا السيّد M. Briand في لوكارنو Locarno، يُمكن أن يُصبح مصدر سلامٍ طويل الأمد.

لم يتميّز مؤتمر لوكارنو بتوحّد المصالح بين الشّعوب فحسب، بل تميّز كذلك بكون رجل الدّولة الفرنسيّ الكبير الذي يُديره عرف كيف يدعم حجج المنطق العقلانيّ التي تملك تأثيرات صوفيّة قويّة للغاية في نفوس النّاس.

وعليه، لم يُصَغْ ما هو غير قابل للتّحقيق في لوكارنو، ولذلك استُبعِدَ الحديث فيه عن مشاريع نزع السّلاح.

طالما شهدت الشّعوب، على امتداد العصور، جدار سوء فهمها يرتفع أمام الحقائق. بيد أنّ الجدار المذكور لم يكن سميكًا في أيّ وقت مثلما هي حاله اليوم.

يعود سبب سوء الفهم الحاليّ، وما ينجم عنه من فوضى، إلى أنّ أسياد الشّعوب يُطالبون بحلّ المسائل النّاجمة عن التأثيرات الانفعاليّة والصوفيّة عن طريق اعتماد المنطق العقلانيّ، ناهيك بإخضاعها لتسلسل منطق من نوع خاصّ لا يعرفه العقل على الإطلاق.

ولذلك لم تحظَ كلّ الحجج العقليّة التي جرى التذرّع بها في جنيف من أجل إرساء سلام عالميّ باهتمام كبير، في حين أنّ الحجج ذات النّسق الصّوفيّ، التي استخدمت في لوكارنو، حصدت نتائجَ باهرة. في الحقيقة، لا يُمكن لعمل مجتمع جنيف أن يكون مفيدًا إلّا إذا كان ذا طابع صوفيّ. والحال أنّ هذا المجتمع سيكون واحدًا من المـَجامِع الدّينيّة التي ستُؤَسَّس عليها معتقدات دينيّة قادرة، على غرار الديانات البوذيّة، والمسيحيّة، والإسلاميّة قديمًا، والاشتراكيّة والشّيوعيّة حديثًا، على أن تتحوّل إلى دوافع للحركة منذ اللحظة التي تحتلّ فيها النّفوس.(41)

على الرّغم من كلّ التقدّم الذي أحرزته العلوم، احتفظت الأوهام الصوفيّة، أُكرّر، بالسّلطة المهيمنة التي تُمارسها دائمًا. لقد تغيّر العالَم مرارًا تحت تأثيرها السّحريّ. ولا نغالي إذا قلنا

إنّها جعلت الممكن ينبثق من المستحيل، مدمّرةً إمبراطوريّات ومشيّدة لأخرى، ومحوّلة مسار حضارات كبيرة برمّتها.

(32) غوستاف لو بون، **دروس سيكولوجيّة من الحرب الأوروبيّة**، ترجمة باسل الزين، دار الرافدين.

(33) معاهدةُ ڤرساي (بالإنجليزية: Treaty of Versailles)، (بالفرنسية: Traité de Versailles)، (بالألمانية: Versailler Vertrag) أو «صلح ڤرساي» ـ أو «معاهدةُ السلامِ بينَ الحلفاءِ والقوى المرتبطة وبينَ ألمانيا» بحسبِ الاسمِ الرسمي ـ، هي المعاهدةُ التي أسدلتِ الستارَ من جانب القانونِ الدوليِّ على حوادث الحرب العالمية الأولى. وُقِّعَ عليها بعدَ مفاوضاتٍ شاقّةٍ وعسيرةٍ استمرَّت ستةَ أشهرٍ هي وقائعُ مؤتمرِ باريسَ للسلامِ (وُقّعتِ الهدنةُ العامةُ مع ألمانيا في 11 نوفمبر/ تشرين الثاني 1918). وقَّعَ الحلفاءُ المنتصرونَ في الحرب اتفاقيّاتٍ منفصلةً معَ دولِ المركزِ الخاسرةِ وهي الرايخ الألمانيّ، والإمبراطورية النمساوية ـ المجرية، والإمبراطورية العثمانية، ومملكةُ بلغاريا. سُلمَتِ الصياغةُ النهائيةُ للنصّ الذي اتُّفِقَ عليهِ إلى الحكومةِ الألمانية في 7 مايو/ أيار 1919 للموافقةِ عليهِ من قِبلِها، وجرتْ مراسمُ التوقيعِ في 28 يونيو/ حَزِيران 1919. تضمّنَتِ المعاهدةُ الاعترافَ الألمانيَّ بالمسؤوليةِ الكاملةِ عنِ الحرب، ما أثارَ حنقاً واسعاً داخلَ ألمانيا، فقدِ اعتُبرَ تنازلاً عن الكرامةِ الوطنيّةِ. انظر: ويكيبيديا.

(34) النيترو ـ غليسيرين: مادة سائلة زيتية لا لون لها، وهي شديدة الحساسية للصدمات والارتجاج، وشديدة الانفجار وهي أساس مركب الديناميت.

(35) صحيح أنّه من غير المسموح مشاركة آراء السيّد Painlevé السّياسيّة، لكنّنا لا نستطيع أن نجادل هنا في أنّ هذا الرّجل يملك استقلاليّة فكريّة. لقد اختبرتُ هذا الأمر بنفسي عندما أنهيتُ أبحاثي التّجريبيّة حول إمكانيّة تجريد المادّة، الأمر الذي كان يُعَدّ مستحيلًا آنذاك. ومع ذلك نشر في مجلّة La Recue Scientifique، عدد كانون الثّاني 1906، مقالة مطوّلة حملت العنوان الآتي: «تأمّلات في نظريّة المادّة لغوستاف لو بون».

لقد دافع عن أفكاري، من دون أن يأخذ بالحسبان المعارضة العامّة لها، في تلك الحقبة، من قِبَل زملائه في أكاديميّة العلوم.

(36) جيمس رامزي ماكدونالد (بالإنجليزية: Ramsay MacDonald) (1866 ـ 1937): هو سياسي بريطاني وأول عضو في حزب العمال ليصبح رئيس وزراء المملكة المتحدة. قاد حكومات الأقليات العمالية لتسعة شهور في عام 1924 ثم في الفترة الممتدة بين 1929 حتى 1931. أما في الفترة بين عامي 1931 و1935 تولى رئاسة حكومة وطنية يهيمن عليها حزب المحافظين، ولم يؤيدها سوى عدد قليل من أعضاء حزب العمال. ونتيجة لذلك طُرد ماكدونالد من حزب العمال. كان ماكدونالد واحدًا من مؤسسي حزب العمال الرئيسيين الثلاثة إلى جانب كير هاردي وآرثر هندرسون في عام 1900. كان رئيس نواب حزب العمال قبل عام 1914، وبعد غياب في حياته المهنية إثر معارضته للحرب العالمية الأولى، أصبح زعيمًا لحزب العمال عام 1922. أما حكومة العمل الثانية فقد هيمنت عليها أزمة الكساد الكبير. شكّل الحكومة الوطنية لتنفيذ تقليص النفقات بهدف الدفاع عن نظام غطاء الذهب، ولكن كان لا بد من التخلي عنها بعد تمرد إنفيرغوردون، ودعا إلى عقد انتخابات عامة عام 1931 سعيًا إلى الحصول على ما يُسمى «انتداب الطبيب» (يحدث هذا عندما تحدث مشكلة أثناء وجود الحزب في السلطة فيتحتم عليه أن يستجيب لها كما يستجيب الطبيب للمريض) لإصلاح الاقتصاد. فاز الائتلاف الوطني بأغلبية ساحقة، وقلّص حزب العمال إلى ما يقرب من خمسين مقعدًا في مجلس العموم. تدهورت صحته وتنحى عن منصب رئيس الوزراء عام 1935، ليبقى رئيس المجلس حتى تقاعده عام 1937. توفي في وقت لاحق من ذلك العام. انظر: ويكيبيديا.

(37) فريدريك الثاني (بالألمانية: Friedrich II von Staufen) (1194 ـ 1250): إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1220 ـ 1250) ملك صقلية (1198 ـ 1250) من سلالة هوهنشتاوفن الألمانية. تميز عهده بالصراع مع البابوية من أجل السيطرة على إيطاليا. قاد الحملة الصليبية السادسة (1228 ـ 1229). توج نفسه ملكاً على القدس عام 1229. كان فريدريك رجلاً مثقفاً، رعى الفنون وشجع العلم، وكانت تلك

موضوعات يفهمها قلة من البشر، وقد أكسبته حكمته ومعرفته سمعة طيبة فاعتبر من أذكى الرجال في أوروبا، ولُقِّب بمعجزة العالم.

(38) إشارة إلى الحرب الفرنسية الألمانية أو الحرب الفرنسية البروسية، ويشار لها أحيانًا باسم الحرب السبعينية (1870 ـ 1871): كانت صراعًا مسلحًا نَشِب بين الإمبراطورية الفرنسية الثانية بقيادة نابليون الثالث والولايات الألمانية للاتحاد الألماني الشمالي بقيادة مملكة بروسيا. سبب الحرب كان طموح بروسيا توحيد الأمصار الألمانية وخوف فرنسا من تغير موازين القوى الأوروبية إذا نجحت بروسيا في مسعاها. يرى بعض المؤرخين أن المستشار البروسي أوتو فون بسمارك أثار عمدًا هجومًا فرنسيًّا من أجل جذب الولايات الألمانية الجنوبية المستقلة إلى تحالف مع الاتحاد الألماني الشمالي الذي تسيطر عليه بروسيا، في حين يقول آخرون إن بسمارك لم يخطط لذلك وإنه استغلّ الظروف التي حدثت فحسب.

(39) نسبة إلى إقليم لورين (بالفرنسية: Lorraine)، هو أحد أقاليم فرنسا السابقة (حتى 2015) الست والعشرين. عاصمته ميس. لورين هي المنطقة الفرنسية الوحيدة التي تشترك بالحدود مع ثلاث دول: بلجيكا، ولوكسمبورغ، وألمانيا.

(40) فحم الكوك هو مادة كربونية قابلة للاستخدام كوقود بإحراقها، وتُصَنَّع بالتقطير الإتلافي للفحم الحجري أو الفحم البيتوميني، ويكون شكل الفحم في النهاية على هيئة أحجار سود ورمادية جافة لكنها ليست شديدة الصلابة وقابلة للكسر.

(41) ذلكم ما فهمه تمامًا السيّد M. Aristide Briand عندما قرَّر الاستفادة من مكانته الأخلاقيّة العالية من أجل تأسيس حالة ذهنيّة بين فرنسا وألمانيا، حالة صُنِّفَت بأنّها روح لوكارنو. الواقع أنّ الصّعوبات الهائلة التي اعترضت هذه المهمّة لم تغب عن بال رجل الدّولة الشّهير هذا. بإمكاني أن أثبت هذا الأمر من خلال الرّسالة القصيرة التي أرسلها إليّ من لوكارنو عندما استهلّ مشروعه:

صديقي الدكتور لو بون لوكارنو 17 تشرين الأوّل 1925

في هذا المنظر الطّبيعيّ الخلّاب، واجهتُ مخاوفي، ورُحتُ أُفكّر فيك، وفي السّخرية التي لن تفوتك أبدًا في غداءٍ قريب قادم سيجمعنا، وأنت تغربل ما تُطلق عليه مشروعي الوهميّ. ختامًا، قد يدعم القدر في بعض الأحيان المجانين».

تقبّل خالص تحيّاتي. إلى اللقاء قريبًا. M. Aristide Briand

# الكتاب الثّالث: الحروب الحديثة: أسبابها وتبعاتها

## الفصل الأوّل: السِّماتُ المدمِّرة للحروب القادمة

يؤيّد الفلاسفة الألمان، في ما يتعلّق بالحرب، أطاريح تختلف كثيرًا، في بعض الأحيان، عن أطاريح العلماء الأوروبيّين الآخرين. بالنّسبة إليهم، تُشكِّل القوّةُ المصدرَ الوحيدَ للحقّ، ونتيجة المعارك وحدها كفيلة بإظهار أين يكمن هذا الحقّ. وهم يؤكّدون أيضًا أنّ الحروب تقوم بانتقاء الجديرين فحسب. لذا تعود الحروب هذه بمنفعة كبيرة على البلدان المنتصرة.

يُمكن للانتقاء الذي تقوم به الحروب أن يكونَ مُفيدًا في الحقبات التي تُشكِّل فيها الجيوش المحترفة جزءًا صغيرًا من الشّعب، وحيث يُعَدُّ الضّحايا بالآلاف وليس بالملايين كما يحدث الآن.

إلى ذلك، يُمكن القول إنّ معايير انتقاء المقاتلين تختلف جدًّا اليوم. فالصراعات الحديثة لا تُدمِّر المهزوم فحسب، بل تُدمِّر المنتصِر أيضًا، كما أنّها تُضعِف قوّة الشّعب. فالمجازر العسكريّة أزهقت أرواح من هم أنشط وأقوى. هذا الانتقاء السّلبي هو إذًا مصدر التّراجع وليس التقدّم.

حقيقة الأمر أنّ المفاهيم الدّيمقراطيّة الجديدة التي لم يعرفها الفلاسفة الألمان القدامى، هي المصدر الرئيسيّ للسِمة المميتة للحروب الحديثة. بعبارة أوضح، يُمكن القول إنّ القتلى، الذين بلغ تعدادهم عشرة ملايين شخص في الحرب الأوروبيّة الأخيرة، لم يكونوا سوى ضحايا الأفكار الديمقراطيّة الحديثة المتعلّقة بالخدمة العسكريّة العالميّة. من أجل

إخضاع هؤلاء النّاس، استُبْدِلَ ملايين المقاتلين بالجيوش الصّغيرة المحترفة. وهكذا أُرْضِيَت النّظريّات الديمقراطيّة، لكنّ نجاحها كان مكلفًا جدًّا للبشريّة.

لم يكن من الصّعب، منذ بدايات الحرب الكبرى، توقّع التّبعات المميتة لإدخال ديمقراطيّة العدد في الصّراعات الحديثة.

مع ذلك، انعقدتِ الأوهام الغريبة، مع بداية الحرب، على مدّتها، وطبيعتها، وسِمَتها. لقد بدا بديهيًّا للغاية أنّها ستكون حربًا قصيرة، وأنّ رحاها ستدور مع كثير من الإنسانيّة، بفضل الشّروط التي كرّستها محكمة لاهاي.

لكن خلافًا لكلّ التوقّعات، امتدّت الحرب طويلًا، وكانت أكثر وحشيّة وإبادة من كلّ الحروب التي سجّلها التّاريخ. لقد تطلّبَ الأمرُ حقًّا عمًى بيِّنًا من قِبَل مُحِبّي الإنسانيّة وبعض الدّبلوماسيّين كي لا يتوقّعوا هذين الأمرين.

إلى ذلك، أوردت الكثير من الصّحف، في الأيّام الأولى للحرب، السّطور الآتية التي كتبتُها منذ أكثر من عشرين عامًا في كتابي «**روح السياسة**». حول التبعات التي يُمكن أن تُفضي إليها أيّ حرب قد تندلع في أوروبا:

«لا يذهب عن بالنا أنّ هذه الحرب ستكون حاسمة كالّتي قصّها التّاريخ قائلًا: إنّها لم تنتهِ إلّا بإبادة أحد الطّرفين، أي إنّ الحرب المقبلة ستكون فاقدة الرّحمة، مؤدّية إلى تخريب كثيرٍ من البقاع تخريبًا منظّمًا حتّى لا يبقى منها بيت ولا شجر ولا بشر».(42)

طالما سُئِلتُ عن الأساس الذي استندتُ إليه من أجل صياغة توقّعاتي. الواقع أنّ أسبابي كانت بسيطة للغاية، ولا تتطلّب أيّ نفاذ بصيرة. كان يُمكن لأكثر الدّبلوماسيّين تواضعًا أن يصوغ التّوقعات نفسها لو أنّه أخذ بالحسبان أنّ ملايين النّاس سيكونون حاضرين في الحرب الجديدة، في حين أنّ كلّ بلدٍ كان يمتلك في الحروب القديمة جيشًا صغيرًا من

المحال تجديده. وعليه، كان يكفي، قديمًا، أن تكسب معركةً أو معركتين كي تُرغم المهزوم على طلب السّلام.

لكن مع تعاظم الجيوش التي باتت تتألّف من ملايين الرّجال، وتنتشر بقوّة على جبهة أكثر اتّساعًا بكثير، ماذا يُمكن أن تعني خسارة معركة أو اثنتين أو ثلاث أو عشر معارك، إذا كانت تكلِفة كلّ واحدة لا تتعدّى خمسين ألف رجل؟

من المحال إذًا التّفكير في واحدة من المعارك القصيرة التي حصلت في زمن نابليون فقط. يُصبح من البديهيّ القول، إذًا، إنّ المنتصر يبحث، باعترافه بعدم جدوى الانتصارات، كما فعل الألمان، عن التغلّب على الخصم وقهره بوسائل ترهيب أكثر فعاليّة من كسب المعارك.

ذلكم بالضّبط ما حصل عندما دمّرتِ الجيوش الألمانيّة عشرة مبانٍ، واصطحبت معها جزءًا صالحًا من السكّان، وعاملتهم معاملة العبيد، وأجبرتهم على القيام بأعمال سُخَرة. علاوة على ذلك، دعا الكتّاب العسكريّون الألمان الأكثر تأثيرًا إلى تعزيز ممارسات التّرهيب المذكورة، وتحديدًا برناردي Bernhardi.

في ما يتعلّق باختفاء الإمبراطوريّات الكبرى المذكورة في التوقّع السّابق، وأنّه ينبغي التّحقّق من تفكّك النّمسا، الحقّ أنّ الأمر لا يعدو كونه فرضيّة بات تحقّقها وشيكًا من خلال مدّة الصّراع. وعليه، لو هُزِمَ الحلفاء لما كانت النّمسا لتختفي سيّاسيًّا، بل بلجيكا ومقاطعات فرنسيّة كثيرة.

انطلاقًا من العناصر التي أفادتني قديمًا في توقّع السِّمة الوحشيّة للحرب الأخيرة، يُمكننا أن نستنبط أنّ الصّراعات القادمة ستكون أكثر وحشيّة أيضًا، ونعني تدمير مدن بأكملها وإبادة سكّانها باستخدام القنابل التي تُلقيها الطّائرات، واستخدام الغازات السامّة والخانقة، وغيرهما. ممّا لا شكّ فيه أنّ السكّان يُعانون في خلال الحرب أكثر ممّا تُعانيه الجيوش.

والحال أنّه ينبغي ألّا تُخفَى هذه المنظورات، بل العكس، يجب إعلانها بصوتٍ عالٍ بغية إفهام الشّعوب أنّ مصلحتها العليا تكمن في اتّحادها كيما تنزع من أيّ معْتَدٍ مستقبليّ محتمل فكرةَ الإقدام على شنّ حربٍ جديدة. بوجيز العبارة، لا يُمكن مهاجمة مجتمع يملك وسائلَ دفاعٍ لا تُقهَر.

# الفصل الثّاني: لماذا لا يُمكننا تجنّب بعض الحروب؟

بانتظار أن يمتلك مجتمع الأمم السّلطة والمكانة التي يبدو أنّه ما زال يفتقدها، من المفيد أن نُبَدِّد الأوهام التي كوّنتها الشّعوب حول الحماية التي يُمكن لهذا التّجمّع أن يوفّره لها في حال الاعتداء عليها.

إنّ شعارات مثل التّحكيم، ونزع السّلاح، والأمن، خطيرة للغاية. فالطّبيعة البشريّة لم تتغيّر بعد، ناهيك بكون دروس التّاريخ تبقى مُطبّقة دائمًا. فهي تُظهر ما تُصبِح عليه الشّعوب المنزوعة السِّلاح أو غير المسلَّحة على نحوٍ كافٍ.

هناك سببان حاسمان سيتعارضان لوقت طويل مع إمكانيّة إرساء سلام دائم. يكمن السّبب الأوّل في حتميّة نشوب بعض الحروب، أمّا الثّاني فمفاده الآتي: إذا كانت غالبيّة الحروب مُدَمِّرة للمنتصِر كما هي مُدمِّرة للمهزوم، فإنّ المنتصِر يحصل، مع ذلك، على منافعَ تزيد كثيرًا عن المنافع التي يوفّرها له السِّلم.

لنتناول بدايةً الحروب الحتميّة.

تُعَدُّ حربٌ ما حتميّة عندما يُهاجَم شعبٌ ما من قِبَل شعبٍ آخر. وخير شاهد على ذلك، الحرب الفرنسيّة الألمانيّة، والصّراعات التي تدعمها فرنسا في سوريا والمغرب، والحرب بين اليابان وروسيا في أيّامنا هذه، وحرب تركيا ضدّ اليونان.(43)

يُظهر مثال الصّراع اليونانيّ ـ التّركيّ أنّه بإمكان الحرب أن تكون حتميّة ومفيدة للغاية، في آنٍ معًا، بالنّسبة إلى المنتصِر.

نحن نعلم أصول هذه الحرب. الواقع أنّ الصّراع العالميّ أفضى إلى توسيع الإمبراطوريّة البريطانيّة توسيعًا كبيرًا. بعبارة أوضح، لقد خضعت بلاد ما بين النّهرين، وفلسطين، وإفريقيا الألمانيّة،(44) إلخ، لقوانينها. علاوة على ذلك، يُمكن تأكيد أنّ سيطرتها على الشّرق وعلى أوروبا تتّسع يومًا بعد يوم.

وبعد، لكي تُكمِل غزواتها، وجب عليها أن تضمّ القسطنطينيّة (إسطنبول)، مفتاح آسيا، إلى الدّول المذكورة. وذلكم ما تؤكّده مقولة السيّد لويد جورج الشّهيرة: «لقد أوكلت العناية الإلهيّة إلى العرق الإنجليزيّ مهمّة نشر المدنيّة في قسم كبير من العالَم».

من أجل تحقيق هذا الهدف الذي خطّطته العناية الإلهيّة، لم يبقَ أمام إنجلترا سوى قمع الأتراك الذين يعيشون خارج أوروبا، ومن ثمّ احتلال القسطنطينيّة باستخدامِ شعبٍ ضعيف، ذلك بأنّ ضعفه يُمكّنها على الدّوام من السّيطرة عليه. لقد اضطلعت اليونان بهذه المهمّة.

وبعد، أرسل الأتراك سلسلة من البرقيّات إلى لندن في محاولة للتهرّب من المصير الذي خُطَّ لهم. لم يُكلِّف الوزير، الذي سيُعاني لاحقًا وطأة تعليقاتهم السّاخرة لمدّة ثلاثة أشهر متتالية، نفسه عناء قَبُول تلقّي هذه البرقيّات.

على مرّ التّاريخ لم يُلفَ شعبٌ قريبًا من نهايته مثلما ألفى الشّعب التّركيّ نفسه. وعليه، احتلّ اليونانيّون، الذين استعانوا بمدافع بريطانيا وذهبها، إزمير، وجزءًا من تركيا، بانتظار ساعة الحسم، أي الانطلاق نحو احتلال القسطنطينيّة (إسطنبول).

بدا المسلمون، الذين لجؤوا إلى المناطق الجبليّة القريبة من أنقرة، في وضعيّة يائسة للغاية.

مع ذلك، لم تبقَ الحال على ما هي عليه. ذلك بأنّ موهبة أحد القادة العسكريّين كانت كفيلة بقلب الوضعيّة رأسًا على عقب. لقد سار جيشٌ تُعوزه الذّخيرة الكافية، وتَعداده أقلّ بكثير من تعداد جيش العدوّ، سار إلى إزمير، وهزم اليونانيّين شرّ هزيمة، وطردهم من كلّ الأراضي العثمانيّة.

الحقّ أنّ القليل من الانتصارات يُمكن أن تحمل بين طيّاتها تبعات مذهلة. بالنّسبة إلى المسلمين، لم يكنِ اليونانيّون هم الذين هُزموا بل إنجلترا ومعها جزء من أوروبا.

وعليه، قَدِمَ مندوبو أنقرة إلى لوزان من أجل توقيع معاهدة السّلام، وهم يعلمون جيّدًا أنّه ما من بلدٍ يجرؤ على إرسال جيوشه لمحاربة تركيا، لذا تكلّموا بلغة المنتصر الواثِق، وأجبروا المفاوضين على قَبُول مطالبهم كافّة التي بدا تحقيقها محالًا: الإخلاء الكامل للقسطنطينيّة من قِبَل الإنجليز، والعدول عن كلّ شروط الإذعان، إلخ.

كان لمناقشات لوزان وقعٌ عظيم في العالم الإسلاميّ. في هذا السّياق، كتب رئيس الحكومة الإنجليزيّة السّابق السيّد لويد جورج وبحقّ:

«هذا السّلام هو أكثرُ سلامٍ مهين وقّعته إنجلترا. لقد استعاد الأتراك من جديد كلّ ما انتزعه منهم البريطانيّون على امتداد أربع سنوات من الحرب. إنّها وصمة عار لا تُمحى من سجل السياسة الخارجيّة للحكومة البريطانيّة».

عبّرت الصّحف الإيطاليّة، بدورها، عن الرأي نفسه بخصوص سلام لوزان. كتبت صحيفة Idea Nazionale:

«استسلمت كلّ قوى الغرب، بشكل أو بآخر، لتركيا.

ارتكبت أوروبا ـ وتحديدًا إنجلترا التي مثّلت أوروبا والغرب ـ خطأً جسيمًا عندما قبلت الكارثة اليونانيّة، وعدّتها هزيمة لحقت بها أيضًا. لقد مَحَت انتصارها العالميّ الكبير أمام انتصار محليّ صغير حقّقه الأتراك، وسمحت للكماليّين(45) أن يُملوا عليها شروط «الميثاق

الوطنيّ» التي خُطّت في أنقرة. لقد انتقلت مباشرة من المبالغة الواضحة في معاهدة سيفر التي أبعدت تركيا إلى جبال الأناضول، إلى العار الذي تجسّد بوضوح في معاهدة لوزان».

حقيقة الأمر أنّ النّصر الذي حدّد هذا التحوّل الفجائيّ في مسار القدر سيُسْتَشهَد به، في كثير من الأحيان، ضدّ آراء الاقتصاديّين، مؤكّدًا أنّ الحروب في عصرنا هذا لا طائل منها، ذلك بأنّها تُدمِّر المنتصِر كما المهزوم.

غالبًا ما يجري الأمر على هذا النّحو، لكن ليس دائمًا. هنا نتساءل: أين كان الأتراك ليكونوا اليوم لولا انتصار أزمير؟ وإذا كانت اليابان تُعامَل اليوم على أنّها مساوية للقوى العظمى، من بعد أن احتقرتها أوروبا لسنوات طوال، فألا يعود ذلك إلى أنّها دمّرت في بضع ساعات الأسطول الروسيّ في توتشيما Toutshima وأجبرت الإمبراطوريّة الكبرى في العالَم على توقيع سلام مذلّ؟

في الأزمنة الحديثة كما في الأزمنة القديمة، يبقى النّصر هو المقياس الحاسم لقوّة أيّ شعب من الشّعوب.

إلى ذلك، يُمكننا أن نُصنِّف الحرب الأخيرة من بين الحروب الحتميّة، أو شبه الحتميّة. فهي تُمثِّل الجهد الذي بذلته ألمانيا من أجل الاستئثار بالهيمنة التي نافستها عليها إنجلترا.

لقد نسيَ بعض رجال الدّولة تمامًا الأصل الحقيقيّ لهذا الصّراع عندما أكّدوا أنّ إنجلترا ستدخل الحرب فقط لكي تدعم فرنسا، ناهيك بكونهم يلومونها على نكران الجميل.

في هذا السّياق، عبّر لويد جورج بوضوح عن رأي إنجلترا بخصوص هذه النّقطة عندما قال:

«أين كانت فرنسا لتكون لو لم تقدّم بريطانيا العظمى تضحيات كبرى في المال والرّجال؟ الواقع أنّها كانت لتوجد في الوضعيّة التي تُلفى عليها ألمانيا حاليًّا».

هل بمقدور كاتب هذه المقولة أن يؤكّد بشكل قاطع أنّ ألمانيا ما كانت لتنقضّ على إنجلترا لو نجحت في سحق فرنسا، على اعتبار أنّ انجلترا تُشكّل خطرًا أكبر عليها؟

بهذا المعنى، لحظتِ التّأمّلاتُ الآتية التي خطّها الإمبراطور غيّوم الثّاني مشاعرَ ألمانيا الحقيقيّة تجاه إنجلترا:

«حلمتُ بمصالحة مع فرنسا. أردتُ أن أُكوِّن معها، من أجل المصلحة العامّة، كتلةً قاريّة قويّة للغاية، كتلة قادرة على وضع حدّ لطموحات إنجلترا، التي تبحث عن استباحة العالم بأسره من أجل مصلحتها».

إلى ذلك، يعلم السيّد لويد جورج جيّدًا أنّ رجال الدّولة المؤثّرين، في لحظة الحرب، (بالمناسبة هو الأنشط من بينهم) يُريدون أن تبقى إنجلترا محايدة. والحال أنّ إنجلترا ما كانت لتنخرط في الصّراع لو لم تَجْتَح ألمانيا بلجيكا، وتُهدّد مباشرة مصالح إنجلترا من خلال تَوَجُّهها نحو أنتويرب.

بدا هذا الوزير، والكثير من مواطنيه، مقتنعين بأنّ إنجلترا هي التي أتت لمساعدة فرنسا. عندما سيغدو محالًا علينا، بعد عدد غير مُحدَّد من السّنوات، أن ندرس بحياديّة ونزاهة أصول الحرب الكبرى، سيعترف المؤرّخون، من دون أدنى شكّ، وبمعزل عن المظاهر، بأنّ فرنسا هي التي أتت لمساعدة إنجلترا. وسيُنظَر أيضًا إلى الحرب الأوروبيّة على أنّها صراعٌ من أجل الهيمنة بين ألمانيا وإنجلترا. وإذا كانت فرنسا وبلجيكا وغيرهما من الدّول قد تورّطت معهما، فذلك ببساطة لأنّها ألفت نفسها أمام متنافسَيْن عملاقَين يتطلّعان إلى السّيطرة التّجاريّة على العالَم.

لنتفحّص نتائج الحرب فحسب. الواقع أنّنا سنجد، بما لا يدع مجالًا للشكّ، أنّه بفضل فرنسا انتصرت إنجلترا على منافس كانت تشعر بتعاظم تهديده يومًا بعد يوم. وبفضل فرنسا أيضًا، ورثت إنجلترا السّيطرة الألمانيّة ونجحت في أن تؤسّس لنفسها إمبراطوريّة شاسعة تتخطّى كلّ ما يُمكن لإنجلترا أن تحلم به، وفق ما صرّح اللورد Cuezon في البرلمان.

ينبغي أن يُضاف إلى لائحة الحروب شبه الحتميّة، مستقبل الصّراع بين اليابان والولايات المتّحدة، ذلك بأنّه سيكون تَبِعة من تَبِعات رفض أميركا استقبال فائض السكّان اليابانيّين الذين ستعجز اليابان عن إطعامهم قريبًا. سوف تُتاح لنا فرصة العودة إلى هذه النّقطة، ودراسات تبعات النموّ السكّانيّ المتسارع.

# الفصل الثّالث: الحروب النّاجمة عن فائض السكّان

لا يوجد شعبٌ مقتنِعٌ بقوّة القوانين مثل الشّعوب اللاتينيّة. علاوة على ذلك، قلّة هي الشّعوب اللاتينيّة التي لا تحترم هذه القوانين.

وبعد، راكم اللاتينيّون القوانين بلا توقّف لأنّهم كانوا مقتنعين بالسّلطة التي تمتلكها. على المقلب الآخر، لم يُكِنُّوا احترامًا للقوانين التي تُظهر لهم التّجربةُ ضعفَها.

وعليه، سَرعان ما كان يجري استبدال قوانين جديدة تنطوي على التطلّعات نفسه، بالقوانين التي أثبتت عدم فعاليّتها. إلى ذلك، يظلّ برلمانيّونا آلاتٍ تسنّ القوانين وصولًا إلى اليوم الذي نكتشف فيه أنّ القوانين المفيدة تُوَلِّدها الضّرورات والعادات، لذا لا يُمكن أن تكون (أي القوانين) سابقة عليها.

بهذا المعنى، إذا لم تملك القوانين سوى سلطة بنائيّة ضعيفة للغاية، وإذا ظلّت عاجزة عن إصلاح المجتمعات وتجديدها ـ خلافًا لقناعات بعض الأحزاب السّياسيّة ـ فبإمكانها أن تمارس فعلًا تهديميًّا كبيرًا للغاية. على سبيل المثال، قانون الثّماني ساعات المتعلِّق بالأسطول البحريّ الذي جعل تجارتنا الخارجيّة عاجزة عن التصدّي للمنافسة الخارجيّة، والحقّ أنّها كانت لتتدمَّر تمامًا لو لم يتمّ إبطال هذا القانون. قل كذلك عن القوانين المتعلّقة بالإيجارات التي شلّت حركة بناء مساكن جديدة، وفاقمت الأزمة الّتي ادّعت المراسيم أنّها عالجتها. عِلاوة على ذلك، تسبّبت القوانين التي اقترحها الاشتراكيّون ضدّ النّظام الرأسمالي، والمـُلكيّة الفرديّة، والصّناعة، تسبّبت في فرار رؤوس الأموال إلى الخارج،

وأفضت إلى تَرَاجُع ملحوظ في قيمة عملتنا الوطنيّة، في مقابل ارتفاع ملحوظ في أسعار المـَعيشة.

إلى ذلك، سوف تُزوّدنا مسألة الولادات، التي تسحر اليوم ألباب بعض الفرنسيّين، بمثال جديد على الأوهام المتعلّقة بالقدرة التي تُعزى إلى القوانين.

يعرف الجميع أنّ عددَ السكّان الفرنسيّين ثابتٌ إلى حدّ ما. بيد أنّنا كَوَّنا مكتبة تنطوي على مجموعة من الخطابات، ونصوص المؤتمرات، والتّنظيمات المتعلّقة بزيادة هذا العدد.

انصبّت اقتراحات الإصلاحيّين، في الغالب، على فرض ضرائب على العازبين لصالح كثير من العائلات. لكنّ الاقتراح النموذجيّ هو ذاك الذي صدر عن أكاديميّة إميل بيكارد Emile Picard، ذلك بأنّ تأمّلاتها الطويلة أفضت بها إلى اقتراح فرض ضريبة خاصّة على مصاريف الأفراد الذين لا يملكون ثلاثة أولاد لصالح العائلات التي تملك ثلاثة أطفال فأكثر.

تُثبت السّذاجة الغريبة التي تنطوي عليها مفاهيم كهذه إلى أيِّ حدٍّ تبقى مسألة الولادات غير مفهومة.

بالنّظر إلى الأسباب العميقة لتغيّر نسب الولادات، يُمكننا القول، على وجه اليقين، إنّ القوانين والخطابات التي صِيغَت منذ خمسة وعشرين عامًا لم تُفضِ على الإطلاق إلى زيادة نسبة الولادات.

ينبغي لنا أن نُهنّئَ أنفسنا على هذا الإخفاق. بعبارة أوضح، انتهى علماء الاقتصاد، عندما درسوا هذه المسألة من كثب، إلى نتيجة مفادها أنّ غالبيّة دول أوروبا تُعاني من فائض سكّانيّ. وعليه، لاحظ أكثر هؤلاء العلماء تميّزًا السيّد M. Keyens، وبحقّ، ما يلي:

«عانت أوروبا، قبل اندلاع الحرب، من فائض سكّاني، وبات الحصول على وسائل العيش أمرًا بالغ الصّعوبة، لا سيّما أنّ الموارد راحت تتناقص شيئًا فشيئًا في العالَم الجديد. اليوم،

تناقصت قدرة الشّعوب على الإنتاج كثيرًا، إلى حدّ يُمكننا القول معه إنّ أوروبا بأسرها تعاني من فائض سكّانيّ، ولن يكون بمقدورها قريبًا أن تؤمّن لهم الطّعام».

إلى ذلك، ألفت شعوبٌ أوروبيّةٌ كثيرةٌ نفسَها محرجةً من جرّاء التزايد السكّانيّ. فهناك مئة وخمسون ألف عاطل عن العمل في إنجلترا، ومليون وسبعمئة ألف في ألمانيا. علاوة على ذلك، لن تتوصّل إيطاليا، التي يزداد عدد سكّانها بمعدّل نصف مليون في السّنة الواحدة، إلى آليّة تُمكنّها من إفراغِ فائضِ سكّانها.

أضف إلى ذلك أنّ الصّعوبة ستزداد أكثر فأكثر، لأنّ الدول الأجنبيّة تُقفل حدودها يومًا بعد يوم. في هذا السّياق، قَلَّصت الولايات المتّحدة بالفعل عدد المهاجرين إليها، وحصرته بأربعمئة ألف مهاجر في العام الواحد. وها هي جمهوريّات أمريكا الجنوبيّة تتّحد كي تمنع الهجرة.

وبعد، تخال أمم كثيرة أنّ فائض سكّانها يَمْنحها الحقّ في السيطرة على المستعمرات كي تفرغ هذا الفائض. في هذا السّياق، نشرت الصحيفة الإنجليزيّة المرموقة (Observer) بتاريخ 12 كانون الأوّل 1926، التأمّلات الصّحيحة الآتية:

«لا يحقّ لأيّ بلد أن يستولِيَ على الأراضي التّابعة للآخرين لمجرّد أنّ لديه فائضًا في السكّان. من وجهة نظر فلسفيّة، فإنّ الطّرح الذي ينصّ على وضع حدّ للولادات المرتفعة هو أكثر فعاليّة من الطّرح الذي يؤيّد عمليّات الضمّ الإجباريّة في حال وجود عرق يميل إلى إنتاج فائض بيولوجيّ. نحن نعيش في عصر تتناقص فيه قيمة العدد تدريجيًّا».

الحقّ أنّ صحّة هذا التأمّل الأخير لا تزال موضع شكّ كبير. من الممكن أن تتناقص قيمة العدد تدريجيًّا، لكنّ الواقع يُشير إلى تزايد قيمته أكثر فأكثر.

حقيقة الأمر أنّ الآسيويّين هم ضحايا نسبة ولادات مرتفعة للغاية. فاليابان التي كان يبلغ تعداد سكّانها منذ نصف قرن حوالي ثلاثة وثلاثين مليون نسمة، يبلغ تعداد سكّانها اليوم

حوالي ستّين مليونًا، ولا تعرف فعليًّا أين ستضع هذا الفائض، لذا تُريد إجبار الولايات المتّحدة على استقبالهم، لكنّ الأخيرة تصرّ على الرّفض.

والحال أنّ الشّعوب الشّرقيّة بأكملها تتكاثر بالسّرعة المخيفة نفسها، من دون أن تُقيم أيّ اعتبار لضرورة الحدّ من الإنجاب. فالهند شديدة الاكتظاظ بالسّكّان، وسوف تكتظّ أكثر، ذلك بأنّ المجاعات التي أودَت بحياة ملايين النّاس، مثل مجاعة أوريسا Orissa الشّهيرة، لم تُقلِّص عدد السكّان إلى عدد يتناسب مع وسائل عيشهم المتاحة.

عانت روسيا، بدورها، من زيادة مماثلة: من 65 مليون نسمة في العام 1850، إلى 170 مليون نسمة اليوم. وعليه، تُعلّمنا دروس التّاريخ أنّه حالما يتخطّى أيّ شعب الإمكانات التي يُتيحها له وجوده، ينبغي له أن يُهاجر أو أن يجتاح جيرانه عسكريًّا. الواقع أنّ هذا النّوع من الهجرة هو الذي دمّر الحضارة الرومانيّة في بلاد الغال.

يُظهر الاستدلال والملاحظة بسهولة أنّ المشَرِّعين هم أضعف من أن يُغيّروا عن طريق المراسيم الضّرورات الاقتصاديّة والسيكولوجيّة التي تُحدِّد حركة شعبٍ من الشّعوب. كلّ ما يُمكن الحصول عليه هو التوصّل، عن طريق اتّباع معايير صحيّة مناسبة، إلى تقليص عدد الوفيّات، تمامًا كما حصل في ألمانيا. الحقّ أنّ نسبة وفَيَات حديثي الولادة في فرنسا هي ضِعف نسبة وفَيَات حديثي الولادة في ألمانيا.

إلى ذلك، يُزوّدنا التّاريخ بأمثلة كثيرة على ضعف تأثير القوانين في حركة الشّعوب. لعلّ أبرز مثال هو مثال الإمبراطور أغسطس(46) الذي غدا سيّد العالَم. تخيّل هذا الإمبراطور نفسه قويًّا بما يكفي لكي يعالج مسألة انخفاض عدد السكّان الرومان وذلك باتّخاذ تدابيرَ حاسمة. الواقع أنّ هذا العدد تناقص من جرّاء المجازر التي تسبّبت فيها الحروب الأهليّة، والتي أفضت في نهاية المطاف إلى تدمير الجمهوريّة، ومجيء الدِّكْتاتوريين.

شُيِّدَتِ الإمبراطوريّة، في الواقع، على أنقاض الجثث. لم يكن اشتراكيّو تلك الحقبة، الذين لا يختلفون عن الاشتراكيّين المعاصرين، أكثر ليونةً من هؤلاء الأخيرين. الحقّ أنّ خمسين

عامًا من الاقتتال الدّاخليّ كانت كفيلة بتقليص عدد السكّان الرّومان. الواقع أنّ سولا(47) sylla وحده ذبح أكثر من خمسة وعشرين ألف مواطن. قل كذلك عن ماريوس(48) Marius، زعيم الحزب الشّعبيّ، الذي لم يتوانَ عن قتل آلاف المواطنين البارزين في روما، ومئتي عضو مجلس شيوخ، وثلاثة آلاف فارس.

أدرك يوليوس قيصر مَخاطِر تناقص عدد السكّان، لذا سعى إلى زيادة عدد المواطنين عن طريق إصدار مراسيم آمرة. فقانون جوليا Julia، على سبيل المثال، فرض عقوبات قاسية على العازبين، وأغدق هبات كثيرة على المتزوّجين وعلى الآباء.

بيد أنّ النّتائج المتحصَّل عليها كانت معدومة. استمرّت روما شبه خالية من الرّومان، ومأهولة جدًّا بالأجانب. وذلكم ما شكّل سببًا رئيسًا من أسباب انحطاطها.

حقيقة الأمر أنّ ميل الطّبيعة الأساسيّ يكمن في توليد عدد لا متناهٍ من الكائنات لا تستطيع إلى إطعامها سبيلًا. مارست هذه الخصوبة، التي لعبت دورًا كبيرًا في تطوّر الكائنات في العصور الجيولوجيّة، تأثيرًا هامًّا أيضًا في تاريخ الشّعوب.

لقد غدت هذه الشّعوب كثيرة للغاية، إلى حدّ أنّها عادت لا تجد على أرضها أبسط مقوِّمات العيش والبقاء، لذا راحت تبحث عنها في الخارج. وتاريخ مختلِف الدّول هو تاريخ غزوات نُفِّذت أو في طور التّنفيذ.

وبعد، عندما تكثر هذه الغزوات، لا يعود بمقدور الشّعوب المغزوَّة أن تصمد طويلًا. على الرّغم من فائض قوّتها، عانت الحضارة الرومانيّة وطأةَ غزاة كثيرين لا يمتلكون سوى المقوّمات الأساسيّة للحضارة فحسب. قل كذلك عن الآشوريّين والبابليّين الذين عرفوا قَدَرًا مُشابهًا.

حقيقة الأمر أنّ خصوبة أيّ شعبٍ من الشّعوب تُشكّل مصدر تهديد لجيرانه. لم تكن ألمانيا مأهولة كثيرًا بالسكّان، في لحظة اندلاع الحرب، لكنّها ستُصبِح كذلك قريبًا. هذا الفائض

السكّاني، الذي بات قريبًا، نَظَّر له كتّابهم بهدف تقديم المشورة في ما يتعلّق بغزو الأمم المجاورة لألمانيا. لكنّ كلّ الشّعوب، التي هدّدتها ألمانيا، توحّدت كي تُقارع العددَ بالعدد. والحال أنّ الأمر سيكون هو عينه في المستقبل، ولذلك ستتردّد ألمانيا طويلًا قبل أن تُقدِم على أيّ غزو.

يعود إخفاقُ قوانينِ أغسطس قيصر، ومقلّديه الحديثين، إلى هذا المبدأ الأساسيّ، الذي يجهله الإصلاحيّون حتمًا، وأعني أنّ حركة الشّعب تتأتّى عن ضرورات تتفوّق على إرادة المشرِّعين.

بشكل عام، يُمكننا القول إنّ الولادات تتناقص عندما تُصبح تربيةُ الطّفلِ مُكلِفةً جدًّا، كما هي الحال لدى الطبقة البرجوازيّة. بيد أنّ نسبة الولادات ترتفع لدى الفلّاحين، حيث يُشكّل الطّفل حاجةً ومنفعةً. في السياق نفسه، يُلحظ أنّ عدد المواليد يتناقص لدى الطبقات العاملة في الوقت نفسه الذي تكثر فيه الزّيجات، لأنّ المرأة منتجة، وغالبًا ما يبدو الطّفل بالنّسبة إليهم عارضًا مُزعجًا ومُكلفًا.

بعيدًا من الأسباب الخاصّة التي تؤدّي إلى اختلاف معدّل الولادات لدى مختلف الطّبقات الاجتماعيّة، يُمكننا القول إنّ الوضعيّة الاقتصاديّة الرّاهنة في العالَم تستوجب وضع حدّ لتزايد عدد السكّان. الحقّ أنّ الإفراط في الإنتاج بات ظاهرة عامّة، وهذا ما يترتّب عليه تبعة حتميّة، وأعني زيادة في نسبة العاطلين عن العمل.

نحن نعلم أنّ إنجلترا تحصل من الخارج على كلّ حاجتها من الغذاء بفضل بضائعها. لكن منذ اندلاع الحرب عُدتَ لا تجد عددًا كافيًا من المشترين، لذا قامت بتقليص صناعاتها، وعانت من بِطالة شديدة.

وعليه، لكي تعود بريطانيا العظمى إلى ثرائها القديم، ينبغي لعدد سكّانها أن ينخفض بشكل ملحوظ.

في ظلّ التطوّر الرّاهن للعالَم، يُمكن القول إنّ الدّول التي لا يُمكن لأراضيها أن تُطعم سكّانها ستكون حتمًا الدّول الأقلّ ازدهارًا.

لا يُهدّد هذا المصيرُ فرنسا، إذ إنّ أرضها تنتج تقريبًا كلّ ما يحتاج إليه سكّانها من وسائل عيشها، وبمقدورها أن تنتج كلّ حاجتها إذا أدخلنا إلى زراعتنا التّحسينات عينها التي أدخلتها ألمانيا إلى زراعتها.

الحقّ أنّ مصيرَ الشّعوبِ، التي تتكاثر بسرعة، مصيرٌ محفوفٌ بالمخاطر.

في عمل صدر حديثًا، يذكر الأميرال رودجر Rodger، قائد الجناح الآسيويّ السّابق للولايات المتّحدة، أنّه «عندما بلغ التّعداد السكّانيّ الأمريكيّ مئتي مليون نسمة، أُجبِرت بلاده على التورّط في حروب عنيفة، لكي تمنح مواطنيها أراضي جديدة». يتعلّق الأمر هنا بتطبيق قانون مالتوس القديم الذي أثبت التّاريخ صحّته، على الرّغم من الجدل الكثير الذي أُثير حوله.

خلاصة لما تقدّم، يُمكننا القول إنّه على الرّغم من انتحاب الإنسانويّين، فإنّ بقاءَ عدد سكّان فرنسا ثابتًا أمرٌ لا يستحقّ النّدم. فهي تمتلك عددًا كافيًا تقريبًا من السكّان، ولا ينقصها سوى القليل بعد لكي تتفادى غزو العمّال الأجانب.

لقد دعمتُ هذه الأطاريح منذ أكثر من خمسٍ وعشرين سنة. الحقّ أنّها بدت أطاريح متناقضة آنذاك، لكنّ الحوادث أظهرت صوابها.

إلى ذلك، توصّل كثير من علماء الاقتصاد إلى الخلاصة نفسها. لذا أعتقد أنّ لديَّ مبررًا لكي أُردِّدَ مع واحد منهم:

«من بين كلّ المخاطر التي تُهدِّد الإنسانيّة المتمدِّنة، يبرز خطر التزايد السكّانيّ بوصفه خطرًا وشيكًا داهمًا. لذلك لا نغالي إذا قلنا إنّ المسألة العالميّة، والحروب المستقبليّة

الممكنة، ونزع السّلاح الذي طالما حلم به كثيرون، مسائل تتعلّق جميعًا بشكل مباشر بهذا الخطر».

# الفصل الرّابع: الصّراعات مع الإسلام

لعبت صراعات أوروبا مع الإسلام دورًا كبيرًا في التّاريخ. فالمسلمون سيطروا طويلًا على إسبانيا، وشمال إفريقيا، ومصر، وبلاد فارس، وجزء من الهند. من أجل مواجهة قوّتهم شنّ العالم الأوروبيّ حروبًا صليبيّة كثيرة ضدّهم.

اليوم تقلّصت سلطة الإسلام السّياسيّة لتقتصر على بعض الجزر والبقاع مثل تركيا والمغرب، لكنّ تأثيرها في النّفوس اتّسع ليصل إلى أقاصي الصّين.

نحن نعلم الدّور السّلبيّ الذي لعبته تركيا في الحرب الأخيرة، ونحن نعلم أيضًا أنّ الانتفاضة المغربيّة(49) كلّفت فرنسا وإسبانيا عدّة ملايين.

وبعد، تطلّبَ كبحُ جماحِ أحد قادة الانتفاضة، عبد الكريم الخطابيّ، جيشًا كبيرًا يقوده مارشال شهير.

لقد أُلقيَ القبضُ على القائد المسلم، لكنّ إحلال السّلام والتّهدئة التامّة في المغرب يحتاجان إلى المزيد من الوقت.

عُرِفَت أفكار عبد الكريم لأنّه عرضها في أكثر من مقابلة، وتحديدًا في مقابلته التي أعادت الصّحيفة الإيطاليّة El Popolo نشرها.

لقد عزا هذه الحرب إلى أصل دينيّ، وأكّد أنّ الإسبان عزموا على تنفيذ جزء من وصيّة إيزابيلا الكاثوليكيّة،(50) الوصيّة التي يبلغ عمرها خمسمئة عام، وتنصّ على ضرورة تدمير الإسلام.

يُمكننا أن نُحدِّد أفكار عبد الكريم الخطابيّ، من خلال توجيهاته المستقاة من مختلف المقابلات، وانطلاقًا من معرفتنا بالذّهنيّة الإسلاميّة. إليكم هذا المخطّط الأوّليّ الذي رسمه:

«الحقّ أنّ وضعيّتي مميّزة للغاية: لقد دمّرتُ، منذ سنوات قليلة خلت، جيشًا إسبانيًّا مؤلَّفًا من مئة ألف رجل، ومُدَجَّجًا بأسلحته الثّقيلة، وأجبرتُ ملك إسبانيا على أن يدفع لي فدية قدرها أربعة ملايين بيزيتا(51) كي يستعيد أسراه. ختامًا، عدلت إسبانيا عن احتلال المغرب.

وما لبثتُ أنِ انقلبتُ ضدّ الفرنسيّين، وما زلتُ آمل أن أنتصر عليهم بالسّهولة نفسها التي انتصرتُ فيها على الإسبان. حقيقة الأمر أنّ الفرنسيّين انتصروا عليَّ، لكنّهم لم ينجحوا في ذلك إلّا بعد أن أرسلوا لمواجهتي جيشًا كبيرًا تقوده نخبة من القادة العسكريّين.

لقد أظهر العدوّ إلى أيّ حدّ يخشى منّي، إذ جرت الإطاحة بحكومته بعد أن رفض البرلمان إرسال مبعوثين إليّ من أجل التّفاوض على إرساء السّلام.

إذا كنتُ قد غدوتُ شخصيّة مشهورة تأتي كلّ صحف العالَم على ذكر أفعالها، فذلك لأنّني أُمثّل قوّة المسلمين، هذه القوّة التي باتت تُخشى كثيرًا مذ نجح قائد مسلم آخر في إزمير بإلحاق الهزيمة بجيش يونانيّ مدعوم من الحكومة البريطانيّة.

أنا أُمثّل الإسلام، الذي بات اليوم من دون قائد، لا سيّما بعد طرد أمير المؤمنين من القسطنطينيّة بشكل غير لائق.

في الحقيقة، ألستُ أحدَ ورثة الإمبراطوريّة الإسلاميّة الكبرى التي امتدّت قديمًا من إسبانيا إلى الهند؟ احتلّ أسلافي الجزء الأكبر من الأراضي الإسبانيّة لقرون طويلة، وأدخلوا المدنيّة إليها،كما أدخلوها إلى باقي أوروبا. ألم يأتِ كلّ طلّاب أوروبا، التي كانت آنذاك نصف بربريّة، إلى الجامعات الإسلاميّة الكبرى في إسبانيا لكي يتعلّموا، ويبحثوا في كتبنا عن معارف الحضارة اليونانيّة ـ الرومانيّة التي كُنّا نمثّلها وحدنا مع بيزنطة؟

من دون شكّ، لقد ولّت هذه الأزمنة. لكنّ عَلَم الإيمان الإسلاميّ، الذي تخلّى عنه المنتصرون في إزمير، والذين نسَوا أنّه ليس بمقدور أيّ شعب أن يتخلّى عن آلهته من دون أن يُعَرّض للعقاب، يجب أن يحملَه أحد. يحتاج مئتان وخمسون مليون مسلم متفرّقين حول العالَم إلى قائد روحيّ. فلماذا لا أكون هذا القائد؟ صحيح أنّني مسجون، لكنْ ربّما لم يتّضح مصيري بشكل نهائيّ بعد».

يحظى الصّراع المغربيّ بأهمّيّة كبرى عندما نُقاربه من زاوية الحوادث الأخيرة التي كانت تركيا ولمّا تزل هي مقرّها.

لا يُشكّل المدفعُ، كما يُقال، آخر حجّة الملوك فحسب، بل يُشكِّل كذلك الحجّة الأخيرة للمُثُل التي تبحث عن الانتصار.

يتجاوز الشّرق الإسلاميّ اليوم حقبة من أندر الحقب التي تتنازل فيها الشّعوب عن الآلهة التي تعبدها لكي تختار آلهة أخرى.

نحن نعرف التأثير الضّخم الذي مارسه الدّين الإسلاميّ في سجلات التّاريخ. لقد عرف كيف يُعطي بَدْوًا يجهلهم التّاريخ مجموعة من الأفكار والمشاعر التي سمحت لهم، في غضون سنوات قليلة، بغزو جزء من الإمبراطوريّة الرومانيّة، وتأسيس مملكة تمتدّ من إسبانيا إلى ضفاف نهر الغانج.

بعد سلسلة من الحوادث المتنوّعة التي قادت، بعد فترة طويلة، الأتراك إلى غزو القسطنطينيّة، أصبحت هذه المدينة مركز الإسلام. والحال أنّ الكلمة المقدّسة لأمير المؤمنين ظلّت مسموعة من المغرب إلى الهند.

استمرّ الدّين الإسلاميّ يُوحِّد فكر الأعراق الأكثر اختلافًا. فباسم هذا الإيمان القويّ شكّل خمسون مليون مسلم في الهند كتلة ضخمة مثّلت تهديدًا وخطرًا على إنجلترا، وباسم

الإيمان الإسلاميّ أيضًا أمكن لقائد مغربيّ أن يُجيّش قبائله ضدّ المسيحيّين الذين كانوا يُعتبرون أعداء لمعتقد تلك القبائل.

لكن ها هم وَرَثة الإمبراطوريّة العثمانيّة القديمة يتخلّون، في تركيا، عن القوى الدّينيّة التي تُوَحِّد نفوسهم، وأحلّوا محلّها قوميّة غريبة عن كلّ ديانة، قوميّة لا تأخذ بالحسبان سوى مصالح كلّ شعب.

بعد طرد أمير المؤمنين من القسطنطينية، خال مؤسّسو الجمهوريّة الحديثة ـ التي أُسِّست في أنقرة ـ أنّهم يستطيعون استبدال المبادئ الديمقراطيّة الأوروبيّة بالمثال الإسلاميّ القديم. وعليه، أفضت السياسة الجديدة، التي اعتُمِدت حصرًا في تركيا، إلى التّنازل عن كلّ تضامن دينيّ، ولذلك تخلّى البرلمان التركيّ، إبّان الصّراعات بين مصر وإنجلترا، عن مفهوم الأخوّة بين المسلمين.

هل كان جمهوريّو أنقرة على حقّ عندما اعتقدوا أنّ السّياسة المؤسَّسة على القوميّة أقوى من السّياسة المؤسَّسة على المناصرة الدّينيّة للإسلام؟ بإمكان التّجربة وحدها أن تُجيب عن هذه المسألة.

حقيقة الأمر أنّ الأتراك سلكوا طريقًا مغايرًا منذ أن عمدوا إلى تغيير المثال، أي مذ استبدلوا فكرة الوطن المحليّ المستنِد إلى مجتمع العرق، بفكرة الوطن العام المستند إلى مجتمع المعتقَد. سوف تفوز أوروبا المتمدِّنة حتمًا، لكن من المشكوك فيه أن تربح الدّول الشّرقيّة أيّ شيء، إذ لو امتدّت مبادئ أنقرة لتشمل العالم بأسره، فإنّ كلّ بلدٍ إسلامي سينكمش على نفسه.

امتدّت انتفاضة المغرب طويلًا لأنّ الاشتراكيّين وفّروا لها الحماية. لو أنصتت إليهم لَأَلْفينا تونس والجزائر تُهدّداننا سريعًا بحرب تهدف إلى طرد المسيحيّين. تُظهر حقيقة أنّ الاشتراكيّين لم يفطنوا إلى بداهات كهذه إلى أيّ حدّ يُمكن أن تُصبح الأفكار الواضحة عصيّة على أذهان أولئك الذين يسحرهم معتقَدٌ ما ويُنوّمهم مغناطيسيًّا.

مهما بلغ تطوّرُ الإسلام حول نقطة ما زالت محليّة للغاية، فإنّه يبقى على الدّوام قوّة كبيرة، من شأن تجاهل الأوروبيّين لها أن يُكلّفهم غاليًا. وعليه، تسبّبَ تجاهلُ وزيرٍ إنجليزيٍّ هذه القوّةَ في خسارة إنجلترا أملَ الاستيلاء نهائيًّا على القسطنطينيّة، وذلك بجعله اليونانيّين يُحاربون تركيا.

على الرّغم من أنّ المسلمين بعامّة، والأتراك بخاصّة، متفوّقون على الرّوس وعلى سائر الشّعوب البلقانيّة، إلّا أنّ الكثير من الكتّاب ينظرون إليهم على أنّهم جاهلون قليلًا بالسّياسة والتّاريخ، تمامًا كما هي حال الشّعوب نصف البربريّة المحرومة من الثّقافة. يُلخّص المقطع الآتي من المنشور الذي نشرته Etude Franco ـ Greque رأيَهم على نحوٍ وافٍ:

«بصرف النّظر عن كلّ ما يُمكننا أن نقوله، كان الإسلام وسوف يبقى دائمًا قوّة مدمِّرة كبيرة، فهو لا يعترف بأيّ علم آخر سوى المعرفة القرآنيّة. الإسلام عنيف، وغير متسامح. إنّه آفة من أكبر الآفات التي عرفها العالَم على مرّ التّاريخ».

بطبيعة الحال، لم يرَ كاتب هذه السّطور أيّ تحفةٍ من تُحف المسلمين الرائعة في إسبانيا، ومصر، والهند. أضف إلى ذلك أنّه يتجاهل الدّور الكبير الذي لعبته الجامعات الإسلاميّة في تكوين الحضارة الأوروبيّة.

مع ذلك، تُخَطُّ كتبٌ كثيرة بجهل كبير، ذلك بأنّها تهدف إلى خدمة السياسيّين المعاصرين. وعليه، لم يعرف رئيس الحكومة الإنجليزيّ أيّ كتابات أخرى عندما فكّر في طرد المسلمين من أوروبا.

من دون شكّ، خسر الأتراك أهم أجزاء إمبراطوريّتهم ـ في الأعمّ الأغلب لصالح إنجلترا ـ: بلغاريا، وسوريا، وبلاد ما بين النّهرين، وفلسطين، وقبرص، ومالطا، إلخ، لكنّهم عقدوا العزم اليوم على المحافظة على الأجزاء المتبقية.

أمّا الحكومة البلشفيّة، التي سعت جاهدة من أجل توسيع دعايتها في تركيا، فإنّها لم تحصد أيّ نجاح. الواقع أنّ نياتها المبيّتة تجاه المضائق والقسطنطينيّة، تتطابق تمامًا مع مطالب القياصرة القدامى، لذلك من البديهيّ أن تُثير هذه النيات مخاوفَ عميقة لدى الأتراك.

بإمكان فرنسا أن تستفيد من هذه الوضعيّة لكي تستأنف علاقاتها القديمة مع تركيا، لكنّ تأثير الاشتراكيّين يُعرقل كلّ سياستها الخارجيّة.

# الفصل الخامس: تهديدات الصّراعات الآسيويّة

في الوقت الذي كثرت فيه المؤتمرات والنّدوات في فرنسا، التي خُصِّصت لجعل السّلام أكثر استدامة، كانت هناك مخاطر تتعاظم في الشّرق، وهي مخاطر أكثر تهديدًا من الحروب الأوروبيّة.

يسكن كوكبنا الصّغير هذا، كما نعلم، 1700 مليون إنسان، يستغلّ 500 مليون إنسان أبيض منهم، منذ عصور خلت، 1200 مليون من ألوان مختلفة: سوداء، وصفراء، إلخ، وينظرون إليهم على أنّهم أعراق أدنى من عرقهم.

تُطالب هذه الشّعوب اليوم، التي عانت طويلًا من نصف عبوديّة، بطرد أسيادها القدامى. فالهند، ومستعمرات أخرى كثيرة، تُطالب بالاستقلال. ومصر التي شقّت طريقها إلى الهند عبر قناة السويس، طالبت بالاستقلال أيضًا. الصّين بدورها عادت لا ترغب في الخضوع للنفوذ الأجنبيّ.

الحقّ أنّ الهيمنة الأوروبيّة على الشّرق تزعزعت بفعل تفكّك التّضامن الأوروبيّ الذي كان يُحافظ على هذه الهيمنة. آسيا بدورها تعلم أنّ الدّول الأوروبيّة منقسمة بعمق، وغير قادرة

على التوحّد. أضف إلى ذلك، أنّها لا تتجاهل أبدًا أنّه ليس بمقدور البيض بعد أن يُرسلوا بعثات استكشافيّة دوليّة إلى الصّين، وخير شاهد على ذلك هي ثورة الملاكمين.(52)

علاوة على ذلك، أظهرتِ الهزيمةُ النّكراءُ، التي ألحقها اليابانيّون بالرّوس، للآسيويّين أنّ أوروبا يُمكن أن تُقهَر.

في الشّرق، كما في الغرب، تمتلك بعض الكلمات سحرًا إمبراطوريًّا. فشعارات مثل: «الهند للهنود، وإفريقيا للأفارقة» تستنهض الهمم والنّفوس، على الرّغم من أنّها لا تنطوي على أيّ إمكانيّة تحقّق. فما هي الحال التي ستكون عليها الهند، مثلًا، من دون السيطرة الإنجليزيّة؟ فما كانت عليه الهند في عصر إمبراطوريّة المغول عبارة عن مجموعة من الممالك المنفصلة بعمق عن طريق العرق، والدّين، واللغة، ممالك لا تملك صناعة، ولا تجارة، بل هي في حرب مستمرّة. نحن نعلم تمامًا المصير البائس الذي واجهته جمهوريّات الزّنوج: هايتي، وليبيريا، إلخ، عندما عصفت بها الحروب الاستعماريّة.

حقيقة الأمر أنّ الأوهام المتعلّقة بقدرة المؤسّسات الأوروبيّة التّحويليّة، التي يحلم الشّرقيّون بتبنّيها، هي عينها التي تُهدِّد، كما رأينا، بإفساد انتظام تركيا وإثارة الفوضى فيها، ناهيك بالدّول التي تخضع لقانون النبيّ محمّد.

إلى ذلك، سوف يغدو الستّون مليونَ مسلم، الذين يزعمون أنّهم قادرون على تحرير الهند من قبضة الهيمنة الإنجليزيّة، أقلّ خطورة إذا فقدوا إيمانهم. بعبارة أوضح، سوف تُصبح الكتلة الضّخمة، التي ما زالت متّحدة بفعل مجتمع المؤمنين، عبارة عن غبرة رجال لا أكثر ولا أقلّ.

علاوة على ذلك، سيكون الشّرقيّون معذورين إذا ارتكبوا الأخطاء التي وقع ضحيّتَها عدد كبير من الأوروبيّين، عندما نسوا أنّ المراحل السياسيّة لا يُمكن تجاوزها إلّا من خلال سلسلة متعاقبة من الخطوات، شأنها في ذلك شأن المراحل البيولوجيّة.

هذا التطوّر، أو بالأحرى هذه الثّورة في الشّرق، أقلقت إنجلترا على وجه الخصوص، التي أملت في أن تحتفظ بالسّيطرة التّجاريّة على العالَم الذي جرى غزوه في الحرب الأخيرة.

نحن نعلم أنّ بريطانيا العظمى ـ وهي بلد صناعيّ ـ أُجبِرَت على الحصول على المنتجات الضروريّة لطعامها من الخارج، في حين أمكن لفرنسا ـ وهي بلد زراعيّ ـ أن تعيش من منتجات أرضها. من الطبيعيّ إذًا أن تلعب المسائل الاستعماريّة، التي تُجُوهِلَت قليلًا في فرنسا، دورًا رئيسًا في إنجلترا.

من دون شكّ، تُشكِّل المستعمرات الإنجليزيّة بالنّسبة إليها (أي إلى إنجلترا)، كما قال Disraéli، وسيلة للاغتناء، لكنّها قبل كلّ شيء وسيلة حياة. وعليه، إذا انعزل الإنجليز عن بقيّة العالَم، فإنّهم سيهلكون سريعًا من الجوع في جزيرتهم.

وبعد، شدَّد السيّد ألبرت ساروت M. Albert Sarraut، في مؤتمر مهمّ للغاية، على التّهديد الكبير الذي يُمكن أن تُشكّله شعوب الشّرق، في أيّ حربٍ قادمة، على شعوب الغرب، من دون أن تعترض سبيل تهديداتها أيّ عوائق.

الواقع أنّ الحروب التي تُهدِّد آسيا بشنّها على أوروبا، والتي أذهلت بشدّة رجل الدّولة هذا، لن تمثّل التّهديدات الأكثر خطورة، ذلك بأنّ الصّراعات الاقتصاديّة قد تكون مميتة.

لم يسترعِ هذا الجانب الهام من المسألة اهتمامَ السيّد ساروت. لذا أراني مضطرًّا إلى تلخيص بضع صفحات كتبتها قديمًا في هذا الشّأن، في كتابي حول الهند، الذي نشرته بعد مهمّة كلّفتني بها الحكومة الفرنسيّة في آسيا.

حقيقة الأمر أنّ الصّراعات العسكريّة تتسبّب في مقتل عدد كبير من النّاس، لكنّ الصّراعات الاقتصاديّة، مثل تلك التي يُحَضَّر لها بين الشّرق والغرب، وإن كانت سلميّة في الظّاهر، إلّا أنّها ستُخلِّف خرابًا عظيمًا.

فبعد التطوّر الصّناعيّ الذي حوَّل العالَم اليوم، ينزع الشّرق إلى أن يُصبح الغازي التّجاريّ للغرب، على عكس ما حصل قديمًا، أي عندما غزا الغربُ الشّرقَ تجاريًّا.

الحقّ أنّ هذا النّوع من الغزوات سيكون أكثر رعبًا، مع العلم أنّها لن تصطحب معها رجالًا، ولا مدافع، أي كلّ ما يُمكن أن يجلب النّصر، بل ستكتفي بالقوى التي لا يُمكن إلحاق الهزيمة بها.

بعبارة أوضح، تنزع الشّعوب، في المرحلة الحاليّة التي يشهدها العالَم، إلى تغيير الأسلحة التي قاتلت من خلالها بعضها بعضًا. سوف تُقاتل، على الأرجح، منذ الآن فصاعدًا من خلال منتجاتها الصّناعيّة والزّراعيّة بالإضافة إلى مدافعها.

في صراعٍ كهذا، تكفّ الأفضليّة عن أن تكون لصالح الغرب. عِلاوة على ذلك، من نتائج التّقارب بين كلا العالمين تحت تأثير اكتشاف البخار والكهرباء، المعادلة العامّة بين قيمة المنتجات الصّناعيّة والزّراعيّة، ومن ثَمّ بين الأجور على سطح كوكبنا.

بطبيعة الحال، ستتحدّد قيمة متوسّط تلك الأجور من خلال متوسّطِ أجرِ يوم عمل واحد الذي يكفي الشّعوب التي ليست لديها احتياجات كثيرة، وذلكم ما يُمكّنها، من ثمّ، من أن تُنْتِج بأقلّ تكلفة ممكنة.

في ظلّ منافسة كهذه، سيُصبِح الشّرقيّون، الذين يُشكّلون غالبيّة العالَم، والذين هم أيضًا الأكثر رزانة من بين كلّ الشّعوب، سيُصبحون حتمًا مُنَظِّمي الأجور. أغلب الظنّ أنّ هذه الأجور سترتفع قليلًا، بيد أنّ أجور الأوروبيّين ستنخفض بشكل ملحوظ.

وبعد، سيُلفي أحفادنا أنفسهم في مواجهة مهمّة شاقّة إذا أرادوا أن يظلّوا في طليعة الإنسانيّة، وألّا يغرقوا سريعًا في الهوّة الأزليّة حيث تقود قوانينُ التطوّر النّاسَ والإمبراطوريّات والآلهة.

يُفسِّر العرض المقتضب السّابق كيف ستُصبح سريعًا مشكلات الشّرق أخطر من المسائل السياسيّة الهزيلة التي تشغلها اليوم. سوف تنجم إحدى أهم تلك المسائل من تنامي قدرة اليابان. يبدو أنّ هذه القوّة الجديدة ستُمارس في الشّرق هيمنة شبيهة بالهيمنة التي حلمت بها ألمانيا وإنجلترا في الغرب.

تحرّرت اليابان، الآن، من كلّ التأثيرات الأجنبيّة، لذا تراها تتعامل بِنِدِّيَّةٍ مع القوى الأوروبيّة العظمى. الحقّ أنّ أسطولها هو واحد من أهمّ الأساطيل في العالَم. إلى ذلك، أبدت الولايات المتّحدة قلقها من هذا البلد الصّغير، الذي بالكاد عرفته أوروبا منذ قرن، ومع ذلك يلعب اليوم دورًا كبيرًا. لقد ظلّ هذا الشّعب الصّغير محتقرًا وصولًا إلى اليوم الذي أجبر فيه الإمبراطوريّة الأكثر اتّساعًا على توقيع سلام مُذِلّ، وسط ذهول عالميّ.

علاوة على ذلك، يُمكن القول إنّ الإمبراطوريّة التي لا تغيب عنها الشّمس، باتت قادرة اليوم، بفضل تقدّمها المستمرّ، على الوقوف في وجه القوى العظمى، ناهيك بكونها تنزع إلى أن تُصبح سيّدة العالَم.

تكمن واحدة من قواها الرئيسة في التنامي السّريع لعدد سكّانها، في حين أنّ دولًا غربيّة أخرى تشهد انخفاضًا ملحوظًا في معدّل الولادات. في ما يتعلّق باليابان، يبلغ معدّل الولادات لديها مليون طفل سنويًّا. لقد ذكرنا سابقًا أنّ عدد سكّانها بلغ في العام 1870 ثلاثين مليونًا، أمّا اليوم فقد تخطّى ستّين مليونًا.

هذا التزايد السّريع في نسبة الولادات يُرغم اليابان حتمًا على البحث عن أراضٍ جديدة كي يُفرغ فائض سكّانه. من المحال احتواء هذا العدد في الصّين، فهي مأهولة جدًّا بالسكّان. لكن لا يُعوِز اليابان أن تجد مكانًا مناسبًا لفائض سكّانها في الولايات المتّحدة، وفي المستوطنات الإنجليزيّة: أستراليا، وكندا، إلخ. بيد أنّ الإنجليز والأمريكيّين لا يريدون بأيّ ثمن أن يقبلوا بغزو الصّور، ويمتلكون لهذه الغاية أسبابًا قويّة.

في الواقع، يؤيّد الإنجليز والأمريكيّون فكرة مفادها أنّه بمقدور الإنسان الأصفر، نتيجة رزانته، أن يعمل بأجر منخفض جدًّا قياسًا إلى الأجر الذي يتقاضاه البيض، ومن ثمّ، فهو قادر على أن يُنافِس العرق الأبيض منافسة كارثيّة. ولاحظوا، من ثمّ، أنّ اليابانيّين يتكاثرون بسرعة أكبر بكثير من العرق الأبيض. والحال أنّ الولايات المتّحدة وأستراليا ستغدوان في خلال سنوات قليلة مستعمرات يابانيّة حقيقيّة.

بإمكاننا أن نتصوّر إذًا أنّ الولايات المتّحدة ليست مستعدّة بأيّ حالٍ من الأحوال لاتّباع النّصيحة الإنسانيّة التي قدّمها السيّد ألبرت ساروت، ومفادها أن تتحمّل أميركا قليلًا، وتفسح في المجال أمام الوافدين اليابانيّين.

بالنّظر إلى أنّ اليابانيّين مضطرون إلى إفراغ جسد من شعبهم، يُمكن القول إنّهم لن يكونوا قادرين قريبًا على إطعامه، والحال أنّهم سيدخلون حتمًا في صراع مع الشّعوب التي ترفض استقبالهم على أراضيها.

في ظلّ الوضعيّة الحاليّة للعالَم، وفي ظلّ الاكتشافات العلميّة غير المتوقّعة، يبدو هذا الصّراع حتميًّا، كما كانت قديمًا الصّراعات التي خاضتها الإمبراطوريّة الرّومانيّة ضدّ الغزوات الجرمانيّة التي حدثت آنذاك أيضًا بفعل فائض السكّان.

الحقّ أنّي حملتُ تعاطفًا للشّعب الياباني منذ اللحظة التي أمكن لي أن أتعرّف إليه. لقد ربطتني صلّة وثيقة بواحد من أكثر ممثّليهم شهرة، البارون موتونو Motono، وهو سفير اليابان في باريس. وبعد، أراد رجل الدّولة الشّهير هذا ترجمة معظم أعمالي إلى اللغة اليابانيّة، ونشر دراسة مطوّلة عن مجموعة كتبي المتعلّقة بالسيكولوجيا السّياسيّة. «الواقع أنّنا تسبّبنا في المشكلة المشار إليها، من دون أن نجد حلًّا واضحًا لها». تلكم هي الخصال الحميدة التي يتمتّع بها اليابانيّون، وأعني تحديدًا: رزانتهم، وخصوبتهم، وبراعتهم، الخصال التي جعلتهم مصدر خطر داهم للشّعوب التي لا تمتلك خصالًا متطوّرة كهذه. ينبغي لنا، إذًا، أن نترك للمستقبل أمر حلّ هذه المشكلة التي تبدو عصيّة حتّى الآن على كلّ سبل الحلول السّلميّة.

لم يُشدّد السيّد ألبرت ساروت، في المؤتمر الذي أشرنا إليه أعلاه، على الصّراع بين اليابان والولايات المتحدة فحسب، بل أشار أيضًا إلى الصّراع بين أوروبا وسائر شعوب الشّرق. في هذا السّياق كتب يقول:

«إذا لم تحصل مصالحة بين القوى المتخاصمة، فإنّنا سنشهد اندلاع أعظم صراع في التّاريخ، على نحوٍ يُمكننا القول معه إنّ الحرب التي عانينا وطأتها لمدّة خمس سنوات لم تكن سوى مناوشة أمام ما ينتظرنا».

من البديهيّ أنّه يُمكن لشعوب الشّرق، وعلى رأسها الجيوش الرّوسيّة، أن تجتاح الغرب يومًا ما. في هذا السّياق، يؤكّد صحفيّ أنّ المعاهدة الروسيّة ـ اليابانيّة ستكون توطئة لتحالف بين اليابان وروسيا وألمانيا.

يُمكننا أن نضع مجموعة فرضيّات مرعبة بخصوص هذه المسألة. لكنّ تحقّقها مرتبط بسلسلة من الحوادث لا نستطيع حيالها شيئًا، شأنها في ذلك شأن الهزّة الأرضيّة أو البرودة الحتميّة التي ستلحق بكوكبنا.

# الفصل السادس: الحروب الدّاخليّة والإرادات الشّعبيّة

هدفت المؤتمرات الثّلاثون التي عُقِدَت في لندن وباريس، على امتداد ستّ سنوات، وتنظيمات مجتمع الأمم، إلى منع الحروب بين الشّعوب المتنافسة، لكنّ أحدًا لم يُعنَ بالنّزاعات بين الأحزاب السّياسيّة التي تنتمي إلى الشّعب نفسه.

مع ذلك، لا تقلّ هذه النّزاعات خطورة عن الحروب الخارجيّة. وعليه، إذا استمرّ الانتصار المؤقّت للشيوعيّة في المجر، وألمانيا، وإيطاليا، فإنّه سيُصبح مدمّرًا شأن حروب الغزو تمامًا.

يكفي أن نُلقي نظرة سريعة على الوضعيّة الحاليّة لبعض الدّول الكبرى لكي يتبيّن لنا إلى أيّ حدّ أصبحت الحروب الأهليّة خطيرة.

نحن لا نستطيع أن نأتي على ذكر كلّ الثّورات الاجتماعيّة التي وقعت ضحيّتها غالبيّة الدّول الأوروبيّة ـ ألمانيا، وروسيا، والنّمسا، والمجر، واليونان، وبلغاريا، وتركيا، إلخ ـ لذا سنكتفي بالتوقّف عند الثّورات التي قامت بها الأمم اللاتينيّة الكبرى: إيطاليا، وإسبانيا، وفرنسا.

نحن نعلم الفوضى الكبيرة التي تسبّبت فيها نجاحات الشيوعيّة والحركات النّقابيّة في إيطاليا. الواقع أنّ نهب الممتلكات الخاصّة، وسرقة المصانع، وعمليّات الاغتيال كانت تتمّ بشكل يوميّ. لقد غدا الجيش متردِّدًا للغاية، وعمل السّلطة الملكيّة معدومًا تمامًا.

قُبيل وقوع إحدى الكوارث، اجتمع مقاتلون قدامى، تحت قيادة قائد شجاع يُدعى موسوليني(53) M. Mussolini، في محاولة لإنقاذ البلاد من الفوضى. وبعد، سار هذا الدِّكْتاتور المستقبليّ على رأس ميليشيا كبيرة إلى روما، وأجبر الملك على القَبُول به رئيسًا للحكومة.

والحال أنّ الطّاقة التي امتلكها السيّد الجديد مَكَّنته سريعًا من الحصول على الأصوات جميعًا. الحقّ أنّ الاشتراكيّين أنفسهم عبّروا عن مناصرتهم له.

بفضل هذا التّدخّل، أنقذت إيطاليا نفسها من حروب داخليّة.

على غرار إيطاليا، كانت إسبانيا مهدَّدة بحرب أهليّة لم تستطع أن تتفادها إلّا بواسطة دكتاتور. فالانقلاب الذي قام به الجنرال بريمو دو ريفيرا(54) Primo de Rivera في أيلول العام 1923، والمجلس العسكريّ الذي انبثق عن هذا الانقلاب، نجحا في قمع الأحزاب السّياسيّة التي كانت دائمًا في حالة تناحر واقتتال. لقد جرى قلب كلّ المؤسّسات

رأسًا على عقب: الدستور، ومجلس الوزراء، ومجلس الشّيوخ، كلّ ذلك في سبيل حماية البلاد.

لم تشهد فرنسا، منذ إقرار السّلام، ثورات تُشبه الثّورات التي عرفتها إيطاليا وإسبانيا، لكنّ تدخّل الاشتراكيّين المتطرّفين راحت يتزايد يومًا بعد يوم، وبات يُشكّل مصدرَ تهديد حقيقيّ لها. سوف يتوقّف مستقبلها، كما هي حال مختلف دول أوروبا، على نتائج الصّراع بين الأحزاب التي تُعِدُّ الحروب الدّاخليّة، والأحزاب التي تسعى إلى تجنّبها.

إلى ذلك، يتعاظم الصّراع في كلّ يوم بين القوى التّدميريّة والقوى التي تعمل لأجل التّماسك. الواقع أنّ هاتين القوّتين تتوازنان تقريبًا في فرنسا. ولذلك سيكون من السّهل نسبيًّا قلب الموازين من هذه الجهة أو تلك.

لقد اختبرنا هذا الأمر عندما قامت حكومة يُهيمن عليها الاشتراكيّون بإبعاد كلّ الكاثوليكيّين، وإقفال سفارة الفاتيكان، وحرمان غالبيّة الألزاسيّين من حريّاتهم القديمة، لا لشيء إلّا لكي تُخضعنا إلى نظريّات اليعاقبة الذين يُفضّلون هلاك بلادنا على هلاك مبادئهم. لكن سرعان ما تشكّلت حكومة جديدة عرفت أنّ فنّ الحكم لا يكمن أبدًا في تطبيق النّظريّات، بل يكمن في أخذ الحقائق بالحسبان، لذا نجحت، خلال بضعة أيّام، في إحلال السّلام في الألزاس، وإعادة الحريّات إلى الألزاسيّين، وتهدئة الكاثوليكيّين عن طريق إعادة فتح السّفارة بالقرب من مقرّ البابا. كان الحلُّ سهلًا للغاية، لكن، في لحظة ما، أدّى تعصّب المتطرّفين إلى إثارة الرّعب في نفوس الوزراء الذي لم يجرؤوا على مقاومة الاقتراحات التي سرعان ما غدت أوامر.

حقيقة الأمر أنّ تأثير الجماهير بات كبيرًا اليوم في كلّ الدّول الحديثة، ولهذا السّبب أصبحت الحكومات الأوروبيّة غير مستقرّة، ذلك بأنّ وجودها يتوقّف على الأصوات الشّعبيّة المتقلّبة دائمًا.

إلى ذلك، ينجم واحدٌ من أكبر مخاطر العصر الحاليّ عن التّأثير الذي تمارسه الجماهير في قيادة الأمم. الواقع أنّ مشاعرهم عنيفة، وحجّتهم ضعيفة، وقدرتهم على التّوقّع معدومة.

طالما شكّل عجز الجماهير عن توقّع تبعات أعمالهم، وأصواتهم، عقبة بالنّسبة إلى الحكومات الشّعبيّة. لقد خضعت لدوافع اللحظة الحاضرة تمامًا كما حصل قديمًا عندما باع عيسو بكوريّته مقابل صحن عدس.(55) تُماثلُ هذه الذّهنيّةُ ذهنيّةَ البرابرة، والإنسان الأذكى الذي يتورّط مع جمهور مؤثّر وفاعل يُصبح بربريًّا مثله.

الحقّ أنّنا نتوهّم كثيرًا حول الدّور الذي تلعبه أصوات الشّعب، ونتناسى أنّ صوت المقترِع يعبِّر عن استيائه أكثر ممّا يُعبِّر عن آرائه. استنادًا إلى هذا الاستياء، يقود الزّعماءُ النّاسَ.

يعكس النّاخبون، الذين منحوا أصواتهم قديمًا لقائد عسكريّ محكوم عليه بالإعدام بتهمة الخيانة، ومن ثمّ منحوا أصواتهم لضابط آخر أراد تسليم مبنى بأكمله للعدوّ، يعكسون الآراء التّخريبيّة التي توحي بها هذه الأصوات. هؤلاء النّاخبون الثّوريّون كانوا مستائين بكلّ بساطة.

تجد الأصوات، التي أوصلت في العام 1924 عددًا كبيرًا من الاشتراكيّين إلى البرلمان، تجد أصلها في هذه الاستياءات التي استغلّها القادة.

من بين مجموعات السّاخطين، كان هناك جزء من الموظّفين غير الرّاضين عن عدم حصولهم على رواتبهم المستحقّة، ومن الأساتذة الجامعيّين المستائين من عدم اعتراف السّلطة بالخصال التي يمتلكونها، وبرجوازيّين صغار حانقين على الحكومة لأنّها برأيهم السّبب في الارتفاع المستمرّ في تكلفة المعيشة.

يستخدم المرشّحون للانتخابات البرلمانيّة هذه الاستياءات، ويُطلقون وعودًا برّاقة تتعلّق بالإصلاح تنطلي بسهولة على النّاخبين.

بشكل عام، تضطربُ المشاعر الشّعبيّة من جرّاء إطراء السّياسيّين. «الشّعب لا يُخطئ أبدًا»، قال روبسبيار Robespierre. يُردِّد السيّاسيّون هذه المقولة، ويوعزون إلى النّاس في وجوب حصولهم على كلّ ما يُريدونه لأنّهم هم الحكّام الحقيقيّون. من شأن هذه البروباغندا أن تُولِّد تطلّعات وكراهيات عمياء في نفوس الجماهير.

لقد غدت مشاعر الاستياء، وانعدام الثّقة، والغيرة، والكراهية، الدّوافع الحقيقيّة لعمل الحكّام الذين ألفوا أنفسهم مجبرين على اتّباع الرغبات الجماهيريّة.

يُفسِّرُ اتّساعُ نطاق المشاعر، التي أشرت إليها للتوّ، ليشمل كلّ دول أوروبا بما في ذلك إنجلترا والدّنمارك، التوجّه العالميّ نحو الأحزاب المتطرّفة التي تُطلق وعودًا كثيرة.

من الطّبيعيّ إذًا أن تتعمّم الدّيانة الاشتراكيّة مع كلّ ما أتت به من آمال صوفيّة عن تحقيق السّعادة. وعليه، أحرزت الشّيوعيّة، التي وعدت النّفوس البسيطة بالعودة إلى تلك الأزمنة البدائيّة التي كانت فيها الأرض والنّساء أمورًا مشتركة بين الجميع، أحرزت نجاحاتٍ كبيرة لدى طبقات الشّعب الدّنيا.

وبعد، لمـّا كان من المحال إدخال الكثير من الأفكار الجديدة دفعة واحدة إلى العقول البدائيّة، ولمـّا تعلّق الأمر على الدّوام بقدرة القادة على تحريك المشاعر العدائيّة، جاءت بعضُ الشّعارات كافية لتحقيق المراد: صراع الطّبقات، ودكتاتوريّة البروليتاريا، والقضاء على الرأسماليّة، وتأميم الثّروات، إلخ. من بين كلّ عشرة آلاف مقترع، بالكاد نجد مقترعًا واحدًا قادرًا على تفسير معنى تلك الشّعارات بوضوح، أو قادرًا على توقّع تبعات تطبيقها، لكنّ شعارات كهذه تُثير إعجاب السّامعين، وهذا يكفي القادة للوصول إلى هدفهم المرتجى.

إنّ السّلطة السّحريّة التي تتمتّع بها هذا الشّعارات تجعلها بمنأًى عن تأثير أيّ حجّة عقليّة. لقد ظلّ غالبيّة العمّال مقتنعين بأنّهم يعملون من أجل إثراء بعض أرباب العمل فقط، وأنّه بمقدور المجالس العمّاليّة أن تحلّ بسهولة محلّ هؤلاء الأخيرين.

كيف نُفَسِّر عدم قدرة كلّ الدّول على رؤية حضارتها تهلك تحت تأثير قوًى ثوريّة مُدمِّرة وآخذة في التّعاظم، وعلى تبيّن التّهديدات المخيفة للحروب الأهليّة؟ كيف نُفسِّر أنّ أصوات الشّعب، لدى بعض الأمم، هي أصوات متطرّفة بشكل مؤقت، إذ سرعان ما تعقبها أصوات محافظة للغاية؟

تكمن الإجابة ببساطة في أنّ الاستياء والسّخط، اللذين أتينا على ذكرهما أعلاه، مشاعر مؤقتة، تُغطّي جوهرًا صلبًا كوّنته روحُ الأسلاف. بالاستناد إلى هذه الرّوح السّلفيّة، أمكن للدِكتاتورَيْنِ الإيطاليّ والإسبانيّ أن يُنقذا بلديهما من الفوضى.

لن يكون بمقدورنا أن نفهم التّاريخ جيّدًا إلّا إذا بحثنا خلف الاضطرابات العنيفة العابرة عن روح العرق الدّفينة. الحقّ أنّ هذه الرّوح تتدخّل دائمًا في الظّروف الكبرى حيث تتهدّد مصالح هذا العرق. بعبارة أخرى، يُمكن القول إنّ الرّوح الجماعيّة للجماهير متحرّكة للغاية، أمّا روح العرق فهي ثابتة للغاية ذلك بأنّها ترسّخت بفعل ماضٍ طويل.

إلى ذلك تعاظمت قدرةُ الجماهير بشكل ملحوظ من جرّاء التطوّر الكبير الذي عرفته الصّناعة. لقد أدّى التّزايد الهائل للعمّال في نقطة بعينها إلى خلق قوى جماعيّة مثل الحركة النِّقابيّة التي يتعاظم دورها يومًا بعد يوم.

إذا كانت النّخبة هي التي قادت العالَم قديمًا، فإنّ العالَم الحديث ينزع أكثر فأكثر إلى الخضوع للإرادات المتَرَجِّحة للجماهير. الحقّ أنّ الحضارات وصلت إلى درجة من التّعقيد بحيث لا تتكيّف معها إلّا العقول المتطوّرة على نحو كافٍ. ونتيجة لذلك، مالت الجماهير إلى إعادة المجتمعات، بعنف، إلى حقبات التطوّر الدّنيا التي تتناسب مع ذهنيّتها. بوجيز العبارة، يُمكن القول إنّ التقدّمَ الذي أحرزته الشيوعيّة يُترجِم هذا التطلّع.

وبعد، سوف نرى في فصلٍ قادم أنّ الجماهير دخلت اليوم في صراع مع النّخب، على الرّغم من أنّها لا تستطيع الاستغناء عنها.

(42) غوستاف لو بون، **روح السّياسة**، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، دار هنداوي، ص72.

(43) حرب الاستقلال التركية (بالتركية: Kurtuluş Savaşı) (1919 ـ 1923): أي ‹‹حرب التحرير››، والمعروفة أيضًا باسم ‹‹حرب الاستقلال›› أو ‹‹الحملة الوطنية››، بين الحركة الوطنية التركية ووكلاء الحلفاء ـ أي اليونان على الجبهة الغربية، وأرمينيا على الجبهة الشرقية، وفرنسا على الجبهة الجنوبية، ومناصري الخلافة في عدة مدن، وبالإضافة إلى المملكة المتحدة وإيطاليا في القسطنطينية (إسطنبول الآن) ـ بعدما احتُلّت أجزاءٌ من الدولة العثمانية وقُسِّمت بعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى.

(44) محمية شرق إفريقيا الألمانية (بالألمانية: Deutsch - Ostafrika) هي مستعمرةٌ كانت تابعةً للإمبراطورية الألمانية وكانت تقع في شرق أفريقيا. ضمَّت المستعمرة مناطق تنجانيقا وراوندا وبوروندي الحديثة. ولدت المستعمرة في عام 1885 عقب سيطرة الإمبراطورية الألمانية على مناطق واسعةٍ من شرق إفريقيا، إلا أنَّها انتهت خلال أقلّ من نصف قرنٍ نتيجة خسارة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى. قُسِّمت المستعمرة بعدئذٍ فيما بين بريطانيا العظمى وبلجيكا، وتحوَّلت إلى انتداب.

(45) نسبة إلى مصطفى كمال أتاتورك.

(46) أغسطس والمعروف باسم أغسطس قيصر (باللاتينية: Imperator Cæsar Divi filius Augustus) (ولد في 23 أيلول 63 ق.م ـ توفي في 19 آب 14 م) هو رجل دولة روماني وزعيم عسكري، أصبح أغسطس الإمبراطور الأول للإمبراطورية الرومانية من 27 ق.م حتى وفاته في 14 م. تُعد مكانته كمؤسس عهد الزعامة إرثًا دائمًا لأحد أكثر القادة فاعلية وإثارة للجدل في تاريخ البشرية. بدأ عهد أغسطس حقبة من السلام النسبي والمعروفة باسم باكس رومانا، حيث كان فيها العالم الروماني خاليًا إلى حد كبير من الصراع على نطاق واسع لأكثر من قرنين من الزمان، وذلك على الرغم من الحروب المستمرة للتوسع الإمبراطوري على حدود الإمبراطورية والحرب الأهلية التي دامت عامًا والمعروفة باسم «عام الأباطرة الأربعة» على الخلافة الإمبراطورية.

(47) لوسيوس كورنيليوس سولا قائد وقنصل ودِكْتاتور روماني (138 ق.م ـ 78 ق.م). شخصية عظيمة في عهد الجمهورية الرومانية. يسمى أيضاً سولا فيليكس (المحظوظ) إيماناً منه بحظه الذي لم يفارقه، وواجه ماريوس غايوس في حرب أهلية رهيبة. عُرف بقسوته على المعارضين السياسيين والعسكريين مما أكسبه سمعة سيئة.

(48) غايوس ماريوس ـ Gaius Marius قُنصل وعسكري روماني (107 ـ 100 ق.م). كان هو من شارك ميتيلّوس النوميدي حربه كقائد في نوميديا ضد يوغرطة، آخذا منه الزعامة على الجيش بعد فشله (طول مدة الحرب) في القضاء على النوميدي.

(49) حرب الريف 1920 كان نزاعا مسلحًا بين عام 1920 و1927 بين القوة الاستعمارية إسبانيا (انضمت إليها لاحقاً فرنسا) وسكان قبائل جبال الريف (شمال المغرب حالياً الممتد من طنجة غرباً إلى السعيدية شرقاً). حارب سكان جبال الريف بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي، وأوقع الريفيين في البداية عدة هزائم بالقوات الإسبانية باستخدام تكتيكات حرب العصابات وغنموا أسلحة أوروبية كثيرة. بعد التدخل العسكري الفرنسي ضد قوات عبد الكريم والنزول الكبير للقوات الإسبانية في الحسيمة، والذي يعتبر أوّل هبوط برمائي في التاريخ ينطوي على استخدام الدبابات والطائرات، استسلم عبد الكريم الخطابي للفرنسيين واقتيد إلى المنفى.

(50) الملكة إيزابيلا الأولى (1451 ـ 1504) ملكة صقلية (1469 ـ 1504) وملكة قشتالة وليون (1474 ـ 1504) ثم إسبانيا بعد وَحدتها مع مملكة أراجون (1479 ـ 1504)، وملكة نابولي (1504)، كانت لقراراتها آثار عظيمة في تاريخ إسبانيا، ففي عهدها انتهت حروب الاسترداد بسقوط غرناطة، وأقرت بإجبار مسلمي ويهود إسبانيا على اعتناق المسيحية أو القتل أو الرحيل، وكانت من دعم رحلة كولمبوس في رحلته الاستكشافية التي أدت إلى وصوله إلى أمريكا.

(51) وحدة النّقد الإسبانيّ.

(52) ثورة الملاكمين: انتفاضة اندلعت في الصين عام 1900، عُرفت في العالم الغربي بـ«ثورة البوكسر»، قادها ثوار صينيون أطلقوا على أنفسهم اسم جمعية الحق والقبضات المتآلفة، وكان الدافع الأساسي لها هو رفض الوجود الأجنبي المتزايد في الصين آنذاك وخصوصاً محاولات الهيمنة التجارية والدينية على البلاد من طرف قوى غربية. أطلق المؤرخون الغربيون اسم «ثورة الملاكمين» على هذه الانتفاضة الشعبية، نظراً لبراعة الصينيِّين الذين قادوها في الفنون القتالية اليدوية.

(53) بينيتو أندريا موسوليني (1883 ـ 1945): حاكم إيطاليا ما بين 1922 و1943. شغل منصب رئيس الدولة الإيطالية ورئيس وزرائها وفي بعض المراحل وزير الخارجيَّة والداخليَّة. وهو من مؤسسي الحركة الفاشية الإيطاليّة وزعمائها، سمي بالدوتشي (بالإيطالية: Il Duce) أي القائد من عام 1930 إلى 1943. يعتبر موسوليني من الشخصيات الرئيسية المهمة في تكوين الفاشية. دخل حزب العمال الوطني ولكنه خرج منه بسبب معارضة الحزب لدخول إيطاليا الحرب، عمل موسولني في تحرير صحيفة أفانتي (إلى الأمام) ومن ثَم أسس ما يعرف بوحدات الكفاح التي أصبحت النواة لحزبه الفاشي الذي وصل به الحكم بعد المسيرة التي خاضها من ميلانو في الشمال حتى العاصمة روما. دخل الحرب العالمية الثانية مع دول المحور. في ظل هزيمته حاول موسوليني الهروب إلى الشمال. في نهاية شهر إبريل من عام 1945 أُلقِيَ القبض عليه وأعدمته حركة المقاومة الإيطالية مع أعوانه السبعة عشر بالقرب من بحيرة كومو، أُخذت جثته مع عدد من أعوانه إلى ميلانو إلى محطة للبنزين وعُلّقوا رأسًا على عقب حتى يراهم عامَّة الناس ولتأكيد خبر موته.

(54) ميغيل بريمو دي ريفيرا (بالإسبانية: Miguel Primo de Rivera) (1870 ـ 1930): هو دِكْتاتور وأرستقراطي وضابط عسكري. ولد بمدينة شريش بإسبانيا في الثامن من يناير سنة 1870، استلم منصب رئيس وزراء إسبانيا منذ 1923 إلى 1930 خلال فترة عودة البوربون لحكم إسبانيا. وقد آمن بشدة أن السياسيين هم الذين خربوا إسبانيا واعتقد أنه بدونهم يمكنه إعادة مجد الأمة. شعاره كان «الوطن، الدين، الملكية». وقع

انقلاب بريمو دي ريفيرا في إسبانيا بين 13 و15 سبتمبر 1923، بقيادة قبطان كاتالونيا العام ميغيل بريمو دي ريفيرا. وأسفر عن إنشاء دِكْتاتورية بريمو دي ريفيرا، وحقيقةً يعود الفضل في نجاح الانقلاب إلى الملك ألفونسو الثالث عشر الذي لم يعارض الانقلاب وعين الجنرال بريمو دي ريفيرا رئيسا للحكومة بإدارة عسكرية.

(55) عيسو: اسم عبري معناه «شعر» أو «مُشعِر»، وهو ابن إسحق ورفقة Rebekah، وتوأم يعقوب Jacob (تك 25: 21ـ 26). وسمي كذلك لأنه ولد أحمر كفروة شعر (تك 25: 25). وقد هوى الصيد منذ صغره. وكان يعود إلى البيت دومًا ومعه ما يصطاده ويقدم منه لأبيه. وعاد ذات يوم من الحقل جائعًا، ووجد أخاه يعقوب يطبخ عدسًا (مجدرة) فاشترى صحن العدس ببكوريته. وبسبب العدس الأحمر لقب عيسو بـ«أدوم» (تك 25: 27ـ 24)، وورد في وثائق مدينة نوزو في القرن الخامس عشر ق.م أن رجلًا باع بكوريته لأخيه بخروفين.

# الكتاب الرّابع: القوى السّياسيّة الجديدة

## الفصل الأوّل: الصّراع بين الضّرورات الاقتصاديّة والمبادئ القديمة

«ليست الثّروة، قال مونتسكيو، هي التي تُسيطر على العالَم. فالرّومان عرفوا ازدهارًا مستمرًّا عندما حكموا على مستوًى بعينه، لكنّهم عرفوا سلسلة غير منقطعة من الانتكاسات عندما بسطوا سيطرتهم على مستوًى آخر».

من المفيد إذًا امتلاك هذه المبادئ الموجِّهة، ومن الخطير خسارتها. للأسف، لا يُمكننا انتقاء هذه المبادئ دائمًا، وقد تُرغمنا الضّرورة على التّنازل عن أفضل تلك المبادئ. وعليه، لم يخض الرّومان طواعيةً الحروب الأهليّة التي حوّلت جمهوريّتهم إلى إمبراطوريّة، ولم يسمح مجلس الشّيوخ الرومانيّ طواعية للفيالق بأن تُطيح بالأباطرة وتنتخب غيرهم، الأمر الذي شكّل سببًا رئيسًا من أسباب انحطاط روما.

تُشكِّل الصّراعات بين المبادئ السياسيّة القديمة والضّرورات الجديدة مرحلة نقديّة في حياة الشّعوب. الواقع أنّه ينجم عنها بشكل عام توجيه مختلف لمصائر تلك الشّعوب.

يُمكن أن نذكر إنجلترا كمثال على الصّراعات بين المبادئ القديمة والضّرورات غير المتوقّعة التي أفضت إلى تعديلها.

من هذه المبادئ نذكر مبدأ التّجارة الحرّة. لقد أكّد هذا المبدأ الازدهار التّجاريّ لبريطانيا العظمى، وبدا غير قابل للانتهاك.

لكنّ إنجلترا لا تُشكّل إمبراطوريّة تحكم مستعمرات بعيدة بشكل استبداديّ. فالكثير من هذه المستعمرات استعادت سيادتها، وامتلك برلمانات، وغدت شبه مُستقلّة. لقد وافقت على إرسال قوّات لمساعدة العاصمة في خلال الحرب الكبرى، لكنّ إجبارها على هذا الأمر كان مستحيلًا. لقد اختبرنا هذا الأمر بعد هزيمة اليونانيّين في إزمير، حيث طلب رئيس وزراء الإمبراطوريّة البريطانيّة جنودًا من الدّول شبه المستقلّة لكنّ طلبه رُفِض بالكامل.

وبعد، غدت هذه الدّول أكثر تطلّبًا. لاحظنا هذا الأمر تحديدًا عندما اجتمع ممثّلوهم في لندن، وطالبوا إنجلترا بأن تحتفظ بزبائنها في مستعمراتها القديمة، عن طريق فرض ضرائب جمركيّة على بضائع الدّول الأخرى.

إلى ذلك، احتاجت أستراليا إلى رؤوس الأموال من أجل توسيع قنواتها، وشبكات سكك حديدها، إلخ. وعليه، أكّدت أنّها لا تستطيع القيام بهذه الأمور إلّا إذا صَدَّرَت منتجاتها من الزّراعة ومن تربية المواشي. والحال أنّه وجب على إنجلترا أن تمنع دخول بضائع الدّول الأخرى إلى أراضيها، ومن ثمّ أن تعتمد مبادئ تتناقض مع التّجارة الحرّة التي تسبّبت في ازدهار الإمبراطوريّة. ذهب رئيس الوزراء الأسترالي إلى حدّ التّصريح بأنّ بلاده لن تقبل بقدوم العمّال الإنجليز إلى الأراضي الأستراليّة إلّا إذا فتحت إنجلترا أسواقها أمامها. ينبغي لنا أن نُلاحظ أنّ بريطانيا العظمى، باحتفاظها بزبائنها في الدّول شبه المستقلّة، سوف تجد في هذه الدّول أسواقًا لا تزوّدها بها كلّ دول العالَم الباقية. على الرّغم من أنّ الإمبراطوريّة البريطانيّة موزّعة على قارات العالَم الخمس، فإنّها تستطيع أن تحيا بالاعتماد على نفسها فقط.

بيد أنّ صعوبة المسألة تكمن في أنّ كلّ الدّول شبه المستقلّة، وكندا تحديدًا، لا تملك الاهتمامات نفسها، ولا تعترف بالمبادئ نفسها. فعلى سبيل المثال، لا تُبدي بعض تلك الدّول، التي تملك صناعة متقدّمة، أيّ رغبة في التّضحية من أجل تأمين حاجات الإنجليز الصّناعيّة.

من بين أسباب الحملات العسكريّة الوقائيّة تبرز الرّغبة في إغلاق السّوق(56) البريطانيّ أمام المنافسة الألمانيّة والأمريكيّة. بطبيعة الحال، يُريد الإنجليز بيع منتجاتهم للألمان، لكنّها ترغب بتقليص شراء البضائع إلى أدنى حدّ ممكن من هذه الأسواق.

إنّ الاضطرابات الاقتصاديّة التي تقع إنجلترا ضحيّتها اليوم هائلة. في الحقيقة، أُجبرت في العام 1926 على إطعام مليون وخمسمئة ألف عاطل عن العمل، وهو عبء ثقيل جدًّا على موازنتها.

تنجم زيادة أعداد العاطلين عن العمل ـ الأمر الذي شكّل كابوسًا لبريطانيا العظمى ـ من كونها اضطرّت بعد خسارتها أكثر زبائنها أهميّة: روسيا، والنّمسا، وأيضًا القليل منهم في الشّرق الأقصى، اضطرّت إلى تقليص رقم صادراتها، ومن ثمّ إلى تقليص إنتاجها.

غالبًا ما يترافق الصّراع بين المبادئ القديمة والضّرورات الجديدة مع أوهام سياسيّة قادرة على إعْماءِ الشّعوب حول مصالحها الحقيقيّة.

يصعب حكم بعض الدّول، مثل فرنسا وبلجيكا، بسبب المبادئ المتناقضة التي تتبنّاها الأحزاب السياسيّة المتعاقبة على السّلطة. إلى ذلك، غدت الصّعوبات التي خلقتها المنافسات السّياسيّة في مختلف البلدان مثل إيطاليا، واليونان، وإسبانيا، إلخ، بالغة الأثر إلى حدّ أنّ تخطّيها بات يتطلّب اللجوء إلى الدكتاتوريّات.

لم يكن بإمكان الشّرق نفسه، على الرّغم من استقراره المستمرّ منذ قرون، تجنّب الفوضى التي تسبّبت فيها الصّراعات بين المبادئ القديمة والضّرورات الجديدة. لقد أتيتُ على ذكر كيف قامت تركيا بإحلال رئيس جمهوريّة وبرلمان محلّ أمير المؤمنين، مع العلم أنّ قوّتها ذات أصل دينيّ. من دون شكّ، تخيّل روّاد هذا التّحوّل أنّ قرونًا من الوراثة يُمكن أن تختفي بين ليلةٍ وضحاها.

حقيقة الأمر، لو أنّ الصّراعات بين الضّرورات والمبادئ نجمت فقط عن ظهور المتطلّبات الاقتصاديّة التي ترتبط بالتطوّر العلميّ والصّناعيّ، لأصبح التغلّب عليها أمرًا سهلًا نسبيًّا. لكنّها تنجم أيضًا، للأسف، عن تبعات المتطلّبات الشّعبيّة التي لا تدعمها إلّا الأوهام الشّعوريّة أو الصّوفيّة.

لقد رأينا للتوّ أنّ شعوبًا تقليديّة للغاية، مثل إنجلترا، أُجبرت على التّخلّي عن بعض المبادئ الأساسيّة المتعلّقة بسيّاستها. أضف إلى ذلك أنّها وضعت على رأس حكومتها رئيس الحزب الاشتراكيّ. بيد أنّ ثقل التّراث الإنجليزيّ كان قويًّا للغاية، إلى حدّ أنّ رئيس الوزراء المذكور حكم تمامًا كما لو كان وزيرًا محافظًا. فعوضًا عن أن يحدّ من التّسلّح عمد إلى تعزيزه وتَبْيان أهمّيّته.

أغرقت هذه الصّراعات، بين المبادئ القديمة والضّرورات الاقتصاديّة، أوروبا في سلسلة من الاضطرابات التي لا يُمكن توقّع نهايتها بعد.

تكفي الملاحظات السّابقة كي تُبيّن أنّ حكومة الشّعوب الحديثة مَحُوطة بصعوبات هائلة لم تعرفها العصور السّابقة.

لقد ألفى الحكّام القدامى أنفسهم معزولين عن جيرانهم، لذا لم يكن عليهم أن ينهمّوا بمعرفة العواقب اللا متناهية التي أفضى إليها اليوم الاتّكال المتبادل بين الشّعوب. لقد حكموا بموجِب مبادئ معترف بها عالميًّا، وغير متنازع عليها.

الواقع أنّ وضعيّة القادة مختلفة جدًّا اليوم. قد يتسبّب خطأ بسيط، في بعض الأحيان، بكوارث مروِّعة. والحال أنّ التوقّعات الخاطئة التي استند إليها حكّام ألمانيا، والنّمسا، وروسيا، أغرقت الشّعوب في هاوية من الخراب والأسى.

وعليه، تُسيطر على رجال الدّولة المعاصرين مخاوف تتعلّق بعواقب أفعالهم، لذا تراهم يحكمون يومًا بيوم، من بعد أن فقدوا المبادئ التي توجّه سياستهم، ومن بعد أن أَلْفوا

أنفسهم مَحُوطين بقوّة تتخطّى قوّة إرادتهم.

يعيش الحكّام الحاليّون، باستثناء بعض المتوهّمين الذين يتبعون أوهامهم، في حالةٍ من الارتياب، وغالبًا ما يجدون أنفسهم، في لحظات الرّاحة، مجبرين على إصاخة السّمع إلى التّهديد الذي طارد مكبث(57) من بعد أن أصبح ملكًا:

«لن تعرف النّوم بعد اليوم! لقد صرع مكبث النّوم... النّوم البريء... النّوم الذي يرتق ما تفتّقه الهموم... ذلك الموت اليوميّ الذي يختم حياة كلّ نهار... ذلك الذي يغسل الكلالة ويُضمّد جراح الأذهان ويمدّنا بالقوّة على العيش، ويوفّر لنا قوت الحياة».(58)

في الواقع، تتعاظم هذه التّعقيدات السياسيّة من دون توقّف. لقد تزعزت حياة الشّعوب الماديّة والأخلاقيّة. فالمُثل التي كانت تُوجِّه السّلوك فقدت هيبتها ومكانتها.

الحقّ أنّ تفكّك المفاهيم القديمة بات عامًّا. لقد استبدلت الكراهيات العنيفة بين الشّعوب، وبين طبقات الشّعب الواحد أيضًا، بأحلام الأخوّة القديمة.

كان من نتائج الاستياء العالميّ، كما بيّنتُ سابقًا، وفي كلّ البلدان، مجيءُ الأحزاب المتطرّفة، وقيامها بطرح شعارات تؤكّد إمكانيّة تحقيق السّعادة.

لكنّ الحقبة الفوضويّة هذه لا يُمكن أن تستمرّ طويلًا، إذ سرعان ما تتمّ إعادة إحياء التوازن الذي جرى تدميره. نحن نعلم الحال التي كانت عليها المجتمعات بالأمس، ونحن نرى حال المجتمعات اليوم. لكن ما هي الحال التي ستكون عليها هذه المجتمعات غدًا؟

# الفصل الثّاني: الدور الحديث الذي تلعبه القوى الجمعيّة

### تقسيم المجتمعات إلى مجموعات طائفيّة

بعيدًا من الاشتراكيّة، التي لا تعدو كونها مجرّد تهديد، لا سيّما بعد أن أظهرت التّجربة الرّوسيّة ضعفها ومخاطرها، ثمّة عنصران سيّاسيّان أساسيّان يلعبان دورًا أساسيًّا في المجتمعات الحديثة.

العنصر الأوّل هو استبدال القوى الجمعيّة بالقوى الفرديّة. أمّا العنصر الثّاني فهو تقسيم المجتمعات المتجانسة الكبرى إلى مجموعات صغيرة غير متجانسة أو إلى مجموعة من النِّقابات.

الواقع أنّ القوى الجمعيّة راحت تُهيمن أكثر فأكثر على الحكومات الحديثة. فيما مضى، لم يكن رئيس الدّولة يُعنى كثيرًا بالمتطلّبات الشّعبيّة، إذ كان محالًا أن يؤثّر الرّأي العام فيه لأنّه نادرًا ما كان يصل إليه.

بيد أنّ الوضع تغيَّر تمامًا اليوم. فالإرادات الشّعبيّة باتت تؤثِّر بعمق في إرادات الحكّام الواعية واللا واعية.

قد يكون بمقدورنا أن ننظر إلى أبرز حَدَثَيْن كبيرين في التاريخ الحديث، وأعني حرب 1870 وحرب 1914، بوصفهما خير مثالين يُضربان حول الأفعال المعزوّة إلى إرادات الحكّام التي يُفترض أنّها كلّيّة القدرة، لكنّ الحقيقة تكشف أنّها نجمت عن الإرادات الجمعيّة.

في ما يتعلّق بحرب 1870، أشرتُ سابقًا أنّها ولدت نتيجة موجة سخط عارمة فجائيّة تسبّبت فيها برقيّة سلميّة قام بسمارك بتزويرها، مقتنعًا بأنّ الحرب مع فرنسا كانت ضروريّة من أجل تأسيس وحدة ألمانيا. وعليه، استغلّ التّهيّج الجمعيّ للشّعب الفرنسيّ، لكي يُجبر نابليون الثّالث، الذي كان مريضًا ويحلم بالفعل بإرساء السّلام، على إعلان الحرب.

قل كذلك عن صراع العام 1914 الذي فرضته فرضًا على الإمبراطور غيُّوم إرادة محيطه، وفقًا لاستنتاجات كلّ الكتّاب الألمان. في الحقيقة، كان الهدف الأساسيّ من سياسته امتلاك جيش وأسطول قويّين للغاية كي يكون بمقدوره أن يفرض إرادته من دون أن يحتاج البتّة إلى إعلان الحرب.

تكمن أهمّ خاصيّة من خصائص الإرادات الجمعيّة في أنّها تؤثّر في إرادات الأفراد اللا واعية قبل أن تؤثّر في إراداتهم الواعية. إلى ذلك، شاعت موضة في تلك الفترة مفادها الآتي: يجب أن تخضع الفنون، والأزياء، والأفكار، إلخ، لقوانين الإرادات الجمعيّة. الحقّ أنّ استبدادها طاوَلَ كلّ الطّبقات الاجتماعيّة، من الطّبقات الأكثر تواضعًا إلى الطبقات الراقية، إذ خضعت لها من دون أيّ نقاش. هوذا الإنسان الحديث يغدو شيئًا فشيئًا كائنًا جمعيًّا، وبات يتخلّى تدريجيًّا عن فرادته وإبداعه.

حقيقة الأمر أنّ الآراء الجمعيّة التي تنجم عن الحوادث اللحظويّة غالبًا ما تكون آراء غير مستقرّة. في حين أنّ الآراء المؤسَّسة على المعتقدات الدّينيّة والسّياسيّة، على العكس، آراء ثابتة للغاية، كما يُثبت تاريخ الأديان والأحزاب السّياسيّة.

تكمن قوّة هذه المعتقدات الجمعيّة في إعطاء كلّ النّاس إرادات متماثلة، أي وحدة تفكير وشعور تجعلهم يتصرّفون في الظروف المتشابهة بالطّريقة نفسها. لذلك يُمكن القول إنّ الدّور الذي تلعبه هذه المعتقدات دور كبير جدًّا.

من بين تبعات التّأثيرات الجمعيّة التي تُسيطر على العالَم الحديث، ينبغي لنا أن نذكر التحوّل التّدريجيّ للمجتمعات نحو مجموعات غير متجانسة يُطلق عليها اسم النّقابات. تُعنى هذه النّقابات بمصالح أعضائها فحسب، أي إنّها لا تكترث للمصلحة العامّة.

تشاركت الاشتراكيّة والنّقابيّة، في بعض الأحيان، في مواجهة عدوّ سياسيّ مشترك، لكنّ هاتين العقيدتين تختلفان اختلافًا كبيرًا.

فالاشتراكيّة تُريد أن تعزو إلى دولة كُليّة القدرة مهمّةَ إدارة جميع المؤسّسات، في حين أنّ النّقابيّة تُطالب بتأسيس سلسلة من الدويلات الصّغيرة المستقلّة في داخل الدّولة نفسها. تُمثّل شعارات النقابيّين: المنجم لعمّال المناجم، وسكك الحديد لعمّال سكك الحديد، إلخ، ميولَ هذه العقيدة.

أمّا الاشتراكيّة ـ بخاصّة الاشتراكيّة الشّيوعيّة ـ فتُمثّل، على الأقلّ نظريًّا، الشّكل الأمثل للغيريّة الاجتماعيّة. تُمثّل النّقابيّة، على العكس، أنانيّة مجموعات لا تكترث على الإطلاق للمصلحة العامّة.

علاوة على ذلك، لا يهتمّ هؤلاء النّقابيّون كثيرًا بالنّظريّات السّياسيّة، ذلك بأنّ هدفهم الأساسيّ ينصبّ على زيادة أجورهم. ولكي يحصلوا على مبتغاهم، لا يتردّدون أبدًا في شلّ حياة بلد بأكمله، تمامًا كما فعل عمّال سكك الحديد في فرنسا وإنجلترا.

إلى ذلك، لم تتوانَ نقابة سكك الحديد الإنجليزيّة، إبّان تهديدها بالإضراب العام، عن التّصريح جهارًا بأنّها ستوقف فجأة كلّ القطارات عندما يحلو لها القيام بذلك، ومن دون أن تُبلِّغ الشّعب.

في هذا السّياق، لا يهتمّ هؤلاء النّقابيّون بما إذا كان أصحاب الشّركات يمتلكون المال الكافي لتحقيق مطالبهم. فجُلّ ما يعنيهم أن يتمّ فرض ضرائبَ على بقيّة الأمّة من أجل مصلحتهم.

ذلكم بالضّبط ما فعلته بداية الحكومة الإنجليزيّة عندما أعطت عمّال المناجم زيادة في الرّواتب كي تمنع إقفال المناجم. وبعد، لم يكن بإمكان هذا الامتياز الأخرق أن يستمرّ طويلًا، فقد أُلغِيَتِ المساعدات، الأمر الذي نجم عنه إضراب امتدّ لستّة أشهر، وهدّد الوجود الصّناعيّ لإنجلترا.

لم تكتسب الحركة النّقابيّة قوّتها الحاليّة، التي قسّمت كلّ بلد إلى مجموعات تقودها مصالح غير متجانسة غالبًا ما تتعارض مع المصلحة العامّة، إلّا نتيجة للتطوّر الصّناعيّ الحديث الذي طال ملايين العمّال الذين يمارسون بعض المهن مثل عمّال المناجم، وسكك الحديد، إلخ. لكنّ ظهور هذه الحركة لم يكن جديدًا في التّاريخ. فقد تسبّبت في هلاك الكثير من الجمهوريّات الإيطاليّة في العصر الوسيط ـ فلورنسا تحديدًا ـ نتيجة الخلافات والانقسامات التي أرستها. وعليه، من أجل التخلّص من الفوضى النّقابيّة، اضطرّت جمهوريّة فلورنسا الشّهيرة إلى تحمّل نير آل ميدتشي.(59)

خلاصة القول، تُشكّل الاشتراكيّة والنّقابيّة اليوم قوّتين كبيرتين ينبغي للمجتمعات أن تتصدّى لهما على الدّوام.

# الفصل الثّالث: تصدّي الجماهير للنُّخب

طالما قادت النّخبُ الحضارات. ونعني بالنّخب ذلك العدد الصّغير من الأفراد الذين يملكون ذكاءً يفوق ذكاء الحشود.

تغيّرت هذه النُّخب بحسب احتياجات كلّ عصر، لكنّها احتفظت دائمًا بخاصيّة خارجيّة هي المكانة. في الواقع، عندما بدأت هذه المكانة تضعف، راح تأثير النّخبة في الجماهير يتلاشى شيئًا فشيئًا.

حقيقة الأمر أنّنا نُركّز اليوم على هذه الظّاهرة الأخيرة. فلأسبابٍ كثيرة فقدت النّخب تأثيرها. إلى ذلك، تصدّت الحشود لها، وطالبت بأن تحلّ محلّها.

كيف تتكوّن المكانة وكيف تُفقَد؟ لقد أشبعتُ هذه المسألة درسًا في مكان آخر، لذا سيغدو من غير ذي طائل أن أعود إليها. لكن لنلاحظ فقط أنّ الاستياء العامّ الذي تسبّب فيه إخفاق

برلمانات كثيرة يكفي لكي يشرح لنا لماذا ضعفت اليوم المكانة السيّاسيّة التي امتلكتها قديمًا بعض الطّبقات الحاكمة.

وبعد، كلّما حافظت النّخبة على مكانتها، ظلّ الحكّام أقوياء بما فيه الكفاية كي لا يخضعوا. لكن عندما تنقسم النّخب إلى مجموعات سيّاسيّة متنافسة وفي حالة صراع دائم، تتلاشى سلطتهم، وتسقط البلاد في فخّ الفوضى.

في روسيا، انتهى الأمر بأن غدت النّخبة عاجزة، ذلك بأنّ انتصار الجماهير كان تامًّا. في فرنسا، يبدو أنّ النّخب القديمة ما زالت تحتفظ ببعض سلطتها، لكنّ هذه السّلطة تضعف يومًا بعد يوم، إذ إنّ السّيل الشّعبي يتقدّم. بعبارة أخرى، لا يبحث النّوّاب الخائفون إلّا عن إرادات النّاخبين المتحرِّكة، لذا تراهم ينسون المصالح العامّة لحزبهم.

ثمّة بلد وحيد في أوروبا، ونعني إنجلترا، يبدو متحرِّرًا من تمرّد الجماهير. فالشّعب الإنجليزيّ هو الشّعب الأكثر امتثالًا للتقاليد في العالَم، ذلك بأنّ سياسة ثابتة تحكمه منذ قرون. بعبارة أخرى، تُوجِّه إرادات الموتى لديه أفعال الأحياء. فكيف بإمكان شعب كهذا أن يثور على نخبٍ حدَّد تأثيرُها الذي يعود إلى قرون خلت عظمةَ هذا الشّعب؟

ومع ذلك قامت حديثًا شريحة هامّة من أمّة تبدو بمثابة كتلة ثابتة وصلبة على الدّوام، بثورة من أعمق الثّورات التي جرى حفظها في سجلات العالَم.

فجأة، ومن دون سابق إنذار، توقّفت مكاتب البريد، والمصانع، وشبكات سكك الحديد، والسّفن، وبكلمة واحدة كلّ ما يُشكّل جوهر العمل اليوميّ لأيّ بلد، توقّفت عن العمل، بناء على أمر مختصر صادر عن لجنة القادة.

لو لم تُسارع الحكومة مباشرة إلى إيجاد عدد كبير من المتطوّعين يحلّون مؤقتًا محلّ ملايين العمّال الذين توقّفوا عن العمل، لهلكت إنجلترا من جرّاء المجاعة، أو لاضطرّت إلى تعيين قادة الحركة الثّوريّة قادة للأمة، ولاختفى البرلمان، والملك، والوزراء، تمامًا كما

حصل قديمًا في روسيا عندما مثّل حكّام روسيا قوّة الجماهير، وحلّوا محلّ الطّبقة الأوليغارشيّة الصّغيرة الحاكمة.

إذا أمكن تجنّب هذه الثّورة، فذلك لأنّ الحكومة الإنجليزيّة احتفظت بهيبة قويّة للغاية مكّنتها من تجاوز حاجز العدد الجماهيريّ. لكن إلى متى ستستطيع هذه الحكومة أن تُسيطر على جيش كبير وخطير للغاية، ما دامت تضع قوّة ضخمة في خدمة متطلّبات يبدو تحقيقها مستحيلًا؟

تجدر الإشارة إلى أنّ الجمهور الإنجليزيّ المضرِب لم يحصل، على الرّغم من إصرار القادة الأمميّين، على أيّ دعم من الدّول الأخرى، باستثناء انضمام بعض الموظّفين الفرنسيّين والثّوريّين الروس إليهم. مرّة أخرى أيضًا تُثبت القوميّة أنّها أقوى من الأمميّة.

يستحقُّ إرسال برقيّة انضمام الموظّفين الفرنسيّين إلى المـُضربين الإنجليز التوقّف عنده، لأنّه يكشف إلى أيّ حدّ تفكّك مبدأ السّلطة في فرنسا. لقد شكّل انضمام كهذا، منذ سنوات خلت، ظاهرة غير قابلة للتّصديق.

لو انضمّ موظّفو الإدارة الإنجليزيّة إلى العمّال الفرنسيّين، ووقفوا إلى جانب الثوّار، عوضًا عن أن يُساعدوا حكومتهم على الدّفاع عن نفسها، لانهارت قوّة إنجلترا سريعًا.

من بين الدروس التي ينبغي استخلاصها من الإضراب الإنجليزيّ، ثمّة درس نموذجيّ لا يجب إغفاله ونعني خضوع النّقابيّين الأعمى لأوامر رؤسائهم. الحقّ أنّه لم يُطَع مستبِدّ آسيويّ مثلما أطاع النّقابيوّن رؤساءهم.

وبعد، لوحظ الخضوع نفسه في إيطاليا وفي إسبانيا، عندما وضع الدكتاتوريّون النّشيطون حدًّا لكلّ أعمال العنف التي مارستها الحركة النّقابيّة. لقد شكّل هذا الخضوع خاصيّة من خصائص الرّوح الشّعبيّة. فالجماهير غير قادرة على التّفكير والاستدلال لكي تتجاوز رئيسها.

في الثّوراتِ المماثِلَةِ الثّورةَ التي كادت الأمّة الإنجليزيّة تقع ضحيّتها، غدا تأثير القادة سهلًا لأنّه استند إلى مصالح مرئيّة مثل الوعد برفع الأجور، لكنّ التّاريخ يُثبت أنّ الحشود لا تُقاد دائمًا عن طريق الدّوافع التي تخدم مصالحها. بعبارة أوضح، تكفي الدّوافع غير الماديّة، مثل المعتقد السياسيّ أو الدينيّ، في بعض الأحيان لكي تجذبهم. لقد أعطيتُ أمثلة صارخة على هذا الأمر في كتاب قديم نشرته، وأعني: **الآراء والمعتقدات**.

الواقع أنّ صراع الجماهير ضدّ النّخب تكرّر أكثر من مرّة على امتداد التّاريخ، بدءًا من العصور اليونانيّة القديمة، وصولًا إلى أيّامنا هذه. الجدير بالذّكر أنّها كلّفت شعوبًا كثيرة خسارة استقلالها.

إنّ الوسائل التي تسمح للفوضى التي يخلقها التمرّد الشّعبيّ بأن تبسط سيطرتها ليست كثيرة. لعلّ دكتاتورية رئيس ما هي الوسيلة الأكثر فعاليّة من بينها. لقد قلنا سابقًا، وها نحن نُكرِّر مجدَّدًا، إنّ إيطاليا وإسبانيا عادتا حديثًا إلى استخدام هذه الطّريقة كي تتخلّصا من الفوضى التي تسبّب فيها الاشتراكيّون.

إلى ذلك، لاحظ اللورد غراي Grey من خلال السّطور الآتية المتعلِّقة بالإضراب الإنجليزيّ الشّعارات الجديدة التي عكست التّطلعات الشّعبيّة:

«طرح الإضراب العام مشكلة كانت كفيلة بجعل مسألة أجور عمّال المناجم تختفي تمامًا. الحقّ أنّ الأمر لا يتعلّق الآن بمعرفة ما ستكون عليه هذه الأجور، بل بمعرفة ما إذا كان ينبغي الإطاحة بالحكومة البرلمانيّة الديمقراطيّة. فقد جرى غزو الحريّة عن طريق هذه الحكومة الديمقراطيّة، وبمكنتها وحدها أيضًا أن تُحافظ عليها. إذ من شأن الحلول الأخرى أن تضعنا مباشرة أمام الفاشيّة أو الشّيوعيّة. ونحن نعلم أنّ الفاشيّة والشيوعيّة تتعارضان مع الحريّة بل تقضيان عليها، إذ إنّهما لا تسمحان بحريّة الصّحافة، وحريّة الرأي، وحريّة التصرّف، ولا حتّى بحريّة الإضراب».

بوجيز العبارة، دخلت أمم كثيرة فترة اضطرابات لا تُحمد عقباها، لأنّ المثال الدّيمقراطيّ الذي كانت تعيشه الأمم الحديثة فَقَدَ تأثيره في نفوس الشّعوب. والحقّ أنّ هذه الاضطرابات لن تنتهي إلّا في اليوم الذي يُولَد فيه مثال جديد أكثر قوّة، بحيث يكون قادرًا على توحيد الأفكار، وإرساء السّلام في القلوب.

# الفصل الرّابع: الأقطاب السيّاسيّة الجديدة

**وأسيادُ العالَم المستقبليّون**

على امتداد التّاريخ، غالبًا ما تغيّرت الأقطاب السيّاسيّة في العالَم: نينوى، وبابل، وممفيس، وطيبة اختفت جميعًا في الليل الأبديّ من بعد أن أخضعت شعوبًا كثيرة لقوانينها.

والحال أنّنا سنتكفي بالإشارة إلى التغيّرات التي حصلت منذ أقلّ من خمسين عامًا، من دون العودة إلى تلك العصور الغابرة، القريبة من مرحلة ما قبل التّاريخ. أصبحت باريس مؤقّتًا العاصمة الفعليّة لأوروبا تحت إشراف قائد كبير، أمّا بروسيا فقد امّحت تقريبًا من على خارطة العالَم عن طريق الغازي نفسه، التي توصّل إلى تأسيس إمبراطوريّة قويّة بما يكفي لكي يتنافس مع إنجلترا في فرض سلطته التّجاريّة، ويحلم باستعباد أوروبا.

على الطّرف الآخر من العالَم، ثمّة مستعمرة إنجليزيّة صغيرة، ضاعت قديمًا بين القبائل الوحشيّة التي بدت قادرة على القضاء عليها، لكنّها سرعان ما تعاظمت وغدت دولة قويّة جدًّا حملت اسم الولايات المتّحدة، وها هي تتنافس اليوم مع القوّة البريطانيّة العظمى.

من بين الدّول الوافدة حديثًا إلى المشهد العالميّ، ينبغي لنا أن نذكر جزيرة صغيرة، كانت مجهولة قديمًا، جزيرة مأهولة بأناسٍ لا هيبة لهم ولا مكانة، لكنّها سرعان ما أصبحت قوّة كبيرة بما يكفي لتفرض معاهدة سلام على إمبراطوريّة القياصرة العظمى، وتحلم بالسّيطرة على آسيا.

يُعلّمنا التّاريخ أنّ تعاظم أي سلطة سياسيّة يجعلها تتطلّع إلى الهيمنة، وتسعى إلى غزو جيرانها، إلى أن تُغزَى.

الواقع أنّ ألمانيا لم تفلت من هذا القانون القديم. فقبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب، أكّد الإمبراطور غِيُّوم أنّ العناية الإلهيّة، التي كان يعرف مشيئتها عن طريق أصوات غامضة، هي التي عهدت إلى ألمانيا مهمّة حكم الشّعوب. علاوة على ذلك، يؤكّد هذا الإقرار تعاليمَ الفلاسفة والعلماء الألمان حول التفوّق المفترض للشّعب الألمانيّ.

انتهت الحرب، وراحت إنجلترا تُطالب بممارسة هيمنتها على العالَم. في هذا السّياق، صرّح رئيس وزراء الإمبراطوريّة البريطانيّة السيّد لويد جورج، بوصفه رجلًا تقيًّا يعرف إرادة السّماء، في خطابٍ شهير له قائلًا: «إنّ العناية الإلهيّة اختارت إنجلترا لكي تحكم العالَم».

إلى ذلك، تقبَّل مواطنو الإمبراطوريّة هذا الوحي من دون عناء، لكنّ الأمريكيّين لم يستحسنوا هذا الأمر على الإطلاق. فبعد أن أتوا لتقديم المساعدة لأوروبا، حلموا، بدورهم، في السّيطرة عليها ماليًّا في بادئ الأمر، ومن ثمّ صناعيًّا، بحجة التفوّق الذي يتميّز به عرقهم في كثير من المجالات، وذلكم ما يُخوّلهم ـ برأيهم ـ أن يمتلكوا الحقّ في حكم العالَم.

الحقّ أنّه ليس هناك رؤية ثاقبة أكثر من تلك الرؤيا من أجل قراءة صفحات التاريخ المستقبليّ. لكن إذا قصرنا مشاهداتنا على اللحظة الرّاهنة، فينبغي لنا أن نستخلص أنّ الولايات المتّحدة تنزع إلى ربط جزء من أوروبا بتبعيّة ماليّة سرعان ما تعقبها تبعيّة سياسيّة. فالدّائن القويّ بما يكفي يستطيع على الدّوام أن يفرض قوانينه على مدينه.

فهمت إنجلترا هذه الوضعيّة جيّدًا، ولكي تتفادى الرّزوح تحت وطأة الوصاية الماليّة الأمريكيّة، سارعت إلى تسوية دينها معها، وتطلّعت إلى قيام فرنسا بتسديده.

لو أمكن لهذه العمليّة المزدوِجة أن تنجح تمامًا، لتفادت الإمبراطوريّة البريطانيّة تبعيّتها الماليّة للولايات المتّحدة، في حين أنّ فرنسا كانت ستسقط في الوقت نفسه في التّبعيّة الماليّة لإنجلترا وأميركا.

نحن نعلم أنّه وجب على فرنسا، بعد ترتيبات معيّنة، أن تدفع دينها للولايات المتّحدة على اثنتين وستّين دفعة، حيث تبلغ قيمة الدّفعات الأولى ثلاثين مليون دولار (ما يُعادل 900 مليون فرنك في السنة بحسب سعر الصّرف)، أمّا الدفعات الأخيرة فتبلغ 125 مليون دولار (حوالي ثلاثة مليارات بالعملة الفرنسيّة). الواقع أنّ دين فرنسا الخارجيّ هذا كان ليتضاعف إذا أضفنا إليه دين إنجلترا.

رحّبت الصّحف الفرنسيّة بهذه الاتّفاقات، مع القليل من الانزعاج من هذا الاستسلام. تُلخِّص السّطور الآتية التي خطّها Gaulois الرّأي العام على نحوٍ وافٍ:

«نحن لا نعتقد أبدًا أنّه لا يُمكن لإنسان ذي عقل سليم، من جانِبَي المحيط الأطلسيّ، أن يتصوّر أنّ نظام سداد قاسٍ للغاية يُمكن أن تحتمله في فرنسا ستّة أجيال قادمة».

الحقيقة أنّ رقم الدّيون الفرنسيّة في طور أن يغدو رقمًا غير قابل للتّصديق، تمامًا كما هي الحال بالنّسبة إلى سدادها الذي سيُصبح قريبًا أمرًا محالًا.

كتبت إحدى أكبر الصّحف الإنجليزيّة Morning Post جملة تأمّلات بصدد وضعيّة فرنسا الماليّة الحاليّة:

«لحلفاء مدعوّون إلى تحمّل الأعباء التي نجمت عن الهزيمة، في حين أنّ الألمان ينعمون بالازدهار الذي يعود إلى المنتصرين. حقيقة الأمر أنّ الحرب جرت حصرًا على أراضي الحلفاء، أضف إلى ذلك أنّ حقيقة السّلم تكمن في أنّه ينبغي للحلفاء أن يتحمّلوا كلّ النّفقات».

لا تتّسع المظانّ هنا لتفحّص السلسلة الهائلة من الأخطاء الاقتصاديّة والدّبلوماسيّة التي قادت حكّامنا إلى الموافقة على دفع هذه المبالغ الباهظة لإنجلترا وأمريكا، في حين أنّ ألمانيا كانت تُخفّف أعباءها من خلال المؤتمرات المتتالية التي تُعقَد.

الواقع أنّ «الفرنسي المتوسِّط»، الغريب عن كلّ هذه الأخطاء، يرى فقط أنّ إنجلترا وأمريكا، اللتين استفادتا كثيرًا من الحرب، تُطالبان بدفع المستحقات إلى فرنسا، ونعني مستحقات عمليّة بدت مربحة جدًّا إلى حدّ أنّ اللورد كورزان Curzon صرّح أمام البرلمان قائلًا: «نّ المنافع التي عادت على بريطانيا من الحرب تخطّت كلّ ما كان يُمكن لها أن تحلم به».

إذا قَبِلَ الدبلوماسيّون الفرنسيّون، في بداية السّلم، بالتّرتيبات التي تتناقض نتائجها اليوم مع العقل الشّعبيّ السّليم، فذلك لأنّهم تبنّوا في تلك الحقبة ـ القريبة منّا بعدد السّنوات، والبعيدة عنّا تمامًا من حيث تغيّر الأفكار ـ آراء خاطئة إزاء تدخّلات أميركا وإنجلترا.

ففرنسا، برأيهم، تدين بالامتنان الأبديّ إلى إنجلترا وأميركا. ألم تأتِ هاتان القوّتان لتساندا فرنسا بسخاء من أجل الدّفاع عن الحقّ الذي ازْدُرِي؟

أظهرت كلّ الوثائق المنشورة منذ تلك الحقبة ـ من بينها اعترافات الأطراف المعنيّة نفسها ـ أنّ التّدخلات التي حصلت لصالح فرنسا لم يقف خلفها الإيثار على الإطلاق. الواقع أنّ إنجلترا وأميركا شاركتا في الحرب دفاعًا عن مصالحهما. إلى ذلك، لم تدخلاها إلّا في نهاية المطاف، وكان محالًا عليهما أن تتصرّفا على نحو مغاير.

في ما يتعلّق بإنجلترا، إذا كانت نيّتها الأساسيّة أن تنضمّ إلى فرنسا، لأعلنت ذلك قبل اندلاع الأعمال القتاليّة، عندئذ ما كان الإمبراطور الألمانيّ ليُقدِم على إعلان الحرب. الحقّ أنّها لم تُقرِّر المشاركة في الحرب إلّا عندما أظهر لها تقدُّم الألمان نحو أنتويرب Anvers وكاليه Calais الخطر الدّاهم الذي عُرّضت له قوّتها البحريّة.

في الحقيقة، تُعَدّ فرنسا حليفًا لا غنًى عنه لإنجلترا، تمامًا كما كتبت، وبحقّ، صحيفة Morning Post:

«ينبغي لنا أن نُعوِّل على فرنسا كي تأتي لمساعدتنا في مواجهة المخاطر القادمة. إنّ أمن فرنسا هو شرط ضروريّ لأمن إنجلترا».

لنفترض أنّ إنجلترا سمحت بخسارة فرنسا من خلال عدم الوقوف إلى جانبها، تُرى كم من الوقت سيمضي قبل أن تُعاني الإمبراطوريّة البريطانيّة المصير نفسه؟ إذا أمكن لبريطانيا العظمى أن تبقى على الحياد في حرب العام 1870، فذلك لأنّ ألمانيا لم تمتلك آنذاك أسطولًا كافيًا قادرًا على مواجهة الأسطول الإنجليزيّ.

في الحقيقة، شكّلت الحرب الأخيرة صراعًا بين تطلّعات الهيمنة التّجاريّة الألمانيّة والإنجليزيّة. يُمكننا القول إذًا، من دون تناقض أو مفارقة، إنّ إنجلترا جاءت لتُساند نفسها من خلال تقديم المساعدة لفرنسا. تُشكِّل أحداث صربيا وروسيا ببساطة أسبابًا عرضيّة لنزاع جعلته ظروف مختلفة نزاعًا عالميًّا، لكنّه لم يكن في العمق سوى حرب ضروس بين إنجلترا وألمانيا.

إلى ذلك، يُمكن أن تُصاغ ملاحظات مماثلة بشأن أميركا، التي لم تدخل الصّراع إلّا بعد تفجير سفنها التّجاريّة. على الرّغم من تردّدها، فقد انتهى الأمر بها إلى فهم الثّقل الذي سيُلقيه انتصارُ ألمانيا على كاهلها.

والحال أنّ فرنسا تهدّمت تمامًا بفعل الحرب، في حين أنّ إنجلترا والولايات المتّحدة حقّقتا منفعة هائلة من الصّراع.

«الحرب، كتبت صحيفة إنجليزيّة كبرى، حقّقت للولايات المتّحدة ازدهارًا كبيرًا، وجعلت منها الحَكَم الماليّ للعالَم».

الواقع أنّ ازدهار أمريكا الحاليّ لا يقبل الشكّ. لقد أمكن لها، دون عناء، أن تقترض من أوروبا أكثر من مئة مليار، وأن تُشكّل جيشًا عظيمًا، وأن تخلق من كلّ القطع أسطولًا ضخمًا. لقد نزعت، بفضل تقنيّة متقدّمة ومتفوّقة، ناتجة عن نظامها التّعليميّ، إلى تجاوز كلّ شعوب العالَم وذلك من وجهة نظر صناعيّة. الحقّ أنّها كانت تدفع لعمّالها أجورًا لا يُمكن أن يتلقوها في أيّ مكان آخر، ناهيك بكون رَغَد عيشهم يتفوّق على رغد عيش عدد كبير من البرجوازيّين الأوروبيّين.

يعود الازدهار الصّناعيّ وغنى مواطني الولايات المتّحدة إلى التطوّر الذي شهده النّظام الرأسماليّ، النظام الذي حمل له الاشتراكيّون الأوروبيّون عداءً شديدًا. بهذا المعنى نستطيع أن نفهم بسهولة الاحتقار الذي حملته الولايات المتّحدة للاشتراكيّين المثاليّين.

وبعد، يُمكن القول إنّ أوروبا أصبحت عاجزة، صناعيًّا وتجاريًّا، عن مواجهة القوى العظمى، مثل الولايات المتّحدة، وعن مواجهة هذا النّظام الاستبداديّ، لأنّها مالت إلى الانحناء أكثر فأكثر تحت وطأة الدّولانيّة.

لنضع جانبًا الأسباب، ولننعم النّظر في النّتائج فحسب، الحقّ أنّ الولايات المتّحدة باتت قادرة على حرمان أوروبا من ازدهارها القديم، وعلى أن تغدو القطب السياسيّ الكبير في العالَم.

في السّياق نفسه، لاحظت صحيفة إسبانيّة (Sol) بتاريخ 8 أيلول 1926 أنّه ينبغي لأوروبا أن تتوحّد لكي تمتلك قوّة تجاريّة وماليّة توازي قوّة الولايات المتّحدة، ولكي تنهض اقتصاديًّا.

«قبل الحرب، كان لأوروبا اعتمادات ماليّة هائلة في أميركا. على الرّغم من استقلال العالَم الجديد سيّاسيًّا، إلّا أنّه كان يدفع مبالغ ماليّة هائلة لأوروبا. كانت أوروبا ثمن الموادّ الأوّليّة والمواد الغذائيّة التي تلقّتها من أميركا، بالإضافة إلى الفوائد.

اليوم كلّ شيء تغيّر، لقد أصبحت أمريكا هي الدّائنة».

تُظهر السّطور الآتية، المقتطفة من تقارير لجنة خبراء التّعويضات، المنشورة في جريدة الـTemps بتاريخ 4 شباط 1927، إلى أيّ حدّ أصبحت الهيمنة الماليّة التي تمارسها الولايات المتّحدة ـ برأي ألمانيا ـ على أوروبا كبيرة:

«ألمانيا اليوم هي برمّتها بين أيدي الولايات المتّحدة. بعبارة أوضح، هيمنت الولايات المتّحدة تمامًا على ألمانيا نتيجة المبالغ الضّخمة التي أقرضتها لها. لذا لن تتوانى ألمانيا عن القيام بكلّ ما تُريده الولايات المتّحدة. وعليه، إذا وضعت أمريكا يدها على كلّ ما تدفعه ألمانيا، وهي تجهد في سبيل تحقيق ذلك، فإنّ ألمانيا ستتمثل لها».

إذا افترضنا أنّه ينبغي لإنجلترا وفرنسا أن تدفعا إلى أميركا المبالغ الماليّة الضّخمة نفسها التي تدفعها ألمانيا، فيُمكننا أن نتوقّع ما سيكون عليه الاستبداد الماليّ الأمريكيّ في المستقبل. إنّه شكل جديد من أشكال السّيطرة لم يعرفه العالم القديم من قبل.

إذا استمرّت أوروبا في إثقال كاهلها بالدّيون لصالح أمريكا، فبإمكاننا أن نتخيّل عندئذ الأشغال الشّاقّة التي ينبغي لها أن تقوم بها من أجل أن تُسدِّد سنويًّا دينًا ثقيلًا لأمّة أصبحت ثريّة ثراءً لا يعرف حدًّا، في حين أنّها ستفتقر افتقارًا كبيرًا. الحقّ أنّه شكل جديد من أشكال العبوديّة.

مع ذلك، يبدو هذا السيناريو المستقبليّ مستبعدًا لجملة اعتبارات أبرزها أنّ التطوّر الذّهنيّ الحاليّ الذي يشهده العالَم جعل الشّعوب تُفضّل اللّجوء إلى الحرب عوضًا عن القبول بأيّ شكل من أشكال العبوديّة.

(56) يجوز في السّوق التّذكير والتأنيث.

(57) مكبث (بالإنجليزية: Macbeth) في بعض الدول تنطق ماكبث، هي قصيدة تراجيدية للمسرحي الإنكليزي ويليام شكسبير عن القائد الإسكتلندي مكبث الذي يغتال ملكه دنكن

ليجلس على عرش إسكتلندا مكانه.

(58) ويليام شكسبير، **مكبث**، ترجمة حسين أحمد أمين، القاهرة، دار الشّروق، الطّبعة الأولى، 1994، ص54.

(59) آل ميديشي Medici أحد أشهر عائلات فلورنسا، والتي لعبت الدور الأهم في تاريخها اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. وخرج من هذه العائلة ملكتين وثلاثة بابوات. مؤسسها جوفاني دي بيتشي دي ميديشي. تاجر أفرادها بالصوف، ثم عملوا في القطاع المصرفي في فلورنسا، فاكتسبوا ثروة طائلة وسلطة واسعة، حيث كان مصرف ميديشي أحد أكثر المصارف ازدهارًا واحترامًا في أوروبا. وهنالك بعض التقديرات تشير إلى أن آل ميديشي كانوا لفترة من الزمن أغنى أسر أوروبا. وعلى هذا الأساس اكتسبت العائلة السلطة السياسية في فلورنسا بادئ الأمر، ثم على نطاق أوسع في إيطاليا وأوروبا. باستثناء فترات قصيرة حكم آل ميدشي فلورنسا من عام 1434 إلى عام 1737. وقد عرفت هذه الأسرة برعايتها للفن والفنانين. أنجبت الأسرة ثلاثة باباوات (ليو العاشر وكليمنت السابع وليو الحادي عشر)، والعديد من حكام فلورنسا (لا سيما لورينزو راعي بعض أشهر الأعمال الفنية في عصر النهضة)، وفي وقت لاحق من أعضاء العائلات المالكة الفرنسية والإنكليزية. كغيرها من الأسر الحاكمة (signore) كانت تهيمن على حكومة المدينة. كانوا قادرين على إبقاء فلورنسا تحت سيطرتهم مُهَيِّئين بيئةً أمكن فيها ازدهار الفن والإنسانية. قادت العائلة ولادة النهضة الإيطالية جنبًا إلى جنب مع غيرها من الأسر الكبرى في إيطاليا مثل آل فسكونتي وآل سفورزا من ميلانو، آل إستي من فيرارا، آل غونزاغا من مانتوفا وغيرهم. انظر: ويكيبيديا.

# الكتاب الخامس: ضرورات تُحدِّدُ عمل المؤسّسات السياسيّة

**لماذا تسير أوروبا نحو الدِّكْتاتورية**

# الفصل الأوّل تقهقر النّظام البرلمانيّ وتطوّر الشّعوب نحو الدِّكْتاتورية

بحث كثيرٌ من الكتّاب، من أفلاطون وأرسطو إلى مونتسكيو، في مزايا مختلف أشكال الحكومات وفي سيّئاتها: ملكيّة، جمهوريّة، إلخ.

كان علينا أن ننتظر الأزمنة الحديثة لكي نفهم أنّ المؤسّسات تُعبِّر عن حاجات شعبٍ في حقبة زمنيّة مُحَدَّدة، ولا تتعلّق البتّة بنزوة المشرّعين. فالقيصريّة لم تخلق يوليوس قيصر، بل فرضته. ولو لم يقم بونبارت بوضع حدّ للفوضى الثّوريّة لَفَعَل ذلك قائد آخر. بعبارة أخرى، ما كان نابليون الثّالث ليحصد سبعة ملايين صوت لو لم يُبدِ خشيته من الاشتراكيّين.

لقد بدا واضحًا اليوم، بالنّسبة إلى الشّعب بعامّة، والمتطرّفين بخاصّة، على الرّغم من الأوهام التي ما زالت منتشرة، أنّ المؤسّسات السّياسيّة لا تُشرِّع أبدًا. الواقع أنّها تولد من حاجات البلد، ومن وضعيّته الجغرافيّة، إلخ. على سبيل المثال، في الأزمنة الغابرة، فيضانات النّيل هي الّتي حدّدت الحياة السياسيّة والاجتماعيّة لمصر.

في أيّامنا هذه، لم تكفّ أهميّة التأثيرات الخارجيّة عن التّعاظم، فامتلاك الفحم هو الذي أفضى إلى التطوّر الصّناعيّ في إنجلترا، ومن ثمّ ألمانيا، وتطلّعاتهما إلى الهيمنة.

تُغيّر الشّعوب مؤسّساتها في بعض الأحيان، لكنّها تكتفي، في الغالب، بتغيير الأشكال الخارجيّة. إنّ المركزيّة الحديثة لفرنسا لم تفعل شيئًا سوى أنّها عزّزت مركزيّة النّظام الملكيّ. قل كذلك عن ألمانيا الدّيمقراطيّة اليوم التي تُشبه وتُجاور ألمانيا الأمس الملكيّة. لقد قلنا وبحقّ:

«منذ الحقبة التي برز فيها هيغل، أخضع الفكرُ الألمانيّ، والفلسفةُ الألمانيّة، والأدب الألمانيُّ الفردَ للدّولة. الحقّ أنّها امتصّته جميعًا في داخل الدّولة، في حين أنّ الدّيمقراطيّة أُسّست تحديدًا على التّعارض بين الفرد والدّولة، وعلى سيادة الفرد التي تتحكّم بالدّولة».

على الرّغم من هذه البديهيّات، فإنّ الأوهام المتعلّقة بقدرة القوانين الإصلاحيّة تبقى عامّة. في هذا السّياق، طالب جحافل المشرّعين، على الأقلّ لدى الشّعوب اللاتينيّة، بتحويل الحياة الاجتماعيّة إلى مجموعة من المراسيم.

من دون شكّ، ثمّة ظروف استثنائيّة سمحت للثّوريّين الرّوس أن يُحوّلوا حياة روسيا الاجتماعيّة. لكنّ هذا التّحوّل الظّاهريّ، بعيدًا من أن يكون متناقضًا مع المفاهيم السّابقة، لم يفعل شيئًا سوى أنّه برّرها. في الواقع، نحن نرى أنّه على الرّغم من وجود سلطة مطلقة، وعلى الرّغم من المجازر التي ارتُكِبت بحقّ المعارضين، فإنّ النّظام الشّيوعيّ الدولانيّ الرّوسيّ، الذي فُرِض عن طريق القوّة، ارتدّ تدريجيًّا إلى نظام المبادرة الفرديّة، وإلى الرّأسماليّة، والملكيّة الفرديّة.

يكفي أن نُشير هنا إلى الملاحظات التي دوّنها أحد الدّبلوماسيّين في مجلّة Hebdomadaire:

«ها هم الرّوس يقبلون بالعودة إلى النّظام الطّبيعيّ الذي يحكم كلّ المجتمعات الإنسانيّة: الملكيّة الخاصّة، وحريّة تنظيم المعاملات التّجارة، والإرث...

لم تحتفظ الدّولة إلّا بالتّجارة المتعلّقة بالاستيراد والتّصدير».

إذا أمكن للنّظام الشّيوعيّ أن يستمرّ في روسيا، على الرّغم من تصادمه مع كثير من شروط وجود الشّعوب الأساسيّة، فذلك يعود ببساطة إلى الفلّاحين الذين دافعوا عنه، لا سيّما بعد أن وُزِّعَتِ الأراضي عليهم. علاوة على ذلك، سبقَ لي أن لاحظتُ أنّه إذا أمكن للثّورة الفرنسيّة أن تستمرّ لبعض الوقت، على الرّغم من أعمال العنف التي ارتكبتها، فذلك يعود إلى سبب مماثل مفاده بيع ممتلكات الأسياد إلى الطّبقة البرجوازيّة بسعر بخس. وعليه، ما دام الفلّاحون أسياد الأرض، لن يقبلوا بالعودة إلى النّظام القديم.

لا تكمن الصّعوبة الكبيرة التي يُصادفها أيّ شعب في اختيار المؤسّسات الأفضل، بل بقَبُول المؤسّسات التي تتكيَّف مع بنيته الذّهنيّة. فهو ينتقل من ثورة إلى أخرى قبل أن يكتشف المؤسّسات التي تتناسب معها.

نحن نعيش حقًّا في عصر فقدت فيه الشّعوب إيمانها بالمؤسّسات التي لم تستطع أن تُجنِّبها الخراب الذي تسبّبت فيه حرب كارثيّة، لذا راحت تبحث عن استبدالها. الحقّ أنّها تتوجّه نحو الأشكال السياسيّة الأوضح، أي الأبسط، ولذلك انتشر النّظام الأتوقراطيّ المستبدّ في كلّ مكان.

من بين الأسباب الرّئيسة لهذا التطوّر الجديد، يُمكن أن نذكر ضعف المجموعات التي كوّنتها البرلمانات أمام تعقيدات العصر الحديث.

فطالما ظهرت التّجمّعات البرلمانيّة عاجزة عن حلّ المشكلات الصّعبة. حقيقة الأمر أنّ قدرتها ضعيفة، كما هي حال كلّ المجموعات. فهي تخضع دائمًا لبعض القادة، الذين هم بدورهم عبيد لقادة آخرين: النّوادي السّياسيّة في خلال الثّورة الفرنسيّة، واللجان الانتخابيّة والمجالس في أيّامنا هذه. نحن نعلم وفق أيّ احترام وخشية ينتظر اشتراكيّو مجلس النّوّاب الحاليّ قرارات مؤتمرات حزبهم: إمّا السّماح لهم بالدّخول في التّركيبة الوزاريّة، وإما منعهم، إلخ.

في كلّ تجمّع سيّاسيّ، في العصر الثّوريّ كما في أيّامنا هذه، تتوصّل الجماعات المتطرِّفة ذات الإرادة القويّة سريعًا إلى السّيطرة على الجماعات المعتدلة ذات الإرادة الضّعيفة.

مهما بلغ مقدار تقدّم أيّ حزب، فإنّه يرى نفسه مهدّدًا على الدّوام من قِبَل حزب آخر لا يتوانى لكي يحلّ محلّه عن المزايدة في كلّ قضيّة من قضاياه التي يطرحها.

الحقّ أنّ ظاهرة المزايدة هذه، التي أفضت إلى جعل البرلمانات ضعيفة للغاية، تُلاحظ دائمًا لدى التجمّعات الكبرى. وذلكم ما اشتكى منه بالفعل الكاتب Camille Desmoulins(60). لقد قادت المزايدة هذه الجيروندييّين إلى المقصلة، حيث تبعهم سريعًا مزايدون آخرون: دانتون Danton ومن ثمّ روبسبيار Robespierre.

اليوم كما الأمس، من شأن المزايدة التي تُعتَبر مفيدة مؤقّتًا لأصحابها، أن تجعل منهم أشخاصًا منبوذين ومكروهين. لقد اختبر برلمانيّونا هذا الأمر عندما وجدوا أنفسهم مضطرّين إلى رفع الضّرائب من بعد أن وعدوا ناخبيهم بتقليص هذه الضّرائب من أجل الحصول على أصواتهم.

في ظلّ التطوّر الحاليّ للعالَم، ظهرت برلماناتُ دولٍ أوروبا كثيرة عاجزةً عن الاضطلاع بالمهام التي أوكِلَت إليها، كما جرى حلّها في دول أخرى، مثل إسبانيا، أو استبدالها، كما حصل في إيطاليا، إذ حلّ محلّ البرلمان الإيطاليّ ديكتاتور قادر على حكم البلاد.

لقد أصبح عجزُ البرلمانات عن التكيّف مع الشّروط الجديدة التي فرضها التطوّر الحديث بديهيًّا، إلى حدّ أنّ الصّحف البريطانيّة راحت تُبشِّر بنهاية الحقبة البرلمانيّة في بريطانيا التي تُعتبر مهد النّظام البرلمانيّ. إليكم كيف عبّرت حديثًا la Westminster Gazette عن هذا الموضوع:

«الواقع أنّ النّظام البرلمانيّ فَقَدَ أرضيّته في كلّ أوروبا الشّرقيّة. فالأحزاب المحافظة لا تُحبِّذ نظامًا يستتبع وجود حكومة ضعيفة، حكومة لا تكتسب وجودًا مؤقّتًا إلّا من خلال

التّسويات. لقد أدرك الاشتراكيّون جيّدًا أنّه لن يكون بمقدورهم أن يقوموا ببعض الإصلاحات الاجتماعيّة في ظلّ النّظام الحاليّ. لذلك لا يدعمونه كما يفعل المحافظون. وعليه، نسنطيع التأكيد أنّنا سنتجاوز حقبة حكومات أتوقراطية».

الحقّ أنّ نوّابنا مَحُوطون بجوّ من الأوهام بحيث يتعذّر على الحقائق أن تتجاوزها. لقد انحنوا أمام هيمنة الاشتراكيّين المتسلّطين والمتوعِّدين وشديدي الجلبة، كما شعروا بالخوف من النّاخبين لا سيّما بعد أن أطلقوا لهم وعودًا غير قابلة للتّحقّق، فمن شأن هؤلاء النّاخبين أن يُصوّتوا للإجراءات الأخطر، وأن يغرقوا في الجدل البيزنطيّ، وأن يُطيحوا بالوزراء ملتمسين الذّرائع الأوهن. في هذا السّياق، وصف المراسل السّابق للجنة المال السيّد لامورو M. Lamoureux، من خلال العبارات الآتية وضعيّة الحياة البرلمانيّة:

«كان عليّ، في غضون ستّة أشهر فقط، أن أتعامل مع سبعة وزراء ماليّة، وأربعة رؤساء مجالس إدارة، وأن أدعم أربعة مشاريع موازنة».

إذا قُدِّر للنّظام البرلماني أن يستمرّ في بعض الدّول، فينبغي له أن يخضع حتمًا للتحوّل الآتي:

يجب أن يمنح البرلمانُ رئيسَ مجلس الوزراء سلطة دِكتاتورية تتراوح مدّتها بين أربع وخمس سنوات.

مارس السيّد لويد جورج في إنجلترا، في خلال أربع سنوات، دكتاتوريّة مماثلة، لكن أُطِيحَ به بفعل صوتٍ بسيط في البرلمان، لذلك ينبغي لرؤساء الوزراء المستقبليّين أن يمارسوا سلطتهم بشكل مستقلّ عن هذه الأصوات.

يبدو أنّ تطوّرَ الحكومات الأوروبيّة نحو أشكال الدكتاتورية المختلفة أمرٌ حتميّ. مع ذلك، من المحال أن نُشير على وجه اليقين من أي أحزاب سياسيّة سيبرز الدّكتاتوريّون المستقبليّون.

يرى العالِم التّاريخيّ مادولين Madelin في دراسة هامّة، من بعد أن يُشدِّد على مسيرة أوروبا باتّجاه القيصريّة، يرى أنّ «الدكتاتوريين لا يخرجون، بصفة عامّة، من الأحزاب المسمّاة رجعيّة، بل على العكس، يخرجون من أحزاب اليسار». فنابليون كان مدعومًا من المونتناردييّن(61) الذين نجوا من المقصلة، وموسيليني كان ينتمي، قديمًا، إلى الحزب الاشتراكيّ التقدّميّ. من دون شكّ، يُمكن أن يخرج الدّكتاتوريّون من الحزب الشّعبيّ. لذلك بإمكان الدّكتاتور المستقبليّ أن يكون دكتاتورًا اشتراكيًّا يُذكّرنا بكومونة باريس(62) في العام 1871، والمجازر المروِّعة التي ارتكبتها، وحرق أجمل آثار العاصمة. لكنّ التّاريخ يُظهر أيضًا أنّ الدّكتاتوريّين يُمكن أن يأتوا من أحزاب قوية للغاية. فالدّكتاتور سيلا كان رئيس الحزب الأرستقراطيّ، وماريوس Marius رئيس الحزب الشّعبيّ. في أيّامنا هذه، نابليون الثّالث، الذي كان ينبغي أن يُعتبَر في بداياته دكتاتورًا، دفعه اليمين إلى السّلطة أكثر ممّا دفعه اليسار، ومن الصّعوبة القول إنّ الدّكتاتور الإسبانيّ دو ريفيرا Primo de Rivera كان يُمثِّل الأحزاب المتقدِّمة في إسبانيا.

أيًّا تكن هذه التّفسيرات، يُمكننا القول إنّه إذا أمكن للثّورة السّياسيّة الحاليّة في أوروبا أن تستمرّ، فإنّ الشّعوب ستُلفي نفسها مضطّرة إلى الاختيار بين دكتاتور فاشيّ، ودكتاتور عسكريّ، أو دكتاتور شيوعيّ.

ليست قوّة المثال الدّيمقراطيّ هي التي ستحفظ الدّول الأوروبيّة من الدّكتاتوريّين. هذا المثال تغيّر بعمق منذ الثّورة الفرنسيّة. لم يبقَ من الشّعار القديم: «حريّة، مساواة، أخوّة» الذي طالما حُفِر على جدران بلادنا، إلّا المساواة، إذ احتفظت وحدها بمكانتها. فقد جرى استبدال صراع الطّبقات بالأخوّة، والحريّة، ولم تُحرِّك الأحزاب السّياسيّة أيّ ساكن.

سوف نُبيّن سريعًا كيف تحوّلت الملكيّات الدّستوريّة إلى دكتاتوريّات في العديد من الدّول الأوروبيّة الكبرى.

بعيدًا من الاعتبارات السّيكولوجيّة السّابقة، فإنّ الحركة التي تلوحُ أكثر فأكثر في أوروبا ضدّ البرلمانيّة يُمكن أن تُعتَبر بمثابة مرحلة جديدة من الصّراع القديم بين القوى الفرديّة

التي طالما حكمتِ العالَم ووجّهت القوى الجمعيّة الّتي طالبت بأن تحلّ محلّها.

تبقى القوى الجمعيّة كبيرة، لكنّها تفتقر إلى القيادة، لذا تُعتبَر قوى تهديميّة. حالما يرتقي شعب إلى بعض أشكال الحضارة المعقَّدة، تُصبِح السّلطات الجمعيّة، مثل البرلمانات، عاجزة عن حكمه.

الواقع أنّ القوى الفرديّة ـ التي يُمكن أن تكون بنّاءة ـ ضروريّة من أجل قيادة القوى الجمعيّة. يُمثِّلُ الفكر الفرديّ بالنّسبة إلى القوى الجمعيّة ما تُمثِّله دفّة السّفينة بالنّسبة إلى حجمها الهائل. تبدو هذه الدّفّة ضعيفة، لكن من دونها سوف تتكسّر السّفينة سريعًا على الصّخور.

لم يكن الصّراع بين القوى الفرديّة والجمعيّة عنيفًا كما هي الحال اليوم. النّقابيّة، والشّيوعيّة وكلّ التّغيّرات التي لحقت بالاشتراكيّة تحالفَت ضدّ الفرادنيّة. إنّ التّجربة الضّخمة والحاسمة التي شهدتها روسيا لم تُغيّر أحدًا بعد.

إلى ذلك، كرّستِ البرلمانيّة، المتحدِّرة من الأصوات الشّعبيّة، ضربًا من التّسوية بين الفكر الفرديّ والقوى الجمعيّة. لكن في ظلّ ضرورات التطوّر الحاليّ، أصبحت البرلمانات، بسبب الدّونيّة السّيكولوجيّة التي استشعرتها كلّ الجماعات، عاجزة تمامًا، وذلك منذ اللّحظة التي لم تجد على رأسها شخصيّة قويّة بما يكفي. ولذلك تحوّل رؤساء الوزراء منذ سنين خلت، كما أسلفتُ أعلاه، إلى دكتاتوريّين حقيقيّين.

وهكذا، ستتوصّل الفردانيّة، عبر طرق جديدة بالتّمام، إلى استعادة دورها القياديّ للعالَم. وعليه، إذا تحتّم علينا أن نستسلم لقوّة الجماهير الغاشمة والعمياء، فإنّ الحضارات الكبرى سوف تُعاني انحطاطًا يسبق قليلًا نهاية تاريخها.

# الفصل الثّاني: الأشكال الحديثة للدكتاتوريّة في أوروبا

ارتدت الدّكتاتوريّات الجديدة، التي وُلِدت في أوروبا، أشكالًا جديدة وفقًا للدّول التي انتشرت فيها: البروليتاريّة في روسيا، والعسكريّة في إسبانيا، وتركيا، وبولندا، واليونان، وسياسيّة في إيطاليا.

لنضع جانبًا دكتاتوريّة البروليتاريا الرّوسيّة، التي تختلف نظريًّا فقط عن القيصريّة القديمة، والدّكتاتوريّة اليونانيّة التي لا تُمثِّل إلّا صراع طموح عسكريّ، والدّكتاتوريّتينِ البولنديّة والتّركيّة اللّتين تبقيان نظامًا نصف دستوريّ، لنضع كلّ هذا جانبًا، فنحن لن نتفحّص هنا إلّا الدكتاتوريّتين الإيطاليّة والإسبانيّة. وننتقل بعدها للحديث باختصار عن نصف الدّكتاتوريّة التي ظهرت فجأة في فرنسا في حقبة سقوط الفرنك الفرنسيّ.

خرجت الدّكتاتوريّة الإيطاليّة من الفوضى الكبيرة التي أغرقَ الاشتراكيّون والنِّقابيّون إيطاليا فيها. فأعمال القتل والنّهب لم تُعَدّ آنذاك ولم تُحصَ. الجيش ظلّ لا مباليًا، والملك ضعيفًا.

نحن نعلم كيف قام مواطِنٌ نشيط، السيّد موسوليني، بوضع حدّ للفوضى من خلال سيرِه إلى روما على رأس كتيبة من المقاتلين القدامى، وأجبر الملك على الاعتراف به رئيسًا لحكومته.

استقبله الشّعب الإيطالي استقبال الفاتحين والمخلِّصين. في الواقع، نجح هذا الدّكتاتور في التخلّص من تأثير البرلمان، وعرف كيف يُعيد تنظيم البلاد سريعًا.

في هذا السّياق، لخَّصت صحيفة le Matin أبرز العقائد التي نادى بها السيّد الجديد:

«تحدَّث موسوليني عن مبادئ 1789 بوصفها مبادئ تتناقض مع المبادئ التي يُنادي بها. لقد استبدل التدرّج الاجتماعيّ بالمساواة، والانضباط بالحريّة، والولاء للحزب بالأخوّة».

الواقع أنّ طاقة هذا الدكتاتور وقدرته على الحكم جعلتاه يقبل كلّ الأحزاب، بما في ذلك الحزب الشّيوعيّ والنّقابيّة. والحال أنّ قادة اتّحاد العمّال طالبوا بالانضمام إلى الحكومة الجديدة. والجدير بالذّكر أنّ الكثير من الاشتراكيّين عَدَلوا عن نظريّاتهم.

علاوة على ذلك، لم يُشكِّل هذا التحوّل في موقف الاشتراكيّين ظاهرة جديدة بالتّمام. لكن ما يُثير الدّهشة حقًّا هي سرعة هذا التحوّل.

بهذا المعنى، صَرَّح واحد من ألمع الاشتراكيّين بـ«موت الاشتراكيّة الإيديولوجيّة». وأضاف، وبحقّ، أنّ الحرب زوَّدته بتجربة حاسمة مفادها أنّ «شعور العرق تفوّق دائمًا على الأيديولوجيا المتعلِّقة بالوحدة العالميّة للطّبقة».

زوَّدنا الدّكتاتور الإيطاليّ بتجارِبَ لا تقبل الشكّ حول قدرته السيّاسيّة. بالنّسبة إليه: «الانقسامات بين البرجوازيّة والبروليتاريا هي طرق قديمة في التّصنيف ولّى زمنها».

إلى ذلك، أخذ بالحسبان أنّ قوّة رؤساء الدّول، والملوك، والوزراء أو الدّكتاتوريّين، في الأزمنة الحديثة، تتوقّف في جزء كبير على الظّروف الاقتصاديّة الخارجيّة التي لا يُمكن للحكومات أن تتسيَّد عليها. على سبيل المثال، تتوقّف الحياة الصّناعيّة في إيطاليا في جزء كبير منها على إنجلترا وعلى دول كثيرة أخرى تزوّدها بالفحم الذي لا تملكه البتّة. هذه الضّرورات التي لم يعرفها العالَم بعد تؤثّر بشكل ملحوظ في السّياسة الخارجيّة للأمم التي تُلفي نفسها، في نهاية المطاف، خاضعة لها.

من أجل غرسِ أهميّة الظّروف الاقتصاديّة، التي تحكم اليومَ حياة الشّعوب، في النّفس البسيطة للجماهير، اقترح الدّكتاتورُ الإيطاليّ إعطاءَ وزيرٍ لمنظَّمات العمل، بُغية «إقناعهم

بأنّ إدارة دولة ما هو أمر بالغ الصّعوبة والتّعقيد بحيث ينبغي ألّا تُرتَجَل ارتجالها ارتجالًا، ولا تُفتح صفحة جديدة بالتّمام كما حصل إبّان بعض الثّورات».

في اليوم الذي تُغرَس فيه هذه الحقائق في نفوس الجماهير يُمكن أن نُحقّق تقدّمًا حقيقيًّا.

بانتظار ذلك اليوم، اتّخذ الدّكتاتور إجراءاتٍ حكيمة جدًّا لا يُمكن لأيّ برلمان أن يفرضها.

«لقد فهم تمامًا، أنّه خلافًا للنظريّات الاشتراكيّة، ينبغي لأيّ حكومة حديثة أن تترك للمبادرة الخاصّة أقصى حدٍّ ممكن من حريّة التصرّف، والعدول عن كلّ تشريع، وتدخّل، وعوائق يُمكن أن تُرضي حتمًا الدّيماغوجيّات البرلمانيّة، لكنّها، كما أثبتت التّجربة، لا تقود إلّا إلى نتائج ضارّة. الواقع أنّ كلّ الأنظمة الاقتصاديّة التي تنفي حريّة المبادرة، والدّوافع الفرديّة، ستُصبِح عرضةً في مدّة وجيزة لإفلاس تامّ.

إلى ذلك، اقترح الدّكتاتور، رغبةً في تطبيق هذه المبادئ، منحَ الصّناعة الخاصّة احتكارات كثيرة، وتحديدًا احتكار صناعة الهواتف».

تُمثّل هذه المعايير الرّشيدة تمامًا نقيض ما أراد الاشتراكيّون تحقيقه في فرنسا.

وبعد، لا يُمكن أن يحظى عمل موسوليني بالتّقدير إلّا إذا أخذنا بالحسبان المنفعة بوصفها عنصرًا من عناصر الحكم. في هذا السّياق، شكّل تشرشل(63) الرّأي العام الأوروبيّ من السّفارة الإنجليزيّة في روما، أمام تجمّع الصّحافيّين في لقاء معهم، وأوردت صحيفة Le Matin بتاريخ 21 كانون الثّاني 1927 المقتطف الآتي:

«من العبث تمامًا القول إنّ الحكومة الإيطاليّة لا تستند إلى أساس ديمقراطيّ.

لو كنتُ إيطاليًّا، لوقفتُ معكم، منذ البداية حتّى النّهاية، في كفاحكم الذي لا يعرف إلّا النّصر.

الواقع أنّ حركتكم قدّمت خدمةً للعالَم بأسره.

أثبتت إيطاليا أنّه توجد طريقة لمواجهة قوى التّخريب. تكمن هذه الطّريقة في دعوة الكتلة الشّعبيّة إلى التّعاون المخلِص مع الدّولة. لقد أثبتت إيطاليا أنّها بدفاعها عن الشّرف وثبات المجتمع المدنيّ، أعطت التّرياق الضّروريّ للسُّمّ الرّوسيّ».

لنترك إيطاليا جانبًا ـ التي شكّلت مثالًا نادرًا على أنّ الدكتاتوريّة طويلة الأمد كانت نافعة لشعبٍ من الشّعوب ـ ولننتقل إلى الحديث عن إسبانيا.

قاد الدّكتاتوريّةَ الإسبانيّةَ ضبّاطٌ، على رأسهم الجنرال دو ريفيرا. لقد كانت هذه الدّكتاتوريّة، كما في إيطاليا، تبعة من تبعات حالة الفوضى التي ظلّت المـَلَكيّةُ عاجزةً حيالها.

اعتبر الدّكتاتور في تصريحاته أنّ الاغتيالات التي يُنفّذها الاشتراكيّون(64) تضاعفت وباتت تُثير القلق. فمنذ ثلاث سنوات، سقط مئات المواطنين بضربات المتطرّفين. من بين هؤلاء الضّحايا رئيس مجلس، ورئيس أساقفة، وأربعة حكّام مدنيّين، والعديد من أرباب الصّناعات. علاوة على ذلك، لم يحترم النّقابيّون والشّيوعيّون بعضهم بعضًا. فقد اغتيل رئيس اتّحاد النّقل من قِبَل متطرّفين أكثر تطرّفًا منه.

لم يُعاقَب أحد على أعمال القتل هذه. اهتزّ القضاء، وبدأت الفوضى تستحوذ على الجيش. إلى ذلك، طالبت المجالس العسكريّة ـ تجمّعات ذات طابع سوفياتيّ ـ بفرض إرادتها على الوزراء، وتنظيم شروط التقدّم، إلخ. العصيان أصبح عامًّا، وطالبت أقاليم كثيرة بالانفصال.

الحقّ أنّ وجود الدّكتاتور الإسبانيّ كان ضروريًّا شأنه في ذلك شأن وجود الدّكتاتور الإيطاليّ. فبعد استبعاد الوزراء والبرلمان، حكم الدّكتاتور الإسبانيّ بلاده بواسطة مجلس مؤلَّف من عشرة جنرالات.

في هذا السّياق، صَرّح الجنرال دي ريفيرا بأنّ هذا المجلس سيستمرّ «إلى أن يُصبِح النّاس قادرين على حكم إسبانيا، من بعد أن يكتسبوا خُلُقًا رفيعًا».

ما زالت إسبانيا تبحث عن مثل هؤلاء النّاس.

وبعد، لأنّ الملك كان مقتنعًا بالضّعف المتزايد للحكومات الدّستوريّة، راح يُمارس كلّ إرادات الدّكتاتور، بما في ذلك مصادرة الأموال الخاصّة العائدة إلى الوزراء السّابقين الذين اختارهم بنفسه. لقد فكّر، من دون شكّ، وهو يُوقِّع على إجراءات كهذه، في أنّ الأمر سينتهي بالملوك الحديثين إلى امتلاك حريّة أقلّ من الحريّة التي يملكها أبسط رعاياهم.

في اللّحظة التي أكتب فيها هذه السّطور، ألفى الدّكتاتور الإسباني نفسه مُهدّدًا من قِبَل قانون عام ينطبق على كلّ الدكتاتوريين العسكريّين، ومن قِبل جنرالات عسكريّين طَمُوحين راحوا ينافسونه بشدّة، ويرغبون في أن يَحُلّوا محلّه في السّلطة. يُعطي تاريخ الجمهوريّات الإسبانيّة في أميركا فكرة واضحة للغاية عن مصير البلاد التي تتفوّقُ فيها قوّةُ المنافسات الفرديّة فيها على قوّة القوانين.

لم تُجبر فرنسا على تحمُّل نظام دكتاتوريّ مُطلق مثل النّظام الذي خضعت له إيطاليا وإسبانيا. لكن من أجل إنقاذها من الفوضى الماليّة التي باتت تُهدِّدها، وجب منح رئيس المجلس سلطة نصف دكتاتوريّة مفادها الحقّ في صياغة مراسيم من دون أخذ رأي البرلمان. في هذا السّياق، عرضت المجلّة الإنجليزيّة New Statesman للحوادث التي أفضت إلى هذه الوضعيّة من خلال العبارات الآتية:

«استمرّ الفرنك الفرنسيّ في التّراجع. لذا شكَّل السيّد بريند M. Briand وزارة ماليّة جديدة مع السيّد كايّو Caillaux.

لم يتمكّن السيّد كايّو من كسب ثقة الرأي العام. إذ راحت قيمة الفرنك تنخفض أكثر فأكثر من دون توقّف. أمّا مجلس النوّاب فكان يغلي غليًا. وراح الرُّعاع يُعبّرون عن غضبهم. وهُرِّبَ رأس المال من البلاد. فالخزانة كانت فارغة. وعليه، لعب السيّد هيريوت M. Herriot دورَ مانعِ الصّواعق عندما أطاح بوزارة السيّد كايّو في 17 تمّوز. بيد أنّ وزيره البديل أُطِيحَ به بعد أقلّ من يوم واحد. لمّا بلغت قيمة الفرنك 250 جنيه إسترليني،

خرجت الجماهير إلى الشّوارع وطالبت الأحزاب بالهدنة. عندها ألقت كتلة اليسار سفينتها على الصّخور، وباتت فرنسا قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، حينها قبل السيّد بوانكاريه M. Poincaré بالاضطلاع بواجب كبير. لقد عمل بسرعة، وضمَّد الجراح سريعًا. توقّف الفرنك عن التّراجع، بعد أن وصل إلى حدود الهاوية، وأُسِّسَ صندوق الاستهلاك لكي يدعم الخزانة. وقام مجلس النوّاب، من بعد أن استشعر الخطر، بكلّ ما طُلِبَ إليه. وسريعًا أجرى السيّد بوانكاريه تصويتًا على القوانين، وحصل على تفويض تمكّن بموجبه أن يحكم عن طريق إصدار المراسيم التي يراها مناسبة، هذا الإجراء الذي يُحاربه النّواب اليوم بشدّة. وبعد، صُدِّقَ على الموازنة في غضون 63 يومًا. لم تشهد فرنسا منذ عصور عملًا رائعًا مثل العمل الذي قام به بوانكاريه».

بغضّ النّظر عن مستقبل الأنظمة المختلفة، يجب علينا الاعتراف بأنّ الشّعوب لم تُدْفَع نحو تبنّي أشكال دكتاتورية مختلفة، إلّا لأنّ هذه الأشكال تتناسب مع الضّرورات الجديدة التي انبثقت عن التطوّر الحديث للعالَم.

# الفصل الثّالث: الأسباب السّيكولوجيّة لخطر الدّكتاتوريّات

بعد أن بَيَّنا فائدة الدكتاتوريات في بعض فترات حياة الشّعوب، ينبغي لنا أيضًا أن نُبيِّن مخاطرها.

تخرج سلطة الدّكتاتور، بتعريفها، على كلّ سيطرة، ويُمكن لأخطائها، كما أثبت التّاريخ، أن تقود الشّعوب إلى كوارثَ لا يُمكن تداركها. عندما شجّع نابليون الثّالث سَحْق بروسيا للنّمسا، غير آبهٍ بمصالح فرنسا الأكثر بداهة، كان يُعِدّ العُدّة لهزيمته في العام 1870، ويُعدّ العدّة لحرب العام 1914 التي تُمثِّل سببًا بعيدًا من أسباب تشجيعه هذا.

في خلال الصّراع العالميّ، الذي اندلع نتيجة سلسلة من الحماقات، حيث شكّلت كلّ حماقة فعلًا دكتاتوريًّا، قاد غِيُّوم الثّاني تُجّار الولايات المتّحدة السّلميّين إلى الدّخول في النّزاع. كلّفه هذا الخطأ الفادح خسارة حرب ظلّت نتائجها محلّ شكّ كبير قبل التدخّل الأمريكيّ.

ذكرتُ سابقًا أنّ إنجلترا ارتكبت أخطاء مماثلة، وتحديدًا عندما قام الوزير لويد جورج باستخدام سلطته الدّكتاتوريّة ليُطلِقَ العنان لليونان ضدّ تركيا أملًا بغزو القسطنطينيّة بشكل غير مباشر.

الواقع أنّ السياسة الدكتاتوريّة نفسها التي مارسها الوزير نفسه ضدّ فرنسا لم تكن محمودة، إذ كادت هذه السّياسة تُفقِد إنجلترا تحالفًا ضروريًّا بالنّسبة إليها، وضروريًّا أيضًا لحليفها السّابق.

تُظهِر أمثلةٌ أخرى كثيرة التأثيرَ القاتِل الذي يُمكن أن يُمارسه الطّغاة أحيانًا. فالدّكتاتوريّان الأكثر قوة اللّذان عرفهما العالَم منذ زمن طويل هما لينين في روسيا وأوروبا ـ ولو لبرهة قصيرة ـ والرّئيس ولسن. لينين قاد روسيا إلى البربريّة، والرّئيس ولسن كان من أهمّ المتسبّبين بفساد التّنظيم الذي تشهده أوروبا حاليًّا.

منذ وصوله إلى أوروبا، رأى رجل الدّولة الأمريكيّ هذا قراراته الدكتاتوريّة محطّ قَبُول من الجميع كما لو كانت وحيًا يُوحى. لكنّه تناسى أنّ الإمبراطوريّات تولد من جرّاء الضّرورات التّاريخيّة المتراكمة، ولا يخلقها العقل المحض، لذا طالب بتجديد الخارطة الأوروبيّة، ولم يسترشد إلّا المبدأ الإيديولوجيّ للجنسيّات. وعليه، ألهمه هذا المبدأُ صياغةَ معاهدة سلام، مُستخِفًّا بألف عام من التّاريخ، تقطّعت أوروبا في خلالها إلى دول صغيرة، من دون حياة اقتصاديّة ممكنة، إذ ألفت نفسها مُستعدّة دائمًا لتُدمِّر بعضها بعضًا.

إلى ذلك، تُمثّل الدكتاتوريات المستمرّة خطرًا آخر من شأنه أن يقود سريعًا إلى تضعضع شخصيّة أولئك الذين خضعوا لها. من دون شكّ، وضعت دكتاتوريّة يوليوس قيصر حدًّا للحروب الأهليّة، وضمنت ازدهار الإمبراطوريّة لوقت طويل. لكن تحت التّأثير الاستبدادي

لمن خَلَفوه، جعل الرّوح الرّومانيّة تتفكّك وتفقد صفات الشّخصيّة التي حافظت على امتداد العصور على عظمة روما.

إنّ خضوع الرّومان للقوّة الإمبراطوريّة أصبح كاملًا. عندما دخل قيصرُ الانحطاط مجلس الشّيوخ ارتعد أعضاء هذا المجلس أمامه، وصفّقوا له بحرارة وحماس، فهو قد نكّلَ ببعضٍ منهم لمجرّد الاشتباه بهم. أظهر أعضاء المؤتمر الوطنيّ الفرنسيّ(65) عبوديّة مماثلة عندما صفّقوا لروبسبيار(66) بعد أن أرسل عددًا من زملائهم إلى المقصلة لمجرّد أنّهم كفّوا عن إرضائه.

إذا مالَ الدّكتاتوريّون إلى الاستمرار في استبدادهم، فذلك لأنّ غالبيّة النّاس يبحثون، من أجل تجنّب بذل جهدٍ كافٍ لمساعدة أنفسهم، عن سيّد قادر على توجيه أفكارهم وسلوكهم.

لم تتكلّم الشّعوب أبدًا عن الحريّة كما تتكلّم اليوم، ومع ذلك لم تخضع بسهولة يومًا إلى كلّ أنواع العبوديّة كما تخضع اليوم. إذا كانت الحاجة إلى المساواة لم تكفّ عن التّعاظم، فإنّ فكرة الحريّة فقدت كلّ مكانةٍ لها. بعض الأحزاب، مثل الحزب الشّيوعي، طرحت فكرة الحريّة تمامًا وانتظرت باحترام الأوامر الآتية من المستبدّين البعيدين. في هذا السّياق، امتثل ملايين النّقابيّين للأوامر الصّادرة عن قادتهم. فبناءً على إشارة من هؤلاء الأسياد، توقّفت سكك حديد بلدٍ بأكمله عن العمل، وأضرب عمّال مناجم الفحم، والأساطيل التّجاريّة توقّفت عن التّجارة. كلّ عناصر الحياة الاجتماعيّة أُلغِيَت مشلولة.

لم يكترث الاشتراكيّون المحض للحريّة. لقد حلموا بدولانيّة(67) قويّة تحكم بصرامة حياة المواطنين. الواقع أنّ القوانين التي صُوِّتَ عليها تحت تأثيرهم لم تفعل شيئًا سوى أنّها محت أكثر فأكثر بقايا الحريّة التي كان النّاس ينعمون بها. في البلدان اللاتينيّة يبدو أنّهم يستسلمون للاشتراكيّين بسهولة.

نحن نتطرّق هنا إلى عنصر سيكولوجيّ أساسيّ من شأن معرفته أن تُوضِح كلّ ما تقدّم. إذا كانت جامعات الولايات المتّحدة تعتبر تهذيب الشّخصيّة أمرًا ضروريًّا، في حين أنّ

الجامعات اللاتينيّة تُهمله تمامًا، فذلك لأنّها تعلم أنّ الإنسان الذي يتوصّل إلى السّيطرة على نفسه ليس بحاجة إلى أن يحكمه آخرون. فالإنسان الذي يملك انضباطًا داخليًّا يُغنيه عن كلّ انضباط خارجيّ، هو دكتاتور نفسه. الحقّ أنّه ما من أحد يستطيع أن يحلّ محلّ دكتاتور كهذا.

(60) كاميل ديسمولين (1760 ـ 1794): محامٍ وصحافيّ وثوريّ فرنسيّ، من الشخصيّات البارزة في الثّورة الفرنسيّة. حكم عليه بالإعدام مع أشخاص كثيرين غيره بسبب مواقفهم.

(61) المونتناردیّون Montagnards: ظهر المونتناردیّون كمعارضين للجيروندیّين الأكثر اعتدالًا في المؤتمر الوطنيّ عام 1792، وهم يتألّفون من نوّاب منتخبين من باريس. أُعدِمَ عدد كبير منهم، حيث حُوِّلُوا إلى أقليّة، وعادوا غير مؤثرين.

(62) كومونة باريس أو الثورة الفرنسية الرابعة (باللغة الفرنسية: La Commune de Paris) هي حكومة بلدية ثورية أدارت باريس لفترة قصيرة ابتداءً من منتصف مارس 1871. قامت الثورة في باريس، وبعدها الكومونة كنتيجة لخسارة نابليون الثالث الحرب مع بروسيا ودخول الجيش البروسي المذل إلى باريس بعد حصارها. انتخب تسعون ممثلاً في الكومونة أو مجلس مدينة باريس (بالفرنسية، «commune») باقتراع عمومي وأعلنت حكمها على كامل فرنسا. كان نزاعها حول السلطة مع الحكومة المنتخبة لفرنسا سبباً رئيسياً في القمع الوحشي لها من طرف القوات الفرنسية النظامية فيما سمي بعد ذلك «بالأسبوع الدموي» («La Semaine sanglante») في 28 مايو 1871. صاحبت النقاشات حول سياسات ومآلات الكومونة تداعيات سياسية مهمة في داخل وخارج فرنسا خلال القرن العشرين، حيث اعتبرت أول ثورة اشتراكية في العصر الحديث.

(63) السير ونستون ليونارد سبنسر تشرشل (30 نوفمبر 1874 ـ 24 يناير 1965 في لندن) كان رئيس الوزراء في المملكة المتحدة من عام 1940 وحتى عام 1945 (إبان الحرب العالمية الثانية). وفي عام 1951 تولى تشرشل المنصب ذاته إلى عام 1955. يُعد

تشرشل أحد أبرز القادة السياسيين الذين ظهروا على الساحة السياسية خلال الحروب التي اندلعت في القرن العشرين. قضى تشرشل سنوات حياته الأولى ضابطًا بالجيش البريطاني، ومؤرخًا، وكاتبًا، بل وفنانًا، كلٌّ في آن واحد. تشرشل هو رئيس الوزراء الوحيد الذي تحصل على جائزة نوبل في الأدب، وكان أول من تمنحه الولايات المتحدة المواطنة الفخرية.

(64) على الرغم من أن الحزب الشيوعي الإسباني (PCE) لم يكن ذا أهمية في ذلك الوقت، فإن بريمو دي ريفيرا استغله لاحقًا بأن تهديد الشيوعية كان أحد الحجج المبررة لانقلابه، فنُهِبَ مقر الحزب وأُغلِقَ في نهاية 1923. (المترجم)

(65) أثناء الثورة الفرنسية، شكَّل المؤتمر الوطني الجمعية الدستورية والتشريعية في فرنسا وانعقدت من 20 أيلول 1792 إلى 26 تشرين الأوّل 1795 (الرابع من شهر برومير في العام الرابع في التقويم الجمهوري الفرنسي الذي اعتمده المؤتمر). وقد تولى السلطة التنفيذية في فرنسا خلال السنوات الأولى من الجمهورية الفرنسية الأولى. وضم المؤتمر الأصلي من بين أعضائه البارزين Maximilien Robespierre من نادي اليعاقبة و- Jean Paul Marat (المنتسب إلى اليعاقبة على الرغم من أنه لم يكن أبدًا عضوًا رسميًا) وGeorges Danton من Cordeliers. من 1793 إلى 1794، كانت السلطة التنفيذية بحكم الأمر الواقع في يد لجنة السلامة العامة التابعة للمؤتمر.

(66) ماكسيمليان فرانسوا ماري إيزدور دي روبسبيير (بالفرنسية: Maximilien François Marie Isidore de Robespierre) (1758 ـ 1794) هو محام فرنسي ورجل دولة كان أحد أشهر وأكثر الشخصيات تأثيرًا في الثورة الفرنسية. بصفته عضوًا في الجمعية الوطنية ونادي اليعاقبة، قاد حملةً من أجل حق الذكور في الاقتراع العام، ومن أجل إلغاء كل من تبتّل رجال الدين والعبودية. كان روبسبيير مناصرًا صريحًا للمواطنين الذين لم يكن لهم صوت، ولقَبُولهم غير المقيد في الحرس الوطني والمناصب العامة، وحَقّهم في حمل السلاح دفاعًا عن النفس. لعب دورًا بارزًا في إثارة الرأي العام الذي تسبب

بسقوط المَلَكية الفرنسية في أغسطس عام 1792 وعقد المؤتمر الوطني الفرنسي. بصفته واحدًا من الأعضاء القادة لتمرد كومونة باريس، انتُخب روبسبيير مندوبًا في المؤتمر الفرنسي في مطلع أيلول عام 1792، إلا أنه سرعان ما انتُقد لمحاولته تأسيس حكم ثلاثي أو دكتاتورية. في ربيع عام 1793، بعد خيانة دوموريز، حث على تأسيس جيش سان كيلوت لسحق أي متآمر ضد الثورة. عُين عضوًا في لجنة السلامة العامة القوية في يوليو. ذاع صيت روبسبيير لدوره خلال عهد الإرهاب، الذي أشرف خلاله على اعتقال وإعدام عدد كبير من الخصوم السياسيين الذين عدهم هو وحلفاؤه معارضين للثورة. مارس نفوذه من أجل قمع الجيروندديين من اليمين، والهيبرتيين من اليسار، والدانتونيين من الوسط. تشير التقديرات إلى أن ما يقارب 17,000 شخص حُكم عليهم بالإعدام بالمقصلة خلال عهد الإرهاب بعد تقديم قانون المشتبه بهم. يبقى مدى منْح المتهَمين درجة ملائمة من الإجراءات العادلة قبل إعدامهم مسألةً مثيرة للجدل. في النهاية، كان هوس روبسبيير بتصوّر جمهورية مثالية ولامبالاته إزاء التكلفة البشرية لإقامتها سببَ تشويه سمعته، ما جعل كلًا من أعضاء المؤتمر وعموم الفرنسيين ينقلبون ضده. انتهى عهد الإرهاب حينما اعتُقل مع العديد من حلفائه في انقلاب الترميدوريين في 9 نوفمبر وأُعدم في اليوم التالي، حوادث استهلت فترةً تُعرف بالانقلاب الترميدوري. تبقى مسؤولية روبسبيير الشخصية عن تجاوزات عهد الإرهاب موضع جدال حاد بين مؤرخي الثورة الفرنسية. كان روبسبيير بالنسبة إلى البعض رمزَ عهد الإرهاب خلال العام الثاني (من التقويم الثوري الفرنسي)، غير أنه كان بالنسبة إلى البعض الآخر المنظّرَ الأبرز للثورة وجسّد التجربة الديمقراطية الأولى للبلاد، التي مثلها الدستور الفرنسي لعام 1793 (والذي عُطل فورًا).

(67) الدّولانيّة Étatisme: سيطرة الدّولة على كلّ شيء.

# الكتاب السّادس: أوهام متعلّقة بأصل الثّروات وتوزيعها

## الفصل الأوّل: أوهام متعلّقة بطبيعة رأس المال

أصبحت كراهية النّظام الرأسماليّ عنصرًا أساسيًّا من عناصر الاشتراكيّة والشّيوعيّة. الواقع أنّ هدفهم الأساسيّ يكمن في تهديم هذا النّظام، سواء بعنف أو عن طريق الاقتطاعات المتكرِّرة المفروضة على رأس المال.

على الرّغم من أنّ الأوهام لا تُدحض قطّ عن طريق الكلمات، فإنّه من المفيد أن نُلخِّص باختصار الأفكار التي يُمكن أن نُكوّنها اليوم عن طبيعة رأس المال.

سيوضح هذا التّلخيص، مرّة أخرى أيضًا، أنّ سوء فهم الكلمات، الذي يتخطّى بكثير سوء فهم الأفكار، يوجد في أصل كثير من الحركات الثّوريّة.

لنتفحّص إذًا المعنى الحقيقيّ لمصطلح رأس المال، وهو من أكثر المصطلحات المملوءة بالأوهام في العصر الحديث.

بالنّسبة إلى الاشتراكيّين، ينجم رأس المال فقط عن رفع الضّريبة على أجر العمّال. وعليه، يكمن دوره في تأمين ريع لمجموعة من المـُستغلِّين الذين يُطلق عليهم اسم الرّأسماليّين.

تتناسبُ بعض الأفكار المنتشرة أيضًا حول رأس المال مع مرحلة قديمة من مراحل التطوّر حيث جعلها التقدّم الصّناعيّ تختفي منذ زمن بعيد.

حقيقة الأمر أنّ رأس المال بشكله البدائيّ كان يتمثّل بالثّروات، وبالذّهب تحديدًا، المتراكمة في الخزائن، إذ نادرًا ما كانت تخرج منها، لذا ظلّت قيمتها ثابتة.

اليوم، خرج رأس المال من الخزائن، وراحت قيمته تتغيّر بلا توقّف. بعبارة أوضح، أصبحت قيمته تتعلّق بجملة عناصر أبرزها الذّكاء.

لقد أوضحتُ بالفعل في مؤلّفٍ سابق أنّ ثراءَ فردٍ أو شعب يتوقّف على سرعة تداول رأس المال الذي يملكه. وعليه، لا يهمّ كثيرًا ما إذا كان حجم رأس المال صغيرًا، ما دامت سرعة تداوله قد أصبحت كبيرة بفعل تأثير عامِلَي القدرة والعمل.

يُماثل هذا القانونُ القانونَ الذي يحكم في مجال الميكانيكا عظمة القوّة المحرِّكة. فهي تُساوي، كما نعلم، نصف حاصل ضرب الكتلة بمربّع السّرعة. والحال أنّ رصاصة ذات كتلة صغيرة، لكنّها تتحرّك بسرعة كبيرة، هي أقدر على الاختراق من رصاصة أثقل منها بمئة مرّة، لكنّها تنطلق بسرعة ضعيفة.

ينبغي لهذا التّماثل الميكانيكيّ أن يُدْرَج في تعريفات الثّروة. يُمثِّل الذّهب المحبوس في خزنةٍ رصاصة بندقيّة لا تُستعمل. وحدها السّرعة تجعل الذّهب والرّصاصة فاعِلَين.

والحال أنّه ينبغي لنا دائمًا، عند تعرّف الثّروة، أن نأخذ بالحسبان هذه العامِلَيْن: حجم رأس المال، وسرعة التّداول.

في الثّروة يتوقّف عامل السّرعة بخاصّة على القدرة: قدرة العامِل التّقنيّة، والقدرة على التّوجيه.

هذه المفاهيم الأساسيّة تنتشر أكثر فأكثر. في هذا السّياق، لخّص رئيس المهندسين السيّد مارسيل بلوخ Marcel Bloch تفسيراتي المتعلّقة بهذا الموضوع. والحال أنّه ذكر في تقرير جدير بالاهتمام حول تنظيم سكك الحديد، برهاني على أنّ أهميّة رأس المال تتوقّف على سرعة التّداول. إذا كان رأس المال متواضعًا نسبيًّا، لكن يجري التّداول به سريعًا، فإنّ حجمه سرعان ما سيتخطّى حجم رأس مال كبير لكنّ سرعة تداوله بطيئة. السّرعة هي الثّروة. أن تعمل بشكل سريع، يعني أن تغتني، وأن تعمل بشكل بطيء يعني أن تفتقر.

من ضمن العوامل الثّلاثة التي تُكوِّن رأس المال في العصر الحديث: الذّهب، والذّكاء، والعمل، يُمكن القول إنّ الذّكاء هو الأهمّ. لقد لاحظنا، منذ زمن طويل، وبخاصّة في أميركا، أنّ دخل المصانع تضاعف من خلال إدخال عامل القدرة أو الأهليّة.

خلافًا للمعتقدات الشّيوعيّة، فإنّ القدرة الذّهنيّة، التي بالكاد تخطّت قديمًا القدرة اليدويّة، تتفوّق اليوم على هذه الأخيرة التي لا تستطيع أن تفعل شيئًا من دونها.

إنّها القدرة الذّهنيّة التي تسمح بتحقيق الاكتشافات التي تُفيد الإنسانيّة، في حين أنّ القدرة اليدويّة لا تعود بالنّفع إلّا على كلّ عامل. تُشير التّقديرات إلى أنّ ثلث دخل إنجلترا الحاليّ يُعزى إلى قدرة نخبة صغيرة.

لقد غدا رأس المال اليوم العنصر الأساسيّ في الحياة الصّناعيّة، لذا حَلَمَ الاشتراكيّون في الحدّ منه عبر اتّخاذ سلسلة من الإجراءات الكيديّة، وتجاهل دوره الكبير في حياة الشّعوب. الحقّ أنّ النّتيجة الوحيدة لفرض ضريبة على رأس المال هي رفع سعر البضائع، وجعل تكلِفة الحياة باهظة.

هذه المفاهيم، التّجريديّة قليلًا بالنّسبة إلى العمّال اللاتينيّين، فُهِمَت جيّدًا من قِبَل زملائهم الأمريكيّين. أشارت الكثير من الصّحف إلى العريضة التي وقّعها العمّال من أجل المطالبة بالحصول على شركة تصنيع سيّارات كبرى معفاة من الضّرائب التي من شأنها أن تُقَلِّص رأسمالها. لقد فهم الموقّعون تمامًا أنّ النّتيجة النّهائيّة لهذه الضّرائب ستكمن في ارتفاع سعر بيع السيّارات التي يشتريها القسم الأكبر منهم.

الواقع أنّ الضّريبة على رأس المال لا تعدو كونها وهمًا. فهي تخلق الحسد والكراهية، ولا تُفضي إلّا إلى إفقار الطّبقات التي تُطالب بتحسين مصيرها.

دُحِضَت النّظريّات الاشتراكيّة مرّاتٍ كثيرة، ورُفِضت رفضًا صريحًا، كلّ ذلك نتيجة تجاربهم التي اختبرتها دول عديدة، بحيث يغدو من غير ذي طائل العودة إليها.

علاوة على ذلك، يتغيّر النّظام الرأسماليّ في كلّ يوم. فرأس المال، الذي يدعم الصّناعات، ينتشر حاليًّا أكثر فأكثر بين أيدي عدد كبير من النّاس، بحيث لن يكون هناك قريبًا أفراد يُمكن أن يُصَنَّفوا من بين كبار الرّأسماليّين.

يُجيب الاشتراكيّون عن بعض الاعتبارات السّابقة المتعلّقة بالنّظام الرأسماليّ، بأنّهم إذا أرادوا أن يُدمّروا الرّأسماليّين، فهذا لا يعني أنّهم يُريدون تدمير رأس المال، بل إعادة وضعه بين يدي الدّولة، التي ستُعهد إليها إدارة كلّ الصّناعات.

نأسف لهذا المفهوم! فقد أثبتت التّجارب التي تكرّرت مئة مرّة أنّ منتجات الصّناعات التي تُديرها الدّولة، أي من قِبَل شخص لا يكترث لنجاح المؤسّسات وتقدّمها، أغلى بكثير من المنتجات التي تعود إلى الصّناعة الخاصّة. بعبارة أخرى، إنّ سعر تكلِفة البضائع المـُصَنَّعة في الدّول التي تتحكّم الدّولة بكلّ مفاصلها مُرتفع إلى حدّ أنّه لا يعود بمقدورها أن تُنافس في الخارج البضائع التي تُصنّعها الدّول المتحرِّرة من النّظام الاشتراكيّ. تُزوّدنا روسيا السّوفياتيّة بمثال صارخ على ذلك.

لا يُمكننا أن ندخل هنا في الدّراسة المفصَّلة للمسائل المتعلّقة برأس المال، والعملة التي تمثّله، بل سأكتفي هنا بتلخيص بعض النّقاط الأساسيّة بشكل مقتضب:

تتوقّف قيمة رأس المال بخاصّة على سرعة التّداول.

لا تكمن ثروة شعب في الذّهب الذي يمتلكه، أو في العملات الاصطناعيّة من دون ضمان التي تُنْتَج بحسب الرّغبة. يتوقّف ثراء شعب أو فقره على معرفة ما إذا كانت منتجات أرضه، ومصانعه، وتجارته تفيض أو تقلّ عن حاجاته.

يفتقر شعب عندما يستهلك أكثر ممّا يُنتِج. وذلكم ما يحصل عندما تُصبح البضائع التي يُصنّعها باهظة الثّمن، نتيجة تقليص عدد ساعات العمل أو نتيجة دوافع أخرى، ويتعذّر من ثمّ تصديرها.

عندما يُصَدِّر شعبٌ ما كميّة من البضائع تُساوي قيمتُها تمامًا قيمةَ ما يستورده، تُحافظ عملتَه على قدرتها الشّرائيّة والائتمانيّة.

عندما يستورد شعبٌ ما بضائعَ أكثر ممّا يُصدِّر، وعندما يفتقر إلى الموارد، يُلزَم بتسديد مدفوعاته بالعملة الورقيّة. والحال أنّ هذه العملة تُعرّض للخسارة بحسب درجة الثّقة التي يمنحه إيّاها المشتري. بوجيز العبارة، يؤدّي شراء البضائع من الخارج بالضّرورة إلى ارتفاع في الأسعار، وهذا ما يستتبع ارتفاعًا في تكلفة المعيشة.

في أثناء تبادل البضائع ذات القيمة المتساوية، يتدخّل الذّهب بوصفه وحدة حساب،(68) من دون حاجة إلى نقله من الصّناديق التي يُحفَظ فيها.

عندما يملك المدينُ برأس المال ـ مهما بلغ حجمه ـ الوقتَ الكافي للسّداد، يُمكنه أن يُقلِّص هذا الدّين، عن طريق آليّة الاستهلاك، إلى أدنى حدّ ممكن وذلك بما يتناسب مع تطلّعاته.

# الفصل الثّاني: الصّراعات بين الذّكاء، ورأس المال، والعمل

أُلْغِيَ الاستياءُ العام، الذي أتينا على ذكر نتائجه أكثر من مرّة على امتداد هذا المؤلَّف، على وجه الخصوص لدى الطّبقة العاملة، على الرّغم من أنّ وضعها الماديّ لم يكن في أيّ وقتٍ أفضل حالًا ممّا هو عليه اليوم. فأجورهم ارتفعت بشكل ملحوظ، حتّى بالنّظر إلى قاعدة الذّهب(69) القديمة.

لكن، بالنّظر إلى ارتفاع أجور العمّال، وُلِدت تطلّعات جديدة، وحاجات جديدة تخطّت سريعًا وسائل إشباعها. ثمّة ظاهرة لُوحظت عشيّة الثّورة، وأعني كراهيّة الطبقات الدّنيا للطّبقات العليا. تنامت هذه الكراهية في الوقت نفسه الذي تنامت فيه موارد الطّبقات الدّنيا واقتربت من الطّبقات العليا. يُمكننا القول، كقانون في الفلسفة السياسيّة، إنّ التّفاوتات

الكبيرة، في حياة الشّعوب، يتَسَامَح معها بسهولة، في حين أنّ التّفاوتات البسيطة لا تُحتمل على الإطلاق.

الواقع أنّ الحاجة إلى المساواة، وكراهية السّلطة أصبحتا خاصّيتين عَلَّمَتا الذّهنيّة الشّعبيّة الحديثة. فحُلمُ الكثير من العمّال كَمَن في السّيطرة عَنوةً على المناجم، والمصانع، وسكك الحديد، إلخ، من أجل إدارتها لصالحهم. فالشّعارات: المناجم لعمّال المناجم، وسكك الحديد لعمّال سكك الحديد، إلخ، تُلَخِّص تمامًا هذه التطلّعات.

يتمثّل وهم الطّبقات العاملة في اعتقادها أنّها ربحت شيئًا ما من جرّاء هذا التحوّل، في حين أنّه تسبّب في خسارتها الكثير.

في الواقع، لا تتطلّب المنتجات الصّناعيّة الحديثة رؤوس أموال فحسب، لكنّها تتطلّب أيضًا، وعلى وجه الخصوص، القدرات والمهارات. فمن دونها تتلاشى ألمع الصّناعات سريعًا.

الشّعب برمّته يستفيد من التّركيز الصّناعيّ الحاليّ النّاجم عن الجمع بين رؤوس الأموال الكبيرة والقدرات الهائلة. من البديهيّ، على سبيل المثال، أن يكابد ربّ عمل صغير يُوظِّف عشرة عمّال فقط أسعار تكلِفة أعلى بكثير ممّا يكابده صاحب مصنع يُوظّف ألف عامل. الواقع أنّ ربّ العمل المذكور يُلفي نفسه مُجبَرًا، من أجل أن يعيش ويدفع نفقاته العامّة، على اقتطاع جزء كبير من عمل كلّ عامل، في حين أنّ صاحب مصنع يُوظِّف ألف عامل، ويربح سنويًّا 75 ألف فرنك، يكتفي باقتطاع 25 قرشًا يوميًّا من أرباح عمل العامل الذي يتقاضى خمسين فرنكًا في اليوم.

إنّ تقليص سعر التّكلفة، كما فعل الصّناعيّ الكبير، الذي يُطلق عليه «رأسماليّ»، لا يعدو كونه، في الحقيقة، زيادة في رفاهية العمّال، إذ بوسعهم من خلال المبلغ نفسه أن يشتروا المزيد من الأشياء.

تُثبت الملاحظة أنّه إذا كان دورُ رأس المال مهمًّا جدًّا في الصّناعة الحديثة، فإنّ عنصر الذّكاء لا يقلّ أهميّة عنه. في الواقع، بإمكان الذّكاء وحده أن يجعل الرّأسمال الماديّ يُعطي ثماره.

من المحال إجراء مقارنة بين سيكولوجيا ربّ عمل وسيكولوجيا العمّال الذين يُديرهم. فالعمل على مسؤوليّته الخاصّة، وتحمّله المخاطر، والالتزام برؤوس أموال ضخمة، والتّرَجُّح بلا توقّف بين الثّراء والخراب، أي تحمّل جزاءات شخصيّة قاسية جدًّا، كلّ هذا يجعل الصّناعيّ الكبير يُمارس بالضّرورة دورًا ملحوظًا وهامًّا في الحضارة الحديثة.

«إذا تمكّنت الجزيرة الإنجليزيّة الصّغيرة من إطعام 47 مليون مقيم في بلد لم يكن بالإمكان أن يعيش فيه، في زمن الملكة إليزابيث، سوى خمسة ملايين شخص، فإنّ هذه الجزيرة لا تدين بذلك، كما لاحظ عالم الاقتصاد ليزيس Lysis، إلى عمّالها اليدويّين، بل إلى أرباب عملها، وإلى تِقنيّيها».

سعى الاشتراكيّون إلى إقناع الطّبقات العاملة بأنّها ستربح أكثر بكثير ممّا تربحه اليوم إذا سيطرت على المناجم، والمصانع، وعلى كلّ وسائل الإنتاج، وذلك لكي يعهدوا إليهم بإدارة الدّولة.

مع ذلك أثبتت التّجربة، كما أشرنا مرارًا، أنّ المصانع التي يُديرها رؤساء لا يكترثون لنجاح المؤسّسات، تُعطي نتائج سيّئة. والمصانع التي تديرها الدّولة ـ التّبغ، وأعواد الثّقاب، على سبيل المثال ـ تُزوّدنا بمنتجات باهظة الثّمن. قل كذلك عن المصانع التي يُديرها العمّال ـ مصنع الزّجاج في كارمو Carmaux على سبيل المثال ـ التي تُعطي أيضًا نتائج متواضعة، حتّى مع وجود مهندسين أذكياء على رأسها.

تجلّى تدنّي قيمة إدارة العمّال من خلال تاريخ تعاونيّات الإنتاج، التي فشلت تقريبًا في كلّ مكان، في حين أنّ التّعاونيّات الاستهلاكيّة التي تبيع، لكنّها لا تُنتِج، نجحت بشكل عام.

ثمّة أسباب سيكولوجيّة بسيطة جدًّا تُفسِّر هذه الإخفاقات. الحقّ أنّ مديرًا يتقاضى راتبًا ثابتًا، انتُخِبَ من قِبَل العمّال، لا يملك استقلاليّة في الفعل، ولا في السّلطة، ولا في المبادرة، ولا حتّى المصلحة الضّروريّة لضمان سير المؤسّسة بشكل فعّال.

تكمن واحدة من أكبر المشكلات الحديثة في التوزيع العادل لأرباح الإنتاج بين المصادر الثلاثة لهذا الإنتاج: الذّكاء، ورأس المال، والعمل.

في هذا السّياق، بذل أشخاصٌ كثيرون جهودًا حثيثة من أجل تغيير هذا التّوزيع.

الواقع أنّ حلّ هذه المشكلة سيكون سهلًا جدًّا، لو أنّ المنتجين المشاركين في الأرباح يُشاركون أيضًا في الخسائر، كما هي الحال في كلّ الشّركات الصّناعيّة.

لكن ما يُطالب به العمّال هي المشاركة في الأرباح وليس في الخسائر.

يدعم الاشتراكيّون الفكرة القائلة بأنّ الأرباح يجب أن تعود برمّتها إلى العمّال. وعليه، كما قلنا أعلاه، من البديهيّ أنّه من دون رأس المال، الذي يدعم وحده تأسيس الشّركات، والمخاطر التي تُرافقها، ومن دون الذّكاء الذي يُديرها، لا يُمكن لأيّ إنتاج اقتصاديّ أن يكون ممكنًا.

من البديهيّ أيضًا أن يجد الصّناعيّون الكبار مصلحة في إشراك العامل في الأرباح، بغية جعله يهتمّ بحسن سير المؤسّسة، وتحفيز نشاطه. ذلكم ما يحصل اليوم في كلّ مكان تقريبًا.

تُظهر إحصاءات كثيرة اليوم أنّ عدد العمّال يزداد باستمرار في حين أنّ رأس المال والذّكاء يتراجعان أكثر فأكثر.

من خلال المعلومات التي زوّدتنا بها L’Illustration Economique، فإنّ أرباح شركات التّعدين جرى توزيعها على النّحو الآتي:

«49 بالمئة لليد العاملة، و48.10 بالمئة من أجل صيانة الأدوات وإصلاحها، و2.90 بالمئة فقط لرأس المال.

لنفترض أنّ نسبة الـ2.90 بالمئة هذه دُفِعت كعائد رأس المال، أو جرى توزيعها على العمّال، فإنّ أجر كلّ واحد منهم سيزداد بنسبة ضئيلة».

لنتفحّص أرباح مصنع من أكثر المصانع ازدهارًا في العالَم، ونعني مصنع إيسن Essen، الذي شغّل قبل الحرب 439.000 عامل، ويدفع سنويًّا 870 مليون فرنك كأجور. لاحظ الكاتب نفسه أنّ توزيع إجمالي العائد على المساهمين، جعل كلّ واحد منهم يحصل على 240 مارك فقط في السّنة. إنّ التّنازل الكليّ عن الأرباح للعمّال لا يُضيف إذًا إلى مجموع أجورهم إلّا قدرًا ضئيلًا.

والحال أنّ توزيع الأرباح بين العمّال لا يؤدّي إلى ارتفاع غير ملحوظ في أجورهم فحسب، بل، علاوة على ذلك، سيعقب هذه الزيادة المؤقتة انخفاضٌ كبير. في الواقع، سرعان ما سوف يُفضي غياب الذكاء الموجِّه إلى تراجع ملحوظ في إنتاج المصانع.

سوف يقع العمّال ورؤساؤهم ضحيّة أوهام كبيرة إذا افترضوا أنّ إدارتهم شركة ما، أو ممارستهم رقابة كبيرة على إدارتها، من شأنها أن تعود عليهم بمزيد من الأرباح، أي أكثر من الأرباح التي يحصلون عليها حاليًّا.

لم يُمارِس الاستدلال والتّجربة أيّ تأثير في المقتنعين، لذا ظلّت الأوهام العمّاليّة غير قابلة للتّدمير. على الرّغم من كلّ البراهين، استمرّ الاشتراكيّون في المجاهرة بكراهيتهم الشّديدة لرأس المال، وذلك في الدّول التي يُمكن أن يمارسوا تأثيرهم فيها، وتجلّت هذه الكراهية بوضوح من القوانين الكيديّة والمدمِّرة للصناعة.

في معرض حوار أجرته صحيفة Le Temps، لاحظ مُراقِبٌ نمساويّ أنّ البلديّة الاشتراكيّة في فيينا انكَبَّت بكلّ الوسائل على إزالة رأس المال شيئًا فشيئًا، وعلى تجفيف كلّ مصادر

الطاقة والنّشاط البشرِيَّيْن واحدًا تلو الآخر: ضرائب باهظة على السيّارات، التي لم يكن من نتيجتها سوى القضاء على هذه الصّناعة، وحرمان عمّال كثيرين من العمل، وضرائب باهظة أيضًا على صناعة الأشياء الثّمينة التي أَحيَت فييِنا، إذ ارتفع سعرها بشكل باهظ من جرّاء الضرائب، ممّا جعلها غير قابلة للبيع في الخارج، إلخ.

يقول المراقب نفسه: «ينبغي العودة إلى فييِنا من أجل الأخذ بالحسبان التبعات المؤسفة التي أفضى إليها تطبيق العقائد الاشتراكيّة».

في هذا الصّدد، يُضيف أمريكيّ قادم من زيارة أوروبا قائلًا:

«لديّ انطباع أنّ الحكومات، في كلّ مكان تقريبًا، تبذل كلّ ما في وسعها من أجل وضع حدّ سريع لثراء الموسرين، ولكي لا يعتزم غير الموسرين أن يثروا. النّقطة الأخيرة هذه هي الأخطر. إنّهم يجهدهم فرض الرداءة الكسولة نفسها على الجميع».

«في أميركا، لا نرى أيّ مشكلة في أن يكون هناك عدد كبير من الأغنياء، وعدد الذين يغتنون يزداد يومًا بعد يوم. ومع ذلك، لا يُوجد أيّ بلد في العالَم يتقاضى فيه العمّالُ أجورًا عالية ويشعرون بالسّعادة في آنٍ معًا».

لا يُبالي الاشتراكيّون كثيرًا بهذه الاعتبارات. ذلك بأنّ تدابيرهم الكيديّة تتأتّى من ميل وضيع لا يتمّ إشباعه إلّا بإفقار الأغنياء من أجل تكريس المساواة في البؤس.

الحقّ أنّ الصّراع بين الطّبقات الذي نراه يتعاظم ليس جديدًا. لقد تجلّى مرّات عديدة على امتداد العصور، وسمح بسقوط الإمبراطوريّات الكبرى. فاليونان القديمة، تحديدًا، وقعت ضحيّتها. فمن الحرب البيلوبونيسيّة(70) إلى الغزو الرّومانيّ، لم يكن التّاريخ اليونانيّ سوى قصّة الصّراعات بين الطّبقات الثّرية والطّبقات الفقيرة. لقد أعمت الأوهامُ نفسها اليونانيّين كما أعمت الاشتراكيّين المعاصرين. وعليه، خالَ اليونانيّون، من بعد أن حصلوا على المساواة في الحقوق السياسيّة، أنّه بإمكانهم أن يفرضوا عن طريق قوانين المساواة

الشّروط التي يُريدونها. النّتيجة الوحيدة التي حصلوا عليها كانت سلسلة من الحروب الأهليّة، ومن الدّمار.

قبل هذه الانقسامات الدّاخليّة، كان اليونانيّون يمتلكون حضارة تحتاج الشّعوب إلى قرون طويلة كي تبلغها. ففلاسفة مثل سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وفنّانون مثل براكسيتال، وقادة مثل الإسكندر، ألهموا العالَم بعبقريّتهم. قرنٌ ونصف بعد هذه الحقبة، الفريدة في التّاريخ، قادت الصّراعات الاجتماعيّة اليونان إلى انحطاط كامل لم يجد الرّومان أيّ صعوبة في تحويله إلى عبوديّة. لقد بِيعَ أحفاد الرّجال العِظام، الذين ظلّ المجد حيًّا فيهم، كالعبيد في أسواق روما. الواقع أنّ تطوّر الشّعوب غالبًا ما يتغيّر، لكنّ القوانين السّيكولوجيّة التي توجّهها تبقى ثابتة.

# الفصل الثّالث: كيف حلّت أميركا مشكلة صراع الطّبقات؟

يتكوّن التّاريخ، بخاصّة، من قصّة النّزاعات بين الشّعوب، ومن قصّة الصّراعات بين طبقات الشّعب الواحد.

كان للصّراعات بين الشّعوب، في بعض الأحيان، نتائج مفيدة. فعن طريق الأسلحة أرست روما دعائم حضارتها في العالَم، وانتهى الأمر بها بأن فرضت سلامًا عالميًّا.

لكن إذا تمخّضت الحروب بين الشّعوب أحيانًا عن نتائجَ سعيدة، فإنّ الحروب بين طبقات الشّعب نفسه لم تنطوِ إلّا على مآسٍ، ولم تشهد إلّا على نهاية حضارات كثيرة. إنّ الانقسامات بين الطّبقات، التي رأيناها للتوّ، هي التي قادت اليونان إلى العبوديّة، وحكمت على الجمهوريّة الرّومانيّة بأن ترزح تحت نير الحكّام.

في أيّامنا هذه، شَكّلتِ الحروب بين الطّبقات أصل المآسي الكبيرة. قادت الصّراعات الاجتماعيّة في العام 1848 إلى الدّكتاتوريّة الإمبراطوريّة التي انتهت بمعركة سيدان.

ثمّة حوادث معاصرة تُظهِر تبعات هذه الصّراعات بين الطّبقات. تسبّبت هذه الصّراعات في انحطاط روسيا، وفي ذبح المثقّفين الذين تُدين لهم هذه الإمبراطوريّة الواسعة بشيء من مظاهر الحضارة.

عانت إيطاليا مصيرًا مُشابهًا، فهي لم تنجُ من المجازر والخراب، التي تتسبّب فيها دائمًا الصّراعات بين الطّبقات، إلّا بفضل التدخّل الحاسم لدكتاتور. نحن نعلم أيضًا التّأثير الذي مارسه رئيس حكومة من خلال السّلطات الدكتاتوريّة الوقتيّة التي مُنِحَت له، ونعلم كيف خَلَّص فرنسا من إفلاسٍ ماليّ ناجم عن تهديدات الصّراعات بين الطّبقات المتأتية بدورها عن سلطة الاشتراكيّين المتعاظمة.

إذًا، في كلّ العصور، ولدى كلّ الشّعوب، وفي ظلّ كلّ الصّلاحيّات التّقديريّة، يُمكن القول إنّ الصّراعات بين الطّبقات، في الأمس كما اليوم، هي التي حدّدت وتُحدِّد حتمًا خراب الشّعوب الذين وقعوا ضحيّتها. ينبغي لنا، والحال هذه، أن ننظر إلى الرّجال الذين اكتشفوا وسائل مؤكّدة لتفادي صراعات كهذه بوصفهم فاعلي خيرٍ عظامًا للبشريّة.

من بين المساعي الأولى المبذولة لتحقيق الوحدة بين الطّبقات الاجتماعيّة، يبرز المسعى المسيحيّ. صحيح أنّ المسيحيّة لم تستطع أن تلغي الاختلافات النّاجمة عن التّفاوتات الوراثيّة، إلّا أنّها وعدت أتباعها المخلصين بجنّة يتساوى فيها النّاس جميعًا.

منحَ هذا الوهم المُفيد، على امتداد قرون، النّاسَ تطلّعاتٍ حالت دون أن يشعروا بألم عظيم من جرّاء التّفاوتات التي وقعوا ضحيّتها. على الرّغم من أنّ إله المسيحيّين سينضمّ إلى آلهة العالَم القديم في الهيكل الواسع الذي ترقد فيه الآلهة الميتة، فإنّه ينبغي لنا دائمًا أن نُحَيِّي باحترام الظلّ الكبير الذي كشف للنّاس، على امتداد عصور طويلة، قساوة القدر.

لكن حان الوقت الذي فقدت فيه المعتقدات الدّينيّة سلطتها في تهدئة النّفوس. لقد وجب إذًا اكتشاف وسائل أخرى من أجل إلغاء التّفاوتات التي عادت الشّعوب الحديثة لا تحتملها.

إلى ذلك، يبدو اتّحاد الطّبقات ذات الوضعيّات المختلفة مستحيلًا بالنّسبة إلى الاشتراكيّين، لذا نادوا بضرورة الصّراع بين الطّبقات. علاوة على ذلك، لم يكن هدفهم النّهائيّ تكريس مساواة عامّة، بل إخضاع الطّبقات العليا للطّبقات الدّنيا، الأمر الّذي نجحوا في تحقيقه في روسيا. يُلَخِّص شعار «دكتاتورية البروليتاريا» جيّدًا هذا التصوّر. إزاء هذه التّهديدات، بحثت أوروبا المـُتَمَدِّنة عن الدّفاع عن نفسها.

الحقّ أنّ مشكلة اتّحاد الطّبقات، التي عُدَّت مشكلة غير قابلة للحلّ عن طريق الوسائل السّلميّة، حُلَّت بطريقة مميَّزة للغاية في الولايات المتّحدة، وذلك بفضل تطبيق بعض المبادئ الاقتصاديّة والسّيكولوجيّة.

تحت تأثير هذه المبادئ، أصبح العاملُ شريكَ ربّ العمل وصديقه، وألفى نفسه في وضعيّة تتفوّق على وضعيّة غالبيّة برجوازيّي أوروبا.

حقيقة الأمر أنّ النّجاح الذي حقّقه الأمريكيّون كان جديرًا بالملاحظة، لا سيّما أنّهم اختبروا، على غرار أوروبا، صراع الطّبقات.

من دون شكّ، لم يكن بإمكان الاشتراكيّة الدّولانيّة أن تؤثّر أبدًا في العمّال الأمريكيّين، الذين نظروا إليها بوصفها شكلًا من أشكال العبوديّة لا تقبله إلّا الذّهنيّات الوضيعة. لكنّ الحركة النّقابيّة نشطت لوقت طويل في الولايات المتّحدة، وشكّلت أصل الصّراع الجديّ بين العمّال وأرباب العمل، قبل الاتّحاد الذي تكرّس اليوم.

اضطلع صناعيّون مشهورون بمهمّة تأسيس تجمّع الطّبقات التي طالما كانت ذهنيّتها ومصالحها منفصلتين بعضهما عن بعض. وعليه، أبدى هؤلاء الصّناعيّون حكمة اقتصاديّة وسيكولوجيّة مدهشة للغاية.

لقد أُشِيرَ إلى اندماج الطّبقات الذي نجح هؤلاء الصّناعيّون في الحصول عليه في كثير من المنشورات. ومؤخّرًا، أرسلت صحيفة Daily mail وفدًا عمّاليًّا إنجليزيًّا إلى أميركا للوقوف على هذا الأمر.

تُرجِمت تقارير هؤلاء المندوبين من خلال مجتمع دعم الصّناعة، وسُبِقَت بمُلَخَّصٍ أَعدّه السيّد فريمنفيل M. de Fréminville، حيث أظهر إلى أيّ حدّ أصبحت العلاقات بين العمّال وأرباب العمل وِدّيّة.

«يعود الازدهارُ، الذي تشهده حاليًّا الصّناعة في الولايات المتّحدة، في قسم كبير منه إلى العلاقات بين أرباب العمل والعمّال، وهي علاقات تختلف جدًّا عن العلاقات الموجودة في مصانع بريطانيا العظمى. علاوة على ذلك، تستند هذه العلاقات إلى مفهوم جديد تمامًا عن المصالح التي تربط ربّ العمل بالعمّال».

في أميركا، أربابُ العمل والمُسْتَخْدمون شركاء. في إنجلترا وفرنسا، أعداء. تُلخِّص هذه العبارة المختصرة تاريخهم.

إلى ذلك، يعود السّبب الرّئيسيّ لوضعيّة الصّناعة الأمريكيّة الحاليّة، في جزء كبير، إلى تطبيق المبادئ الأساسيّة المختلفة التي نادى بها الصّناعيّ الكبير تايلور Taylor.

«كُنّا نُعاني، قَبْله، من وجود مفاهيم اقتصاديّة متناقضة. فقد اعتقد بعض البّاحثين أنّ البطالة، ومن ثمّ البؤس الذي كان العاملُ يُعانيه باستمرار، لا يُمكن تجنّبها إلّا من خلال وضع حدّ للإنتاج. أمّا تايلور ومدرسته، فكانا يُعارضان هذه المزاعم، ورفضا أيضًا أن يتوافق ثمن التّكلفة الزّهيد مع الأجر الأكثر ارتفاعًا، ذلك بأنّ أجر العامل المرتفِع يزيد من قوّته الشّرائيّة، ويخلق للصّناعة سوقًا واسعة، بحيث لا يعود هناك ما يُخشى من الإفراط في الإنتاج.

وعليه، سرعان ما حلّت وضعيّة جديدة محلّ الوضعيّة التي واجهها تايلور عندما انخرط في العمل الصّناعيّ. وسرعان ما فهم أرباب العمل أنّه بالإمكان زيادة الإنتاج بحيث يفوق

كلّ الإنتاج السّابق. لكن ينبغي، من أجل الوصول إلى هذا الهدف، تنظيمُ العمل في أدقّ تفاصيله، وتجنيبُ العامل تعبًا لا طائل منه، وإعطاؤهُ أجرًا كبيرًا بُغية تشجيعه على تطبيق كلّ المعايير التي من شأنها أن تزيدَ في إنتاجه. والحال أنّه وجب معاملة العامل بوصفه شريكًا، كما ينبغي القيام بكلّ ما من شأنه أن يُحسِّن شروط وجوده.

الحقّ أنّ العامل على استعداد كامل لاستخدام طرقٍ جديدة. فالنّقابات نفسها تخلّت عن الصّراعات السّابقة، وانخرطت في الحركة العامّة.

وفقًا للمدرسة الجديدة، يُشكِّل مجموع العمّال الغالبيّة السّاحقة من المستهلكين، وسوق الصّناعة نفسها. وعليه، كلّما كانت هذه السّوق أفضل، كانت قدرة العامل الشّرائيّة أكبر، أي أن تكون الأجور أكثر ارتفاعًا، وأن يكون بالإمكان تقديم المنتجات الصّناعيّة بأسعار مُخَفَّضة».

وبعد، أتى كلّ المندوبين الإنجليز، الذين تبيّنوا نتائج الطّرق الأمريكيّة، من بلدٍ يُعاني أزمة صناعيّة ذات خطورة استثنائيّة، ذلك بأنّ الشّعارات القديمة المتعلِّقة بصراع الطّبقات، والعقد الاجتماعيّ، والحدود بين العمّال وأرباب العمل التي كانت كفيلة بتوليد الغيرة، وتقييد الإنتاج، لم تنجح في إعطاء أيّ حلّ.

يُظهر كلّ ما تقدّم، بوضوح، أنّ ذهنيّة العمّال الأمريكيّين أصبحت مختلفة جدًّا عن ذهنيّة العمّال الإنجليز والفرنسيّين الذين يدخلون في صراع مستمرّ مع أرباب العمل. في هذا السّياق، أظهر السيّد تارلي M.A.de Tarlé، على نحوٍ رائع، من خلال السّطور الآتية أشكال هذا الصّراع في إنجلترا:

«صحيح أنّ قادة النّقابات سمحوا للعمّال بالعمل، إلّا أنّهم قيّدوا عملهم، الأمر الذي نتجت عنه مساوئ كثيرة. على سبيل المثال، حُجزت سفينة في المرفأ لمدّة أربعٍ وعشرين ساعة إضافيّة، إذ مع انتهاء نهار العمل ظلّت هناك بعض المسامير التي يجب أن تُغرَز في موضعها. وعليه، رفض العمّال أن يعملوا لبضع دقائق إضافيّة ضروريّة من أجل إنهاء عمليّة

التّصليح. الواقع أنّ الفنيّين العاملين في مجال القطع، ينبغي لهم أن يُثبّتوا 300 إلى 350 مسمار في اليوم الواحد. في الولايات المتّحدة، يُثبّتون 700 مسمار في اليوم الواحد. علاوة على ذلك، لا يُمكن للعامل الإنجليزيّ أن يعمل بالمقطوعيّة من دون أن يأخذ إذن نقابته. والحال أنّ غالبيّة المصانع أقفلت أبوابها في وجه العمّال الذين لا ينتسبون إلى النّقابة. بخلاف ذلك، يعتبر الأمريكيّون أنّ هذا النّظام هو جريمة اقتصاديّة يُعاني منها المستهلِك، إذ إنّه يمنع الصّناعة البريطانيّة من دعم المنافسة الخارجيّة».

طرح المراسِل، الّذي لَخّص إفادات العمّال الإنجليز، الأسئلة الآتية:

«هل تُشكِّل الأجورُ المرتفعةُ في الولايات المتّحدة اليوم سببَ الازدهار الحاليّ أو أنّها نتيجة له؟ هل أدّى ارتفاع الإنتاج إلى رفع الأجور، أو العكس هو الصّحيح؟».

طُرِحت هذه الأسئلة على كلّ الأشخاص المختصّين. اعتبر الرّأي العام بوضوح أنّ سياسة الأجور المرتفعة سبقت الإنتاجَ الأهم والأكثر اقتصادًا، ومن ثمّ، الاستهلاك والازدهار الكبيرين.

وفقًا للإحصاءات الأخيرة، يستهلك السّوق المحليّ 92 بالمئة من البضائع المنتجة في الولايات المتّحدة. وعليه، تستطيع أمريكا أن تنتقل بسهولة إلى أوروبا، من دون أن تخشى الإفراط في الإنتاج، ذلك بأنّها تستهلك أكثر مما تُنتِج.

ليس بإمكاننا أن نُورِد هنا كلّ الملاحظات الهامّة المـُسَجَّلة في تقارير العمّال الإنجليز، لذا سأكتفي بإيراد بعض منها فحسب.

وفقًا للمحقّقين، فإنّ 87 بالمئة من صناعة الولايات المتّحدة هي بين الشّركات الكبرى. فالنّظام الرّأسماليّ، الذي يخشاه الاشتراكيّون الأوروبيّون بشدّة، يُعَدّ واحدًا من المبادئ الرّئيسة التي أدّت إلى نجاح الصّناعة الأمريكيّة. إلى ذلك، خلص المحقّقون إلى أنّ المصانع

الكبرى تستلزم بالضّرورة رؤوس أموال كبيرة، لذا تُعَدّ أفْيَدَ بالنّسبة إلى العمّال من المصانع الصّغيرة.

لقد جرى، في أميركا، حلُّ مسألة المشاركة في الأرباح بأبسط طريقة ممكنة. بعبارة أوضح، سهَّل أربابُ العمل للعمّال عمليّة شراء أسهم مصانعهم.

الحقّ أنّها طريقة طالما أشرتُ إلى أهمّيّتها منذ زمن بعيد.

الحقّ أنّ نظام العمل بالمقطوعيّة لم يُكَرَّس بشكل كبير في الولايات المتّحدة، فالأجور نادرًا ما تتجاوز عشر ليرات في الأسبوع (حوالي 200 فرنك من عملتنا الحاليّة أو 60 ألف فرنك في السّنة الواحدة).

فالعامل الأمريكيّ، بصفة عامّة، يتقاضى معاشًا تقاعديًّا عندما يبلغ سنًّا معيّنَة لا يعود معها قادرًا على العمل. علاوة على ذلك، ثمّة ضمانات تحمي عائلته في حال عُرْضَته لأيّ حادث.

الواقع أنّ تأمين راحة العامل الأمريكيّ هو موضوع أبحاث دقيقة. أثبتت التّجربة أنّ تأمينات كهذه مفيدة أيضًا لربّ العمل بقدر ما هي مفيدة للعامل. ولوحظ أنّ تجهيز المقاعد بمساندَ للظّهر خفّفت التّعبَ عن العامل، وجعلت إنتاجه يزيد بشكل ملحوظ.

التّشارك بين أرباب العمل والمستخدمين، والأجور المرتفعة، والعناية المستمرّة بالعمّال، وتحسين الأدوات: تلكم هي الأسباب الرّئيسة لازدهار الولايات المتّحدة الصّناعيّ. الحقّ أنها تتفوّق في كلّ يوم على الصّناعة الأوروبيّة، التي تتآكل بفعل صراع الطّبقات، والأوهام الاشتراكيّة.

حقيقة الأمر أنّ التّشارك بين أرباب العمل والعمّال هو تطبيق لمبدإٍ سيكولوجيّ عرفه حتمًا أُناس ما قبل التّاريخ، لكن غالبًا ما نُسِي، لذا وجب اكتشافه من جديد.

يُمكن صياغة المبدإ القديم هذا من خلال الكلمات الآتية: إذا كانت المصلحة الفرديّة تتفوّق باستمرار على المصلحة الجمعيّة، فوجب، والحال هذه، توجيه العناية نحو الأولى من أجل التّأثير في النّاس.

بعبارة أوضح، تُعَدّ المحبّة، والأخوّة، والغيريّة مُحَفِّزاتٍ ضعيفةً للغاية إزاء المصلحة الشّخصيّة. عندما يُعطي صاحب مصنع أمريكيّ أجورًا مرتفعة لعمّاله، أجورًا تُمكِّنهم من الحصول على أفضل وسائل الرّاحة في حياتهم، تمامًا وفق المثال الذي أوردناه أعلاه، وعندما يهتمّ برفاهيّتهم فيستبدل المقاعد المجهَّزة بمساند للظّهر بمقاعد لا ظهر لها، مع العلم أنّ هذه الأخيرة هي التي كانت تُستخدم في كلّ المعامل، عندما يقوم بكلّ هذا، لا يُلفي نفسه مدفوعًا إلى القيام بذلك انطلاقًا من الحاجة إلى العمل الخيريّ الإنسانيّ التي يرغب أصحاب المصانع عندنا في تجسيدها أحيانًا. الحقّ أنّ ربّ العمل الأمريكيّ يسعى من خلال تحسين وضعيّة العامل إلى تحسين وضعيّته، فهو يعلم أنّ نظامَي التّحسين هذين متّحدان. سمحت هذه الملاحظة الأوّليّة، في أميركا، بوضع حدٍّ لصراع الطّبقات الذي راحت نتائجه تغدو في كلّ يوم أكثر تهديدًا لأوروبا.

بفضل كمال طرق التّنظيم هذه، استطاع العامل الأمريكيّ، من خلال عدد ساعات عمل أقلّ من تلك التي يؤدّيها زملاؤه الفرنسيّون، أن يزوّد ربّ عمله بعائد يفوق العائد التقليديّ من ثلاث إلى أربع مرّات، وفق ما لاحظ الكثير من المهندسين الأوروبيّين. من الطّبيعيّ إذًا أن يتوافق عائدٌ أكبر مع أجرٍ أعلى.

وبعد، أظهر الصّناعيّون الأمريكيّون أنفسهم، من خلال حلّ مسألة الصّراع بين الطّبقات المطروحة منذ قرون، بوصفهم اقتصاديّين ماهرين، وعلماء نفس أمهر أيضًا.

إلى ذلك، لا تتأثّر المعتقدات ذات الشّكل الدّينيّ لا بالملاحظة ولا بالتّجربة. بعبارة أخرى، لا يُمكن لأتباع الدّيانة الاشتراكيّة أن يُبدوا اندهاشهم من المقارنة بين حالة العمّال الروس البائسة، الذين يخضعون للاشتراكيّة، والوضعيّة السّعيدة للعمّال الأمريكيّين، الذين يُعدّون

من أبرز الدّاعمين للرّأسماليّة. مساواة في البؤس من جهة، ومساواة في البُحْبوحة من جهة أخرى.

لكن إذا كانت الحقائق التي تُلخّص الدّراسة السّابقة لا يُمكنها التّأثير في الاشتراكيّين، فإنّها تُظهر لأصحاب مشاريعنا الكبرى أنّ ازدهار هذه المؤسّسات الحاليّ، وبخاصّة الازدهار المستقبليّ، يتوقّف كثيرًا على راحة العمّال. إذا كان العامل الأوروبيّ محرومًا من الرّاحة في المصنع، وفي منزله الخاصّ، فإنّه سيبحث في الملهى عن لحظات السّعادة التي يحتاج إليها كلّ إنسان. إلى ذلك، ترك الأوروبيّ نفسه ينقاد بسهولة وراء الوعود بالجنّة التي قدّمها له أتباع العقيدة الاشتراكيّة. هربًا من الواقع الفعليّ، بإمكان هذه الوعود أن تُقدِّم، على الأقلّ، وهمًا يتعلّق بالسّعادة المستقبليّة.

(68) وحدة الحساب في علم الاقتصاد هي وحدة قياس مالية لتعريف العملة وتسجيلها ومقارنة قيمتها، وتعد هذه الخاصيّة إحدى الوظائف الأساسية للمال.

(69) قاعدة الذهب أو عيار الذهب نظام الذهب الدولي، وهو نظام مالي يستعمل فيه الذهب كقاعدة لتحديد قيمة العملة الورقية، وكان بناءً على هذا النظام تُقَيَّمُ عملةُ بلدٍ مَا، ويقوم البلد الذي يتبنى هذا النظام بتحويل أي عملة لديه إلى ذهب بعدما يوافق على اعتماد أسعار ثابتة لبيع وشراء الذهب. وقد كانت المملكة المتحدة أول بلد يتبنى قاعدة الذهب وذلك في عام 1821، ثم تبعتها بعد ذلك كثير من الدول الغربية، ومنذ عام 1930 تناقص دور الذهب في أنظمة النقد العالمية، واختفى تأثيره في أواخر سبعينيات القرن العشرين، إذ اسْتُبْدِلَ بنظامٍ آخرَ يُسَمَّى التثبيت. تكمن فوائد نظام قاعدة الذهب في أنه يكبح التضخم، ويقلل الإنفاق الحكومي، ثم في أنه يثبت أسعار العملات بين الدول التي تتبعه كنظام لتقييم عملاتها.

(70) الحرب البيلوبونيسية (431 ـ 404 قبل الميلاد) حرب يونانية قديمة نشبت بين الحلف الديلي بقيادة أثينا ضد الاتحاد البيلوبونيزي بقيادة إسبرطة. قسّم المؤرخون الحرب إلى ثلاث مراحل. المرحلة الأولى تعرف باسم حرب الأركيدميان، شنت فيها إسبرطة

غزوات متكررة على أتيكا، في حين استغلت أثينا تفوقها البحري لمداهمة ساحل البيلوبونيز ومحاولة قمع الاضطرابات داخل إمبراطوريتها، انتهت هذه الفترة من الحرب عام 421 قبل الميلاد، بتوقيع معاهدة سلام نيكياس، ولكن، قُوّضت تلك المعاهدة بسبب تجدد القتال في بيلوبونيز. في عام 415 قبل الميلاد، أرسلت أثينا قوة استطلاعية ضخمة لمهاجمة سرقوسة في صقلية، لكن الهجوم فشل على نحو كارثي، ودمرت القوة بالكامل عام 413 قبل الميلاد، وقد أدى ذلك إلى بداية المرحلة الأخيرة من الحرب، والتي عرفت عمومًا بالحرب الأيونية. في هذه المرحلة، تلقت إسبرطة تعزيزات من الإمبراطورية الأخمينية، ودعمت تمردات في الدول الخاضعة لحكم أثينا في بحر إيجة وإيونية، الأمر الذي قوض إمبراطورية أثينا، وسلبها في النهاية قوتها وتفوقها البحري، وقد أدى تدمير أسطولها في معركة إيجبوسبوتامي إلى إنهاء الحرب فعليًا، واستسلمت أثينا في العام التالي. طالبت كل من كورنث وثيفا بتدمير أثينا بالكامل واستعباد مواطنيها، ولكن إسبرطة رفضت ذلك. أعادت الحرب البيلوبونيسية تشكيل العالم اليوناني القديم، فقد أصبحت أثينا، المدينة الأقوى في اليونان قبل بداية الحرب، في حالة من الخضوع شبه الكامل، كما أصبحت إسبرطة القوة الرائدة في اليونان. دفع المواطنون في كل أنحاء اليونان ثمن التكاليف الاقتصادية المترتبة على الحرب، إذ أصبح الفقر منتشرًا على نطاق واسع في مناطق البيلوبونيز، ودمرت أثينا بشكل كامل، ولم تتمكن قط من استعادة الرخاء والازدهار اللذين تمتعت بهما قبل الحرب. أحدثت الحرب أيضًا تغييرات طفيفة في المجتمع اليوناني، الصراع بين أثينا الديمقراطية وإسبرطة الأوليغاركية، ودعم كل منها للفصائل السياسية الصديقة داخل دول أخرى، جعل الحرب حدثًا شائعًا في العالم اليوناني. انظر: ويكيبيديا.

# الكتاب السّابع: وضعيّة العالَم الماليّة

## الفصل الأوّل: إفقارُ أوروبا، والهيمنة الماليّة لأميركا

من بين التّبعات الكثيرة للحرب، يبرز إفقار أوروبا بوصفه تبعة من أكثر التّبعات وضوحًا. فقد استُنفِدَت الاحتياطات المُتراكمة بفعل الجهود الصّبورة التي بذلتها أجيال كثيرة، علاوة على أنّ صعوبة تجديدها تتعاظم في كلّ يوم.

يُلاحظ هذا الإفقار في كلّ دول أوروبا، بما في ذلك الدّول التي يُنظر إليها على أنّها الدّول الأكثر ازدهارًا ـ إنجلترا تحديدًا.

تبدو فرنسا في وضعيّة أفضل، لكنّ ازدهارها الظّاهر يعود إلى حقيقة أنّها عاشت، منذ الحرب، على قروضٍ متتالية تُسَدّد في موعدها استنادًا إلى قروض أخرى. الحقيقة أنّ دفع فوائد هذه القروض يلتهم في كلّ عام عشرين مليارًا، أي ما يُعادل نصف الموازنة.

إذا كانت البِطَالة التي تُلقي بثقلها على جزء كبير من أوروبا لم تظهر بعد في فرنسا، فذلك لأنّ استعادة المناطق المـُحَرَّرة على وجه الخصوص سمح بإعطاء فرص عمل لمجموعة من العمّال حيث دُفِعَت أجورهم من القروض ومن ظاهرة التّضخّم.(71)

لكنّ هذه العمليّات ستكون لها نهاية حتمًا. سينتهي الأمر بفرنسا إلى عدم إيجاد جهات تقرضها مالًا، وستضطرّ إلى التخلّي عن التّضخّم، الذي يؤدّي إلى ارتفاع ملحوظ في سعر الحياة عن طريق تقليص القدرة الشّرائيّة للعملة بشكل يوميّ.

باختصار، كما قال أحد وزراء الماليّة من على المنصّة: لقد خسر الفرنسيّون أربعة أخماس ثروتهم.

صحيح أنّ الإفقار يظلّ غير ملحوظ في خلال فترة الثّراء الظّاهر الذي يخلقه التّضخّم والقروض، إلّا أنّه سرعان ما سيُصبح مرئيًّا للجميع.

مع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنّ الخسائر الماليّة لم تلحق كلّ الطّبقات. فإذا تدمّرت بعض الطّبقات، فإنّ طبقاتٍ أخرى حقّقت ثروات طائلة. بعبارة أخرى، إذا كان أصحاب الدّخل قد افتقروا كثيرًا، فإنّ الفلّاحين والتّجّار حقّقوا ثروات طائلة من خلال ارتفاع مواردهم بشكل ملحوظ.

بعيدًا من أسباب الافتقار النّاجمة عن أضرار الحرب، وهي أسباب خاصّة بعدد قليل من البلدان، مثل فرنسا، ثمّة أسباب أخرى، عامّة تمامًا، تُهدِّد أوروبا بأسرها، وتتزايد في كلّ يوم.

تكوّنت هذه الأسباب عن طريق الاستقلال الصّناعيّ المتزايد للدّول الآسيويّة: المستعمرات، والدّول المحميّة(72)، إلخ.

اقتصر دور هذه الدّول، قديمًا، على توريد الموادّ الأوّليّة التي صنعت أوروبا.

قال بيت Pitt: «إذا كانت أميركا قد فكّرت في صناعة حدوة فرس، فإنّي سأجعلها تشعر بكلّ ثقل إنجلترا».

الحقّ أنّ المستعمرة الصّغيرة، التي هدّدها بيت، أصبحت المنافِس الذي تخشاه الإمبراطوريّة البريطانيّة، والمستعمرات الأخرى، مثل كندا وأستراليا اللّتين أصبحتا اليوم دولتين شبه مستقلّتين عن إنجلترا. لقد اعترفت بهذا الأمر، بِأَسَى، في المؤتمر الذي جمعها مع ممثّلي الدّول الحديثة شبه المستقلّة في لندن.

الواقع أنّ غالبيّة دول ما وراء البحار تتخلّص شيئًا فشيئًا من العبوديّة الاقتصاديّة التي فرضتها عليهم أوروبا. فعوضًا عن اكتفائها، كما كانت تفعل قديمًا، بتصدير الموادّ الأوّليّة، راحت تُصنّع المنتجات وتُصدّرها إلى العالم كلّه.

علاوة على ذلك، أصبح العالم الآسيويّ منافسًا حقيقيًّا لأوروبا. ولمّا كان العمل يتمّ هناك بتكلفة أرخص بكثير من أوروبا، فإنّ منافستها ستكون كبيرة.

هذه الظّاهرة، التي توقّعت ظهورها الحتميّ في كتابٍ لي عن الهند، ظهرت بقوّة اليوم. أضف إلى ذلك، أنّ الدّول التي ما زالت خاضعة لإنجلترا، مثل الهند، تتطلّع شيئًا فشيئًا إلى نيل استقلالها.

«الهند التي استوردت في العام 1910 حوالي عشرين ألف طن من الحديد الخام، صدَّرت في العام 1923 مئتَي ألف طن». كتبت صحيفة L'Illustration Economique. «الواقع أنّ أفول القارّة القديمة ترافق مع صعود دول جديدة. فالحرب جعلت العوالم الجديدة تعتاد تجاوز أوروبا وتخطّيها. بعبارة أخرى، أمكن لهذه العوالم أن ترى مزايا الوضعيّة الجديدة، ومن ثمّ أن ترفض العودة إلى الخضوع لنيرها... شَهِد القرن التّاسع عشر إعلان أوروبا إلغاء العبوديّة. أمّا القرن العشرون فشهد ويشهد تحرّر شعوب ما وراء البحار اقتصاديًّا، هذه الشّعوب التي ترغب، بدورها، في استعبادنا».

هذه المنافسة، من الدّول التي كانت تعتمد قديمًا على أوروبا، والتي تعمل اليوم بأسعار أرخص، ستكون لها تبعات كثيرة.

ستكمن أهمّ تلك التّبعات في ظهور قانون اقتصاديّ جديد يحكم قيمة الأجور، ويُمكن صياغته على النّحو الآتي: لن يتمّ تثبيت معدّلات الأجور لا عن طريق إرادة العمّال، ولا عن طريق إرادة أرباب العمل، بل عن طريق أسعار بيع البضائع العالميّة فقط.

احتاجت هذه الحقيقة الاقتصاديّة الجديدة لكي تترسّخ في عقل القادة البريطانيّين إلى إضراب استمرّ ستّة أشهر، وإلى خسارة تُقَدَّر بـ400 مليون جنيه إسترلينيّ.

قال عالم اقتصاديّ إنجليزيّ مؤخّرًا في هذا الصّدد:

«من دون التّجارة والصّناعة، سيُحكم على إنجلترا بالموت جوعًا وعطشًا في فترة وجيزة. وعليه، من المنطقيّ ألّا تسمح لنا الأجور المرتفعة في إنجلترا من مواجهة المنافسة العالميّة. فنحن نعاني زيادةً عبثيّة وغير مبرّرة في الأجور، زيادة تُغامر في أن تجعلنا نُكابد الجوع... فعندما حصل العمّال على زيادة بمعدّل 150 بالمئة ممّا كانوا يتقاضونه في العام 1915، هُزِمنا شرّ هزيمة في كلّ الأسواق العالميّة من قِبَل بضائع الدّول المجاورة لنا».

من بين الأسباب التي أدّت إلى إفقار أوروبا، والاضطرابات السّياسيّة التي كانت هي ـ أي أوروبا ـ مقرّها، ينبغي لنا أن نذكر مطالب الولايات المتّحدة المتعلّقة بديون الحلفاء في خلال الحرب.

حقيقة الأمر أنّ قصّة تبدّل مشاعر أوروبا تجاه أميركا تحظى بأهميّة سيكولوجيّة كبيرة. ففي أعقاب السّلام، اختبرت إنجلترا وفرنسا مشاعرَ تعاطفٍ كبيرة تجاه أميركا، وبُغْض كبير تجاه ألمانيا. لقد قيل وبحقّ: «إنّ فرنسا تربطها اليوم بألمانيا علاقات صداقة أقوى من تلك التي ربطتتها بأميركا».

هذا التّبدّل في المشاعر سيكون، كما كتبت صحيفة Neues Wiener Tageblatt، «تبعة طبيعيّة، ذلك بأنّ أوروبا بأسرها عانت من الحرب، في حين أنّ الولايات المتّحدة وحدها التي حصّلت منها على غنيمة كبيرة».

يبدو أنّ أوروبا بأسرها ترزح اليوم أكثر فأكثر تحت وطأة هيمنة الولايات المتّحدة الماليّة، التي تُطالب بشدّة بالمال الذي جرى اقتراضه من أجل حرب كانت هي المستفيد الوحيد منها. ما من أحد يجهل الآن أنّ الأمريكيّين فكّروا فقط في مصلحتهم الخاصّة عندما أتوا

لمساعدة الحلفاء. فحالما فجّر الألمان سفنهم، من أجل منع بيع البضائع للحلفاء، دخلوا الحرب لكي يُدافعوا عن أنفسهم.

الحقّ أنّ الأمريكيّين يُلاحظون اليوم، بندم وحسرة، المشاعر التي ولدّوها في نفوس الأوروبيّين. إليكم كيف عبّرت صحيفة La Nation de New ـ York عن هذا الأمر:

«ها نحن نغرق أكثر فأكثر في الصّعوبات التي تؤذي المشاعر دائمًا. وها نحن نجد أنفسنا أكثر فأكثر في وضعيّة المستبدِّين بالعالَم الماليّ. إلى ذلك، يجد رئيس الولايات المتّحدة نفسه، للأسف، في موقفٍ شبه إجماعيّ يستند إلى المطالبة بآخر قرش مَدَين لنا حلفاؤنا القدامى به. أمّا الفكرة القائلة بأنّه ينبغي للأمم أن تستمرّ في دفع المال لنا لمدّة 72 عامًا من أجل حرب انتهت في العام 1918، فإنّها فكرة غير منطقيّة البتّة. يعلم كلّ المصرفيّين الأمريكيّين هذا الأمر، لكنّهم يستفيدون من وضعيّة تُخوّلهم إقراض الدّول الأوروبيّة أموالًا في مقابل فائدة تصل من 7 إلى 8 بالمئة، هذه الأموال التي نامت في صناديقهم ولم تكن منتجة البتّة».

لم يكن هذا الرّأي حالة معزولة. فمجلّة America Review of Review عبّرت بالطّريقة نفسها في عددها الصّادر في كانون الثّاني 1926:

«إذا امتدّت حال الأشياء هذه، فسوف نصل إلى يوم ينبغي لنا فيه أن نمتلك كلّ ما له قيمة في أوروبا. سوف نحتفظ برهون عقاريّة ضخمة على الميزانيّات الماليّة لفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وبلجيكا، وبولندا. والحال أنّ الحياة الاقتصاديّة لهذه الدّول يجب أن تتجانس بالضّرورة مع المبالِغ التي يجب أن تُدفع للأمريكيّين. وبفضل هذه المبالغ، سنمتلك وسائل جديدة تُمكّننا من تعزيز سيطرتنا على مختلف الأمم الأوروبيّة. من الواضح أنّه لن يُسمح لنا أن نصل إلى هذا الحدّ. فأوروبا إمّا أن تنبذ هذه الدّيون أو تنخرط في حرب جديدة.

أوروبا اليوم فقيرة جدًّا وضعيفة جدًّا، وهي تعي جيّدًا هذا الفقر وهذا الضّعف، والحال أنّها لن تُفكّر، ولو في الحلم، في خوض حرب ضدّ الولايات المتّحدة. لكنّ الكراهية التي ولّدتها

الحرب موجودة هنا، وفي كلّ مكان. فالعنف، والغضب، والشّعور بالظّلم، والانطباع بأنّ هناك تهديدًا بالاستغلال يطال أوروبا حاضرًا ومُستقبلًا، كلّها عناصر توجد بوضوح. أمّا الاعتقاد بأنّنا استفدنا من المآسي التي عانت منها أوروبا حديثًا من أجل إعطائنا رهونًا عقاريّة ضخمة، وأنّنا استفدنا من محنتها الحاليّة من أجل توسيع رهوناتنا العقاريّة إلى ما لا نهاية، هو اعتقاد ترسّخ بالفعل بشكل واسع، وهو في طور التوسّع من دون توقّف».

سوف يُظهر المستقبل بالتّأكيد أنّ الضّغط الذي مارسته أميركا على أوروبا من أجل أن تنتزع منها الذّهب القليل الذي تمتلكه، لم يُحقّق على الإطلاق عمليّة مثمرة وناجحة.

في الوقت الذي أصبح فيه العالَم الجديد، نتيجة حتميّات التطوّر الحديث، أكثر فأكثر عدائيّة تجاه القارّة القديمة، ناضلت هذه الأخيرة وجهدت في توحيد مختلف شعوب أوروبا، وتسوية الخلافات التي تفصلها بعضها عن بعض.

نحن نعلم أنّ الأحكام المنصوص عليها في معاهدة فرساي، والمستوحاة من الرئيس ولسن، قد زعزعت تمامًا بنية أوروبا بأكملها. فبولندا التي انفصلت عن روسيا تشكّلت كجمهوريّة، والإمبراطوريّة النّمساويّة تقسّمت إلى: تشيكسلوفاكيا، ويوغسلافيا، وهنغاريا، إلخ.

الحقّ أنّ تطبيق مبدأ القوميّات أوصَلَ القوميّين النِّيام إلى القمّة. أمّا البلقانيّون فأبدوا استعدادهم لاستئناف الصّراعات القَرنيّة(73) التي كَلَّفت أوروبا غاليًا. النّمسا بدورها تهدَّمت بفعل عَزْلها، وطالبت بضمّها إلى ألمانيا. أمّا إيطاليا فأرادت أن تتوسّع في البحر المتوسِّط على حساب جيرانها. الحقيقة أنّ أسباب النّزاع تتعاظم في كلّ مكان.

لقد أَعْمَت الكراهيّاتُ القَرنيّةُ الشّعوبَ الأوروبيّة التي لم تتوصّل إلى الاتّفاق في ما بينها، بل راحت تُنفِق آخر ما تبقّى من ثرواتها على التّسليح الباهظ. قل كذلك عن الأحزاب السيّاسيّة التي راحت تتشاجر بغضب من أجل تحقيق أوهامها. باختصار، يُسيطر الحسد، والغيرة، والكراهية على أوروبا اليوم. فكيف بالإمكان تحقيق التقدّم في ظلّ استمرار مشاعر كهذه؟

مع ذلك، لن تتخلّص الدّول الأوروبيّة من الخراب الذي يُهدّدها إلّا إذا توصّلت إلى الاتّحاد بعضها مع بعض صناعيًّا وتجاريًّا من أجل تأسيس الكتلة الأوروبيّة التي رسم رجل دولة شهير معالمها في لوكارنو Locarno. والحال أنّ المعضلة التي تُطرَح اليوم هي الآتية: إمّا الازدهار عن طريق الاتّحاد وإما الهلاك بفعل الانقسامات.

# الفصل الثّاني: وضعيّة فرنسا الماليّة

سيقول فلاسفة المستقبل حتمًا إنّه ما من حقبة في التّاريخ كانت حافلةً بالأوهام مثل حقبتنا: أوهام سيّاسيّة، واجتماعيّة، وماليّة، تُثْقِل كاهل الشّعوب منذ بداية الحرب الكبرى. لقد أعمت العقول الأكثر تبصُّرًا. والحال أنّ الكثير من الحوادث كانت كفيلة بإحباط توقّعات أصحاب تلك العقول.

ابتدأ عصر الأوهام الجديدة مع الحرب. كان الألمان أول ضحاياه، فقد اقتنعوا بأنّ أمّة متفوّقة بفضل عدد جنودها وقوّة أسلحتها هي أمّة لا تُقهَر. لذا تسبّبوا في النّزاع العالميّ، وخضعوا لتحالفات لم يتوقّعوها البتّة.

انتهى الصّراع، ودخل المنتصرون بدورهم في دائرة الأوهام التي أفضت إلى كثير من الخراب.

فالسّلام الوهميّ الّذي كرّسته معاهدة فرساي، كان في الواقع سببًا رئيسًا من أسباب الوضعيّة الماليّة المرعبة التي غرقت فيها فرنسا اليوم.

حقيقة الأمر أنّ العقول المضلَّلة سترى بسهولة أنّ ألمانيا لا تستطيع أن تدفع بالذّهب المبالغ الهائلة المطالَبة بتسديدها، لذا وجب الاستسلام لضرورة الاكتفاء بالإصلاحات المقترَحة.

الحقّ أنّه من شأن استبدال البضائع التي سيتمّ تسليمها على امتداد سنوات طويلة بالذّهب، أن يجعل من ألمانيا أكبر أُمّة مصدِّرة في العالَم. أمام تدفّق بضائعها، أَلْفَتِ المصانع

الفرنسيّة، التي تُصَنِّع منتجات مماثلة، نفسها فريسة للبطالة.

يُشَكِّلُ إجبارُ الألمان على القيام بأنفسهم بالإصلاحات في المناطق المنكوبة الحلّ الأمثل. لكن من منطلق الاعتقاد بأنّ المهزومين هم الذين سيدفعون ثمن هذه الإصلاحات، فضّلت الحكومة الفرنسيّة الاضطلاع بهذه المهمّة. لقد جرى ابتلاع 75 مليارًا، وختامًا وجب الاعتراف بأنّ هذا الإنفاق الكبير، الذي كان من شأنه أن يُرهق الماليّة الفرنسيّة، لن تقوم ألمانيا بسداده أبدًا، ذلك بأنّ المبالغ المـُحَصَّلة سنويًّا منها بالكاد تكفي لسَداد ديون فرنسا لحلفائها.

والحال أنّ مرحلة إعادة البناء التي تبعت الحرب شكَّلت حقبة الإنفاق الكبير، والأخطاء الكبيرة أيضًا. فالشّعار السّحريّ: «ألمانيا ستدفع»، أفضى إلى قَبُول كلّ أشكال التّبذير والإسراف. لقد أنفق الوزراء من دون أن يأخذوا بالحسبان أيّ شيء.

لم يوجد حاجز يقف ضدّ قِصَر نظرهم. لقد اقترضوا، وعندما أدّى تكرار الاقتراض إلى استحالة السّداد، لجؤوا إلى اعتماد سياسة التّضخّم.

لا يُمكنُ هذه الوضعيّةُ المصطنعةُ أن تدوم طويلًا. فهي تجعلهم عاجزين عن ضبط موازناتهم. والحال أنّ الأمر سينتهي بفرنسا سريعًا إلى خسارة ثقة الأجنبيّ، ناهيك بتدني قيمة عملتها الورقيّة، التي تتضاعف بلا توقّف. الحقّ أنّ فرنسا باتت تدفع ثمن السِّلَع الأساسيّة للأجنبيّ بسعر يفوق خمسة أو ستّة أضعاف سعرها في السّوق العالميّ. لقد أشرتُ سابقًا إلى أنّ أكثر من نصف موازنتها مُخصّص لدفع فوائد قروضها.

يبدو أنّ أسبابَ الانخفاض السّريع الحقيقيّةَ للفرنك في الأسواق العالميّة فُهِمَت بشكل سيّئ من قِبَل الوزراء اللّاحقين. لقد عَزوها إلى التّأثيرات الأكثر عرضة للتّغيُّر: المضاربة، وتصدير رؤوس الأموال، إلخ، التّأثيرات التي حاولوا معالجتها عن طريق اتّخاذ تدابير صارمة. علاوة على ذلك، كانت التّحسينات المأمولة معدومة تمامًا.

أبدى أحد وزراء الماليّة يأسه من عجزه، فصرّح قائلًا: «قد واجهتُ ظواهر مجهولة».

حقيقة الأمر أنّ الظّواهر المجهولة التي واجهها الوزراء كانت بسيطة للغاية بالنّسبة إلى العقول التي لم تُضلّلها الأوهام.

لقد استخلصناها بسهولة في السّطور القليلة السّابقة، ومع ذلك يُمكننا أن نُلخِّصها في عدد قليل من البنود البديهيّة.

1 ـ تفتقر أيّ أمّة سريعًا إذا كان حجم نفقاتها، باستمرار، أكثر من إيراداتها.

2 ـ يُعجِّل كلّ ما يقف عائقًا أمام القدرات الإنتاجيّة لأيّ بلد: اضطهاد رؤوس الأموال المـُحَرِّكة للصّناعات الكبرى، ومنع العمّال من زيادة ساعات عملهم، إلخ، يُعجِّل الانهيار.

3 ـ من أجل إصلاح النّظام الماليّ لأيّ بلد، ينبغي زيادة إنتاجه، وتعزيز تجارته، ومن ثمّ تقليص نفقاته.

الحقّ أنّ أرقام ديوننا كبيرة جدًّا، على الرّغم من تباينها تبعًا لمـُعِدّيها. إلى ذلك، قدّر السيّد بوانكاريه، في خطاب ألقاه في كانون الثّاني 1926، ديوننا بـ281 مليار، موزَّعة على الشّكل الآتي: 150 مليارًا عبارة عن ديونٍ طويلة الأمد، 37 مليارًا عبارة عن ديون قصيرة الأمد، و94 مليارًا تشمل سائر الدّيون. يجب أن نُضيف، في المحصّلة، إلى مجموع هذه الدّيون 21 مليارًا ضروريّة من أجل إنهاء الإصلاحات في المناطق المحرَّرة.

ينبغي، على الأرجح، أن يُضاف أيضًا إلى الأرقام السّابقة 16 مليارًا و325 مليون فرنكٍ ذهبيّ مستحقّة لإنجلترا، و23 مليارَ فرنكٍ ذهبيّ مستحقّة للولايات المتّحدة. الواقع أنّ تحويل هذه المستحقات إلى الأوراق النقديّة الصّادرة عن المصرف الفرنسيّ، يجعلها تساوي 200 مليار تقريبًا، إذا احتسبنا سعر الصّرف الحاليّ لليرة الذي يُساوي 125 فرنكًا.

يبلغ مجموع هذه الدّيون حوالي 500 مليار، وهو رقم قريب جدًّا من الرّقم الذي عرضته صحيفة Journal de la Société de statistique de Paris، بتاريخ 19 أيّار 1926.

أمّا العائدات السّنويّة من جرّاء فرض الضّرائب فارتفعت إلى 44 مليارًا، حيث جرى تخصيص أكثر من نصفها (22 مليارًا و778 مليونًا) للنّفقات الإلزاميّة: الرّواتب، والمعاشات التّقاعديّة، إلخ. علاوة على ذلك، إليكم كيف يتوزّع المجموع الأخير هذا: ديون داخليّة 12 مليارًا و906 ملايين، ديون خارجيّة 4 مليارات و778 مليونًا، معاشات مدنيّة وعسكريّة 5 مليارات و94 مليونًا.

الاقتراض والتّضخّم كانا حتّى الآن الموارد الأساسيّة المستخدَمة من أجل مواجهة نفقاتنا الباهظة.

ارتفع مجمل الأوراق النّقديّة، الذي بلغ بالفعل 39 مليارًا ونصف المليار في أيّار 1924، إلى 54 مليارًا في تمّوز العام 1926. ينبغي أن يُضاف إلى هذا الرّقم 44 مليارًا عبارة عن سندات الدّفاع الوطنيّ التي هي في الواقع أوراق نقديّة مع فوائد. الواقع أنّ مئة المليار هذه يجري ضمانها من خلال ذهب ونقود لا تتعدّى قيمتهما أربعة مليارات.

وعليه، بسبب ارتفاع رقم الأوراق النّقديّة من دون ضمان، تسارع انخفاض قيمة الفرنك، وقدرته الشّرائيّة تضاءلت، وهي ظاهرة لوحظت باستمرار في كلّ الدّول التي لجأت إلى التّضخّم.

اليوم القدرة الشّرائيّة للفرنك هي أقلّ بخمسة أضعاف ممّا كانت عليه قبل الحرب، وهذا يعني، بطبيعة الحال، أنّ الحياة باتت أكثر تكلفةً بخمس مرّات.

حقيقة الأمر أنّ الوضعيّة الماليّة التي لخّصناها للتوّ لها تبعة أساسيّة، ألا وهي تقويض الكثير من طبقات الشّعب الفرنسيّ.

فالضّريبة على رأس المال، التي استحوذت على مخيّلة الاشتراكيّين، أُلْغِيَت بعيدًا من تدخّلهم أكثر ارتفاعًا ممّا كان يُمكنهم أن يأملوه. فالشّخص الذي كان يملك رأسمالٍ قدره 100.000 فرنك من سندات الدّخل في لحظة الحرب، وجد أنّ قيمته تراجعت إلى النّصف. من دون شكّ لم يتراجع الدّخل في الظّاهر، لكن لمـّا لم تُمثِّل القدرة الشّرائيّة للعملة النّقديّة إلّا خمس قيمتها الأساسيّة، أصبح العائد الحاليّ البالغة قيمته 5000 فرنك يُساوي 1000 فرنك فقط في مرحلة ما قبل الحرب.

على الرّغم من انخفاض القدرة الشّرائيّة للفرنك، لم يُعانِ التجّار، والمزارعون، والعمّال على الإطلاق، وذلكم ما أوضحتُه أعلاه. فالتجّار رفعوا ببساطة سعر بضائعهم، والعمّال رفعوا معدّلات أجورهم. الحقّ أنّ هذه الأجور ازدادت بمعدّلات لا يُبرّرها انخفاض قيمة الفرنك.

في الحقيقة عاش العامل تحديدًا رغد العيش أكثر ممّا عاشه في مرحلة ما قبل الحرب. لقد اغتنى التجّار والفلّاحون، كما ازدادت قيمة الأراضي والمؤسّسات التّجاريّة كثيرًا.

يسمح لنا كلّ ما تقدّم أن نتخوّف بالفعل من أن يؤدّي اغتناء العمّال، والفلّاحين، والتجّار إلى افتقار البرجوازيّة القديمة، وانحدارها ببطء نحو هاوية الفقر.

لا يُمكننا أن نتفحّص تفصيلًا الوسائل المتَّبعة من أجل معالجة مسألة الإفقار في فرنسا. أمّا الوسائل المشار إليها فهي وسائل تضليليّة. فنحن لا نستطيع تحسين الوضعيّة الحاليّة لا عن طريق القروض، ولا عن طريق التّضخّم، ولا عن طريق تحقيق استقرار مصطنع للعملة. وعليه، يُمكن القول، كما أشرنا سابقًا، إنّ بلدًا ما لا يزيد ثروته إلّا إذا حَسَّن زراعته وصناعته.

لقد فوّتنا على أنفسنا، منذ زمن طويل، فرصة الاستفادة من هذين العنصرين. في هذا السّياق أوضح السيّد كايو M. Cayeux في الـ Ingénieur Francais إلى أيّ حدّ تناقصت صناعاتنا تدريجيًّا، نظرًا إلى عدم وجود توافق وانسجام بين الصّناعيّين والمعدّات المناسبة، في حين تطوّرت الصّناعات الألمانيّة تطوّرًا ملحوظًا. الحقّ أنّ الإنجازات الألمانيّة

كانت سريعة للغاية، فقد باع الألمانُ لنا في العام 1913 ـ لكي لا نذكر سوى مثال وحيد ـ 50.200 طنّ من الأجهزة الكهربائيّة، في مقابل 2.100 طن عام 1907. «راح الصّناعيّون واحدًا تلو الآخر يُنَكِّسون أعلامهم أمام الواردات القادمة ممّا وراء نهر الرّين».

لو اكتفى الألمان، عوضًا عن حربٍ عسكريّة، بحربٍ اقتصاديّة، لكنّا نحن اليوم المهزومين.

من دون شكّ أفضت الحرب إلى تحقيق بعض الإنجازات، لكنّها إنجازات غير كافية أيضًا.

فالهدف الّذي ينبغي لنا اتّباعه هو الوصول إلى جعل الصّادرات تتفوّق على الواردات. وحده هذا الفائض سيسمح لنا بتحقيق انتعاشٍ ماليّ.

في هذا السّياق، كان وزير ماليّتنا السيّد رايمند بوانكاريه محقًّا عندما أوصى في خطاب هامّ بـ«تكثيف الإنتاج العاصميّ والمستعماراتيّ بكلّ أشكاله».

أضاف: «لا يوجد إصلاح ماليّ، ولا إصلاح نقديّ مستدام، ولا يوجد استقرار حقيقيّ إذا كان الميزان التّجاريّ، أو على الأقلّ الميزان الحسابيّ، لا يُمثِّل فائضًا مستمرًّا».

الواقع أنّ ضرورة زيادة إنتاجنا الوطنيّ، لا سيّما في مجال الزّراعة، قد شُلَّت من خلال تلك الانحرافات الدّيمقراطيّة، التي غالبًا ما يتأتّى منها انحطاط أيّ بلد. فقانون السّاعات الثّماني المروِّع، الذي أتى على حريّة العمل من خلال منع العمّال من زيادة إنتاجهم، أدّى إلى ارتفاع ملحوظ في الرّسوم المفروضة على الكثير من الصّناعات، وتحديدًا على سكك الحديد.

والحال أنّ الوزراء قصيري النّظر طبّقوا هذا القانون بقوّة لا تعرف الكَلل. ففي إحدى جلسات مجلس النوّاب، عبَّر وزير العمل على النّحو الآتي:

«لواقع أنّ الصّناعة مُنظَّمة تمامًا، لذا ينبغي لنا الآن أن ننصرف إلى تنظيم مهن أخرى: فنادق، مطاعم، مقاهٍ، مصارف، شركات تأمين، صيدليّات، صالونات حلاقة، إلخ،... بالمحصّلة، من بين سبعة ملايين عامل فرنسيّ يُمكن أن يخضعوا لهذا القانون، لا يوجد

حتّى اللّحظة سوى 500 ألف عامل نجحوا في التملُّص منه، لكنّهم لن يتملّصوا منه طويلًا».

بدافع الفضول، بحث السيّد ديون M. de Dion، عضو مجلس شيوخ الـLoire ـ Inférieure، عن الثّمن الذي دفعته فرنسا من جرّاء تطبيق هذا القانون الكارثيّ، القانون الذي جرى حفظه نظريًّا، لكن جرى طرحه عمليًّا منذ وقت طويل من قِبَل الألمان.

إليكم بعض الحسابات التي أجراها:

«إذا أمكن لـ6.500.000 عامل فرنسيّ يخضعون لقانون السّاعات الثّماني أن يملكوا الحقّ في العمل لمدّة عشر ساعات، فسوف نحصل سنويًّا على 4.056.000.000 ساعة عمل».

مع تثبيت قيمة السّاعة بفرنكين اثنين، لاحظ السيّد ديون أنّ: «خسائر الثّراء الاقتصاديّ تُقدَّر بـ8 مليارات و112 مليون فرنك سنويًّا...». يُضيف الكاتب أنّ ساعات العمل الضّائعة كان يقوم بها 1.625.000 عامل أجنبيّ، إذ جاؤوا ليسدّوا الخلل القانونيّ المتعلِّق باليد العاملة الفرنسيّة. لو أمكن العاملُ الفرنسيّ أن يعمل عشر ساعات، ما كانت الهجرة هذه لتحصل.

وفقًا لحسابات الكاتب نفسه، «كان العمّال الأجانب هؤلاء يُرسلون سنويًّا إلى بلادهم مليارًا و625 مليون فرنك، ادّخروها بأنفسهم. في خلال ستّ سنوات، عبرت الحدود أكثر من عشرة مليارات فرنك».

إنّ أهميّة تصدير رؤوس الأموال هذه قد أفضت حتمًا إلى زيادة سعر الصّرف، وإلى زيادة في تكاليف المعيشة. تُضاف هذه الأمثلة السّابقة، للأسف، إلى أمثلة كثيرة أخرى لتوضح أنّ فرنسا لم تقع ضحيّة نفقاتها فحسب، بل وقعت كذلك ضحيّة تراكم أخطاء سيّاسيّة وماليّة.

# الفصل الثّالث: مقياس الوضعيّات الماليّة السّيكولوجيّ

يُعَدُّ الانتقال من الكيفيّ إلى الكمّيّ، كما بيّنتُ في موضعٍ آخر، إنجازًا من أهمّ الإنجازات التي تحقّقت في العلوم. شهدت هذه العلوم تحوّلًا عندما نجحت في اكتشاف أدوات قياس مثل التّرمومِتر. الواقع أنّ الإنجازات لم تتضاعف إلّا مع دقّة المقاييس. وعليه، أظهر اكتشاف مقياس الإشعاع الحراريّ (بولومتر)، الّذي سمح بتقدير تغيّرات الحرارة في جزء من المليون من الدَّرجة، أظهر أنّ الطّيف الشّمسيّ غير المرئيّ كان أطول بكثير من الطّيف غير المرئيّ. نجم عن ذلك أنّ العين البشريّة لا تتلقّى إلّا جزءًا ضئيلًا من الضّوء الذي يُغلِّف الأشياء.

إنّ اكتشاف أدوات قياس القوى، هذا الاكتشاف الذي أحدث تحوّلًا في الفيزياء، لم يتحقّق حتّى الآن، للأسف، في مجال السّيكولوجيا. فالسّعادة والألم، والحبّ والكراهية، والحزن والفرح، لا يُمكن أن تُقاس بدقّة. الحقّ أنّ المؤشّرات التي من شأنها أن تُحدِّد مقدار تلك الحالات الشّعوريّة على وجه التّقريب ما زالت غامضة للغاية.

مع ذلك، ثمّة حوادث غير متوقّعة أتاحت لنا فرصة اكتشاف طريقة تسمح بقياس الرّأي العام العالميّ المتعلِّق بالوضعيّة الماليّة للكثير من الدّول، وذلك بدقّة كبيرة لا توفّرها إلّا الأرقام.

تكوّنَت هذه الطّريقة بفضل ما يُعرَف بسِعر الصَّرف. إنّها، والحقّ يُقال، مقياس سيكولوجيّ حقيقيّ. لقد شكّلت، بوضوح، الرّأيَ العام المتعلِّق بالوضعيّة الماليّة لبلد من البلدان. أمام هذه الأرقام، تتعاظم الحكومات أو تنهار. واستنادًا إلى هذه المؤشّرات أُطيح على الفور بفريق وزاريّ، وأُجبِر البرلمان على القَبُول برئيس حكومة لم يكن حتّى بضعة أيّام خلت من الممكن القبول به بأيّ ثمن.

إلى ذلك، يُعبِّر المقياس الفيزيائيّ عن القوى الماديّة. أمّا المقياس السّيكولوجيّ الجديد فيكشف عن توليفة متعلّقة بشبكة كبيرة من القوى الجمعيّة.

علاوة على ذلك، يتعلّق الأمر هنا بقوّة جديدة في طور الانبثاق من زوبعة الأسباب اللا متناهية. لقد أمكن لنا أن نتصفّح طويلًا صفحات التّاريخ قبل أن نكشف، من بين أسياد العالم القدامى، والبابوات، والملوك، والأباطرة، عن وجود سلطة سيّاسيّة عادلت سلطة القوّة الجديدة التي ولّدتها الأزمنة الحديثة.

الواقع أنّ مراكز إشعاعها لا توجد في البرلمانات، ولا في قصور الملوك، وإنّما في المباني المهيبة التي هي مقرّ بورصات العواصم الكبرى. والحال أنّ الأرقام التي تُسيطر على إرادات البرلمان، والحكّام، والشّعوب، تنطلق من هذه المحاكم المجهولة. وهذه المحاكم تُوَلِّد إمّا الفقر أو الغنى، ناهيك بالثّورات، والفوضى، والدّكتاتوريّات.

يبقى السّؤال: وفق أيّ تأثيرات تشكّلت القوّة الجديدة التي أظهرنا للتوّ حجمها، ومقدارها؟

في ما سبق، كانت هذه القوّة مجهولة، لذا لم يكن بالإمكان أن تولَد إلّا مع الاكتشافات التي سمحت لبعض الأشخاص المنتشرين في العالَم بأسره بأن يُوَحّدوا للحظة إراداتهم الفرديّة بغية تحويلها إلى إرادة جمعيّة واحدة.

وبعد، ما الأسس التي استندت إليها أحكام هذه الإرادة الجمعيّة التي تمارس عليها القرارات الفجائيّة تأثيرًا كبيرًا؟

في الحالات الأبسط، يُمكن تفسير الإرادة الجمعيّة هذه بسهولة، لكنّ الأمر لا يجري دائمًا على هذا النّحو. نحن نفهم ارتفاع الليرة المفاجئ بنسبة خمسين فرنكًا، عندما وصل إلى السّلطة رئيس مجلس يخضع للإرادات الاشتراكيّة. والحال أنّ المحكمة العالميّة شهدت على الفور فرار رؤوس الأموال، ناهيك بكون إجراءات المصادرة التي قام بها الاشتراكيّون كانت كفيلة بالتّسبب في خراب فرنسا.

في حالات أخرى بسيطة أيضًا، تبدّت بوضوح العلاقة بين الأسباب والنّتائج. الحقّ أنّها لا تُدرَك في الظّروف العاديّة بمثل هذا الوضوح.

يُمكننا القول، من دون ادّعاء حلّ مسألة إجماع الإرادات الجمعيّة، إنّه مع إزالة المسافات عن طريق التّلغراف، تشكّل في العالَم، بصدد بعض المسائل، رأي عالميّ مفاده أنّ العدوى الذّهنيّة تنتشر سريعًا.

حقيقة الأمر أنّ عددًا كبيرًا من الإجراءات التي اتّخذتها حكومات بعض الدّول من أجل توفير الثّقة الجمعيّة، وتنظيف أموالها، هي عينها الإجراءات التي يتّخذها محامٍ بارع في مرافعةٍ منطوقة أمام محكمة مهيبة حيث يُمكن أن تكون لقرارتها التي لا تقبل الاستئناف تبعات تُثقل كاهل حياة شعب من الشّعوب.

وبعد، طالما تعذَّر على الذّهنيّة الشّعبيّة فهم القوى التي تحكم العالَم في مختلف حقباته التّاريخيّة. إلى ذلك، تحوّلت هذه القوى إلى شخصيّات إلهيّة أو إلى شخصيّات بشريّة تتمتّع بسلطات خياليّة.

ولذلك، يُمكن القول إنّ التطوّر الغامض للقوى التي تحكّمت بولادة الأرقام المسجَّلة في البورصات يتوقّف، بحسب المعتقد الشّعبيّ، على إرادة أولِغارشيّة صغيرة يحمل لها الاشتراكيّون كراهية كبيرة، ويطلب رؤساء الدّول مساعدتها.

وهنا، يتشابه خطأ الحكّام كثيرًا مع خطأ الشّعب: فهم يعتقدون أيضًا أنّه بمساعدة بعض المصرفيّين النّافذين، يُمكن لوضعيّة بلدهم الماليّة أن تتغيّر. على سبيل المثال، توقّف تغيير مسار العملة على مساعدتهم.

حقيقة الأمر أنّ السّلطة المفترضة هذه هي سلطة مُتَخَيَّلة. في هذا السّياق، تكفي التّجربة لتبيِّن أنّ الملايين، التي يُقرضها أمراء الأموال أحيانًا، المخصّصة من أجل تعديل مسار العملة، قد جرى ابتلاعها من دون الحصول على نتيجة إيجابيّة دائمة وفعّالة.

وعليه، أثبتت الكثير من التّجارب، ذات الطّابع نفسه، إلى أيّ حدّ كانت القوى الفرديّة عاجزة عن مواجهة تجمّع القوى الاقتصاديّة الهائل، هذه القوى التي تُحدِّد في يومنا هذا المسار الماليّ للعالَم.

في غالبيّة الدّول الأوروبيّة: فرنسا، وإيطاليا، وبلجيكا، وبولندا، والنّمسا، إلخ، تأتي المشكلات الماليّة اليوم في مقدّمة اهتماماتها. فهي التي تتحكَّم بالحياة السيّاسيّة والاجتماعيّة برمّتها.

الواقع أنّ النّقطتين الأساسيّتين اللّتين تنطوي عليهما هذه المشكلات هما الميزانيّة المتوازنة، وخلق عملة ذات قيمة ثابتة، أي لا تخضع لأيّ تقلُّب.

لا يبدو حلّ هاتين المشكلتين، والمشكلة الثّانية تحديدًا، أمرًا سهلًا، ذلك بأنّ الخبراء المـُعَيَّنين في مختلف الدّوَل من أجل حلّهما لم يتوصّلوا بشكل عام إلى نتائج كافية.

مع ذلك، ينبغي لنا ألّا نندهش: فالخبراء، في الواقع، لم يُدخلوا في حساباتهم سوى العناصر الاقتصاديّة القابلة للقياس، في حين أنّ المشكلات التي يتوجّب حلّها هي مشكلات تُهيمن عليها غالبًا العناصر السّيكولوجيّة التي تستعصي على كلّ قياس.

# الفصل الرّابع: صعوبات سيكولوجيّة تواجه الإصلاحات الإداريّة

من بين الوسائل التي استخدمتها الدّول الأوروبيّة بعامّة، وفرنسا تحديدًا، من أجل إصلاح وضعها الماليّ، تبرز الوفورات التي يُمكن أن تُنتجها التّحوّلات الحاصلة في الإدارات المعقَّدة والمـُكْلِفة.

استهلّت الحكومة الفرنسيّة هذه المهمّة بالمرحلة السَّهلة المتعلِّقة بالإلغاءات، أي تلك التي تسبق مرحلة إعادة التّنظيم الأصعب.

الحقّ أنّ تزايد عدد العمّال المُكلِف له أسباب سيكولوجيّة بعيدة سنلخّصها بعد قليل. إنّها تنجم أيضًا عن النّظام الدّيمقراطيّ. إلى ذلك، راح كلّ نائب يُطالب بخلق وظائفَ جديدة لكي يعهد بها إلى ناخبيه الأكثر تأثيرًا، ناهيك بكون الوزراء أحوج ما يكونون إلى أصوات هؤلاء النوّاب، لذا لم يرفضوا خلق مثل تلك الوظائف. لذلك تكاثر عدد الموظّفين بشكل مذهل.

وبعد، شوهدت الظّاهرة نفسها منذ أمدٍ بعيد في غالبيّة الدّول التي تعتمد النّظام البرلمانيّ، وإيطاليا تحديدًا. لقد وجب قيام الثّورة الفاشيّة من أجل تخليص هذا البلد من فائض العمّال الذي قوّضها واضطهدها.

تُعَدّ هذه الزّيادة في عدد الموظّفين سببًا من أسباب الأزمة المُكلِفة التي تُعاني منها الإدارة الفرنسيّة. مع ذلك، توجد أسباب أخرى، أعمق أيضًا.

على الرّغم من تصرّفات الشّعب الفرنسيّ الثّوريّة، فإنه قد يكون الشّعب الأكثر مُحافظة من بين كلّ الشّعوب، ولذلك أمكن لإدارة تكيَّفَت مع حاجات الحقبات السّابقة، إدارة تشيخ في كلّ يوم، أمكن لها أن تُحافظ على وجودها من دون تغيّر، منذ زمن بعيد، أي منذ الحقبة التي أعاد نابليون تنظيمها فيها.

الواقع أنّ الأنظمة السيّاسيّة هلكت نظامًا تلو الآخر، وتكوّنت أحزاب سيّاسيّة جديدة، كما اجتاحتِ الثّوراتُ العروشَ. وحدها الإدارة الفرنسيّة القديمة ظلّت صامدة، ولم تعرف التغيُّر. الحقّ أنّها السّلطة الوحيدة التي لم يطلها أيّ انقلاب. فهي أقوى من الحكّام، والبرلمانات، والوزراء، إذ إنّها استمرّت في حكم فرنسا بشكل استبداديّ.

إلى ذلك، أصبحت الإدارات العامّة، من خلال حفاظها على أطر ثابتة، أكثر تعقيدًا مع تقدّم عمرها، وشكّلت، في نهاية المطاف، سلسلة من سلطات صغيرة مستقلّة ومنفصلة بعضها عن بعض، عن طريق حواجز مُحْكَمة.

تُشكِّل الظّاهرة الأخيرة هذه خاصيّة من خصائص إداراتنا. فهي تُرجِمَت بوضوح من خلال القصّة التي يجري استذكارها دائمًا ـ لأنّها نموذجيّة ـ ونعني قصّة الأرصفة الباريسيّة التي نُزع بلاطها وأُعِيدَ تركيبه ثلاث مرّات في غضون شهر واحد، ويعود السّبب في ذلك إلى استحالة الاتّفاق بين الإدارات، التي أُنيط بها تركيب إمدادات الغاز، والماء، والهاتف، على تنفيذ عملها في الوقت نفسه.

في كلّ الإدارات، تعيش المكاتب منفصلة، وتعتزم عدم التّعارف. ينجم عن ذلك أنّ أبسط عمل بات يُلحق إزعاجًا كبيرًا بالعامّة.

إنّ عجز الإدارات عن التّشاور في ما يتعلّق بالمصلحة العامّة هو، لعمرنا، عجز خاصّ بفرنسا. فهذا العجز لم يُلحظ على الإطلاق في ألمانيا.

هذا الاختلاف أذهل كثيرًا صناعيًّا كبيرًا من الشّمال، السيّد غيران M. Guérin، الذي جرى القَبُول به من قِبَل الحكومتين الفرنسيّة والألمانيّة كوسيط في خلال الحرب يضطلع بمهمّة توزيع الأغذية التي قدّمتها أميركا. والحال أنّه مُنِح ترخيصًا بالدّخول إلى باريس وإلى برلين، بالتّناوب، بغية تذليل الصّعوبات المتعلّقة بهذا التّوزيع.

في برلين، على الرّغم من أنّ القضيّة التي يُعمَل عليها تتعلّق بإدارات كثيرة، أتاني القرار في غضون أربع وعشرين ساعة. في باريس، في ما يتعلّق بالقضيّة نفسها، أمضيتُ ثمانية أيّام أنتقل من وزيرٍ إلى آخر، ومن مكتب إلى مكتب، من دون أن أتمكّن من الحصول على حلّ.

تُجابه كلّ محاولة إصلاح إداريّ، في بعض الدّول بعامّة، وفي فرنسا بخاصّة، بمفاهيم سيكولوجيّة أساسيّة أعطتها الوراثة والعادة قوّة كبيرة.

بسبب تأثيرات كهذه، شهد تاريخنا المعاصر، على الرّغم من المظاهر التي تُثبِت العكس، استمراريّة ملحوظة في الأنظمة المختلفة التي تعاقبت عليه. لقد نزعت جميعها إلى إخضاع البلد لسيطرةِ سلطةٍ مركزيّة تُمْتَصّ بشكل أكبر يومًا بعد يوم.

لقد تمّت الوحدة، بيد أنّ العادات المثبتة في النّفوس لا يُمكن أن تتغيّر. نحن نُكمِل، في الحقيقة، ما خطّه النّظام الملكيّ لكن تحت أشكالٍ جديدة.

والحال أنّ الأمر انتهى بالدّولة، تحت ضغط ذهنيّة خلقتها قرون من الجهود المبذولة، إلى استيعابِ إدارة عدد كبير من الشّركات، وترسيخ سلطتها، وجعلها تحلّ محلّ مبادرة المواطنين الفرديّة. في الواقع، لا يُمثّل تطوّر الاشتراكيّة، أي الدّولانيّة،(74) إلّا التّفتّح الأقصى لماضٍ طويل، والتّبعة الأخيرة لمثالٍ احْتُذِيَ طوال قرون. إلى ذلك، لم يفعل الاشتراكيّون شيئًا سوى أنّهم أكملوا تراثًا تاريخيًّا، مُطالبين يوميًّا بزيادة تدخّل الدّولة. يُمكننا، أغلب الظنّ، أن نلومهم على المضيّ قدمًا في هذا الطّريق. في هذا السّياق، دعا عمدة مدينة Creusot والنّائب عنها حديثًا إلى بسط سلطة الدّولة ليس على المصانع فحسب، بل كذلك على الأرض. بعبارة أوضح، كلّ ما يُمكن المزارعون أن يحصدوه ينتمي إلى الجماعة أو المجتمع.

وبعد، لا يُمكننا القول إنّ الاشتراكيّة تُهدّدنا، ذلك بأنّها ترسّخت، في الحقيقة، منذ أمد بعيد. طالما ردّدتُ أنّه، على الرّغم من المظاهر التي تُثبت العكس، لا يوجد في فرنسا إلّا حزب سيّاسيّ واحد، وأعني الدّولانيّة.

إلى ذلك، لن يكون هذا الادّعاءُ موضعَ شكّ إلّا إذا كان ممكنًا ذكرُ تجمّع سيّاسيّ فرنسيّ واحد لم يُطالب بتدخّل الدّولة في أبسط أفعال الحياة السّياسيّة أو الخاصّة. في هذا السّياق، لم يفعل الاشتراكيّون شيئًا سوى أنّهم بالغوا في تعزيز هذا الميل.

الواقع أنّ التّأثير الامتصاصيّ للدّولة هو تبعة من تبعات الصّعوبات التي اختبرتها السّلطة المركزيّة في فرنسا إبّان محاولتها توحيد المقاطعات التي كانت البلاد تتألّف منها قديمًا، وإبّان محاولتها القضاء على الحياة السّياسيّة المحليّة. بتدمير الحياة المحليّة هذه الحياة، قُضِيَ على مبادرة المواطنين الفرديّة بحيث لا تقوم لها قائمة.

وبعد، أمكن ألمانيا أن تتخلّص من هذه المركزيّة، ذلك بأنّ وحدتها هي وحدة حديثة تمامًا، إذ إنّها تعود إلى العام 1871. إذا كانت الحياة المحليّة قد اختفت في فرنسا، فإنّها، على العكس، ظلّت فاعلة جدًّا في ألمانيا، ذلك بأنّ كلّ مملكة من الممالك القديمة، وكلّ إمارة من الإمارات، إلخ، التي تتألّف منها الإمبراطوريّة اليوم، تمتّعت، على امتداد قرون، بوجود مستقلّ. في فرنسا، لم يبقَ سوى مركز فكريّ وحيد: باريس، بخلاف ألمانيا التي تُعوِّل على مراكز فكريّة كثيرة.

الحقّ أنّ التّعقيد المذهِل والـمُكلِف، الّذي تنطوي عليه أبسط العمليّات الإداريّة في فرنسا، تعقيدٌ معروف جدًّا بحيث يغدو من المفيد العودة إليه مطوّلًا. لقد جرت الإشارة إليه أكثر من مرّة في البرلمان، وتحديدًا في تقرير قديم أعدّه كميل بيليتان Camille Pelletan حول ميزانيّة Marine. نقرأ في هذا التّقرير ما يلي:

«ينبغي، من أجل الحصول، في مراكز تصنيع السّفن الحربيّة، على أبسط الموادّ، تقديم مستندات حسابيّة تتطلّب خمسة عشر يوم عمل، ناهيك بعشرات العمّال الّذين ينْكَبّون حصريًّا على القيام بعمليّات حساب، ونقل، ونسخ عدد لا يُحصى من السّجلّات، وإعادة نسخها على أوراق منفصلة لا حدّ لها، وتقسيمها، وجمعها».

إلى ذلك، أراد الـمُقرِّر نفسه معرفة وفق أيّ طريقة، في الحالات المماثلة، تعمل الصّناعة الخاصّة. لهذه الغاية، قام بزيارة مُنْشَأَةٍ صناعيّة مُخصَّصة، على غرار مراكز تصنيع السّفن الحربيّة التّابعة للدّولة، لبناء السّفن. توجد في مصنع هذه المنشأة سفينتان حربيّتان برازيليّتان، وطرّادة كبيرة، والكثير من السّفن الشّراعيّة. على الرّغم من التّفاصيل الصّغيرة التي تتطلّبها هذه الصّناعة، كان هناك سجلّ واحد يُشير إلى المداخل، والمخارج، والموجودات، وهو سجل يكفي لضبط حسابات كلّ مخزن. بفضل هذه التّبسيطات، كانت أسعار تكلفة الصّناعة الخاصّة أقلّ بنسبة 25 إلى 50 بالمئة من أسعار تكلفة بناء السّفن الحربيّة التّابعة للدّولة.

تُلحظ اختلافات الأسعار هذه في الميادين كافّة. كتب المهندس كارنو R. Carnot، حديثًا، أنّ عائِد قوارب الفحم التي طلبتها الدّولة أقلّ بنسبة 40 إلى 50 بالمئة من عائد السّفن التي يُديرها المستوردون الّذين يعملون لحسابهم.

الواقع أنّ الاستنتاجات نفسها لوحظت في كلّ إدارات الدّولة. في هذا السّياق، زوّدتنا صحيفة Le Matin بمثال جديد يتعلّق بقصّة تصفية المخازن الأمريكيّة في [بلدية] أوبرفِلييه Aubervilliers [الفرنسية]. لم تتوصّل الدّولة إلى إنهاء هذه التّصفية، فعهدت بها إلى أحد الصّناعيّين. استبدل هذا الأخير ثمانية عمّال من اختياره بعشرات العمّال الرّسميّين. لقد استطاع أن يُنهي التّصفي في بضعة أيّام.

إلى ذلك، يُمكن القول إنّ أسباب التّعقيد المُكلِف في إدارة الدّولة مستقلّة تمامًا عن ذكاء المستخدَمين (الموظّفين). ينجم هذا التّعقيد، بخاصّة، من خوفهم من تحمّل المسؤوليّة، ومن تبعة شبكة عمليّات المراجعة والتّحقّق المنتظمة والدّقيقة لأبسط الأعمال التي يقوم بها العامِل. من شأن العمليّات هذه أن تقطع الطّريق على إغفال أدنى إجراء شكليّ.

الخوف من المسؤوليّة، وتراكم لوائح الأنظمة في الإدارات يجعل من إنجاز المعاملات أمرًا بالغ التّعقيد، فضلًا عن كونه يحتاج إلى وقت طويل، في حين أنّ العمليّات هذه لا تحتاج سوى إلى بضع دقائق في القطاع الصّناعيّ الخاصّ. يُمكننا أن نحكم على صحّة ما نقول من خلال القصّة التي ذكرها قديمًا السيّد ديلكاسيه M. Delcassé في البرلمان حول التقارير المطوَّلة التي جرى تبادلها بين اثني عشر رئيس مكتب من أجل معرفة ما إذا كانت تكلفة 77 كيلو من الحديد ظهرت في دفتر الحسابات بقيمة 3 فرنكات و46، أو 3 فرنكات و47. كان التّدخُّل المباشر من قِبَل الوزير ضروريًّا من أجل البتّ في هذه المسألة الخطيرة.

لا تكمن نتيجة التّنظيم، الذي أفضى إلى التّعقيدات السّالفة الذِّكر، في هدر كبيرٍ للأموال فحسب، بل تكمن كذلك في سحق فعليّ للعامّة تحت وطأة شكليّات مُرهِقة ما زالت تُغلِّف حتّى اليوم أبسطَ عملٍ إداريّ. في هذا السّياق، نشرت صحيفة Le Temps الملاحظات الآتية:

«الحق أنّ عزل بعض الموظّفين سيكون أمرًا مقبولًا، إذا كان يُؤدّي إلى إزالة الشّكليّات، الكثير من الشّكليّات الإداريّة التي عانينا منها منذ زمن بعيد، وأرهقتنا للغاية. الكثير من الإجراءات في كثير من المكاتِب، الكثير من العاملات الورقيّة يجب توقيعها، والتصديق عليها، والكثير من الأذونات التي ينبغي الاستحصال عليها، والكثير من التّأخيرات اللا متناهية التي تعود إلى تطبيق أعمال الرّقابة العبقريّة التي، علاوة على ذلك، لا تُسفر عن شيء، والكثير من التّصريحات التّدريجيّة على امتداد السّنوات بصدد كلّ شيء، ناهيك باستحالة التحرّك من دون الاستحصال على إذن موجّه إلى من يهمّه الأمر: بالنّسبة إلى غالبيّة الفرنسيّين، ذلكم بالتّحديد ما ينبغي إزالته، أو، على الأقلّ، الحدّ منه».

لقد توقّعنا سابقًا كم ستكون الإصلاحات المقترحة صعبةً وعسيرة.

لا تتوصّل الشّعوب المحافِظة للغاية، والتي لم تعرف كيف تتطوّر، إلى التحرّر من نير العادات التي راحت تُثقل كاهلها أكثر فأكثر بفعل الثّورات العنيفة.

يكفي ما تقدّم لكي يوضح أنّ تقليص عدد الموظّفين الإداريّين سيكون له تأثير ضئيل، إذا لم يُرافقه تحوّل كامل في الطّرائق المستخدمة. هذا التحوّل سيكون صعبًا للغاية، لأنّ القدرة على التّنظيم تُعَدّ واحدة من الملكات النّادرة التي يتميّز بها العقل البشريّ.

والحال أنّه ينبغي ألّا تُعهَد إلى لجنة خبراء مهمّة القيام بإصلاحات. سواء تعلّق الأمر بالشّؤون الماليّة، أو الصّناعة، أو الحرب، فإنّ الجماعات تبدو غير مؤهّلة، أُكرِّر، من أجل التّنظيم واتّخاذ القرارات.

لكن هذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن تكون الجماعة عديمة الفائدة، لكن بشرط رسميّ أن يقتصر دورها على تقديم الاستشارة وليس على القيادة والتّوجيه. عندما أعدّ بونابرت مشروع القانون الرّامي إلى دمج القوانين العرفيّة التي كانت تحكم مختلف أقاليم فرنسا في قوانين موحَّدة، ترك أعضاء مجلس شورى الدّولة يتناقشون بِحُرّيّة أمامه، لكنّه قرّر وحده النصّ الّذي سيُعتَمَد.

الواقع أنّ الاعتبارات السّابقة كانت ضروريّة من أجل إظهار الصّعوبات التي أحاطت بالإصلاحات المتوخّاة. فكلّما مضينا قدمًا في دراسة التّاريخ، لاحظنا أنّ مؤسّسات الشّعوب تتعلّق، على وجه الخصوص، بالتّأثيرات السّيكولوجيّة التي خلقها ماضٍ طويل. فالرّوح اللاتينيّة مستقرّة للغاية اليوم، لكنّها تنطوي على تأثيرات تأسّليّة(75) ثقيلة للغاية.

مع ذلك، يستلزم تطوّر الصّناعة والاعتماد المتبادل بين الشّعوب ردّة فعل عنيفة ضدّ الدّولانيّة التي تُسيطر على فرنسا. فمن غير الممكن حبس حياة الشّعوب ومؤسّساتها في شبكة مُعقَّدة ومُسبِّبة للشّلل، شبكة من الشّكليّات المزعِجة، والمدمِّرة لكلّ المبادرات الفرديّة.

إلى ذلك، كانت الإصلاحات الإداريّة مستحيلة تمامًا من دون الحوادث التي أجبرت النّواب على إعطاء رئيس المجلس الحقّ الدّكتاتوريّ في إجراء التّغييرات التي يراها مناسبة من دون الاستحصال على إذن البرلمان.

بسبب أصول برلماننا، اصطدم كلّ اقتصاد بجدار من الاستحالة، بحيث لم تنجح أيّ إرادة حتّى الآن في تخطّيه.

فحالما يسعى وزير إلى تحقيق وفورات يُلاحظ سريعًا أنّه في فرنسا، كما قال أمامي أحد الوزراء السّابقين، ذات يوم، ما من شخصيّة تمتلك القوّة الكافية من أجل فَصل عامل لا فائدة منه، فالوزير الذي يُقدِم على هذا الفعل سيُعرِّض نفسه لسيلٍ من المشكلات، والاستجوابات من قِبَل نوّاب المقاطعة التي ينتمي إليها هذا العامل المفصول. من المحال أيضًا إقفال مدرسة لا يوجد فيها تلاميذ، ومحكمة لا دَعاوَى فيها، ومستودع ذخائر لا يعمل، إلخ.

الحقيقة أنّ الوزراء ظلّوا عاجزين ليس عن تحقيق أبسط الوفورات فحسب، بل جرى دفعهم كذلك من قِبَل النّواب، الذين يُطاردهم ناخبوهم ويضايقونهم، إلى خلق وظائف جديدة لا طائل منها، وإلى مضاعفة الهدر. من بين حالات الهدر الكثيرة، يُمكننا أن نذكر

توزيع مئات الملايين من «الأموال المشتركة»، على بعض البلديّات التي تحظى بامتيازات، من أجل احتفالات محليّة بسيطة، في حين جرى انتقاد كلّ النّفقات غير الضّروريّة في تقارير ديوان المحاسبة.

من أجل القيام بإصلاحات شبيهة بالإصلاحات التي قام بها موسوليني في إيطاليا، وجب منح رئيس المجلس صلاحيّة تحقيق الوفورات عن طريق إصدار مراسيم من دون استشارة البرلمان.

على الرّغم من السّلطة الممنوحة لرئيس الحكومة في فرض الإصلاحات التي يراها ضروريّة، فإنّه ينبغي لنا ألّا نعتقد أنّ فرضها سيكون سهلًا من خلال إصدار جملة مراسيم. فالمرسوم قوّة، لكنّ ذهنيّة أولئك الّذين نُريد أن نفرض عليهم هذا المرسوم هم أنفسهم قوّة قادرة على شلّ حركة القوّة الأولى.

(71) زِيَادَة مُفْرِطَة فِي النَّقْد الْمُتَدَاوَل مِن غَيْر غِطَاء ذَهَبِيّ أَوْ فِضِّيّ.

(72) أي الدّول الموضوعة تحت الحماية الدّوليّة.

(73) تحدث مرّة كلّ قرن.

(74) نظريّة سيّاسيّة تدعو إلى مدّ سلطة الدّولة وصلاحيّتها على الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة قاطبة، كما تعني اشتراكيّة الدّولة.

(75) تأسُّلِيّ: مُتَعَلِّق بِالْعَوْدَةِ إلى صِفاتِ الأَسْلاف.

# الكتاب الثّامن: دور العُملة في التطوّر الاقتصاديّ للعالَم

## الفصل الأوّل: الأشكال المختلفة للعملة: مظاهر وحقائق

تتعلّق حياة الكثير من الشّعوب الأوروبيّة اليوم بعملتها. فمسائل الصّرف، والاستقرار النّقديّ، إلخ، التي تجاهلتها العامّة بعمق قبل بضع سنوات فقط، تُمارِس اليوم تأثيرًا كبيرًا. فهذه المسائل، التي غالبًا ما يُساء فهمها، تُشكِّل أصل الأخطاء التي تسبّبت في خسارة العديد من الدّول مئات الملايين.

لكي نُسلِّط الضّوء قليلًا على موضوع غاية في التّعقيد أيضًا، ينبغي لنا أن نعود إلى المبادئ البسيطة التي تتأتّى منها المفاهيم الثّانويّة، وذلكم ما سنسعى الآن إلى القيام به.

**أصول العملة وطبيعتها**: يُمكننا أن نعُدَّ عملةً أيّ شيء يُمكن أن يُستخدَم وسيلة للتّبادل.

في هذا السّياق، استُخدِمَت لدى الشّعوب البدائيّة موادّ متنوّعة للغاية بوصفها عملة. إنّها المرحلة التي سُمِّيَت بمرحلة المقايضة، وإليها ترجع كلّ الأمم المتحضِّرة عندما لا تعود عملتها القديمة مقبولة. فحينما سقطت قيمة المارك في فرنسا، واقتربت من الصِّفر، أصبحت مجموعة كبيرة من الأشياء: جذوع الأشجار، وهكتوليتر(76) القمح، وقنطار الفحم، إلخ، وحدات نقديّة تُستخَدم في المعاملات. فالمحاربون في زمن هوميروس لم يتصرّفوا على نحو مختلف عندما كانوا يُبادلون الدّرع بلحم البقر.

ظلّ لحم البقر زمنًا طويلًا شكلًا من أشكال العملة المألوفة، كما تُشير إلى ذلك العبارة الآتية: «ضع لحمًا على لسان أحدهم»، أي اشترِ صمته.

لم يكن استخدام اللّحم، أو الوحدات المماثلة، بالأمر اليسير، لذا بُحث طبيعيًّا عن سلعة أخرى أسهل في الاستخدام، وتمتلك في الوقت نفسه قيمة ما ووزنًا قليلًا. لذا قُسِّمَت معادنُ مختلفة إلى أجزاء بسيطة، وأصبحت النّقود والذّهب عملة عالميّة.

في الأوان الأخير نسبيًّا، جرى البحث عن وسائل تُجنّب النّاس النّقل غير الملائم للنّقود من خلال إيداعها في خزائن المؤسسات الخاصة المسؤولة عن حفظها، والتي أعطت في المقابل إيصالات تشير إلى أن الذهب والمال المودعَيْن سيُرجَعَان على الفور إلى كلّ شخص يُظهر إيصال الإيداع. قبل الحرب، لم تملك الأوراق النّقديّة أيّ وظيفة أخرى، لأنّها مثّلت ببساطة إيصالات الودائع القابلة للسّداد.

على الرّغم من هذه المظاهر، فإنّ الورقة النّقديّة الجديدة ذات سعرِ الصّرف الإجباريّ، والّتي لا يُمكن استبدالها بقيمة معدنيّة، لا تتشابه البتّة مع الأوراق النّقديّة القابلة للسّداد تحت الطّلب. إنّها تُشكّل ببساطة شهادة قرض (Titre d’emprunt) من دون تحديد تاريخ سداد، وتخضع على غرار سائر السّندات الشّبيهة بها لتقلّبات الصَّرف.

يُمكن أن تُقارَن مُطالبة الدّيون هذه بسند ريع مُرتَّب (Titre de rente)، حيث الضّمان الوحيد هي الثّقة المستوحاة من الدّولة المصدِّرة. يتغيّر سعرها مع التغيّرات التي تطرأ على هذه الثّقة. يُمثّل سعر البورصة، كما شرحنا سابقًا، الأحكام غير القابلة للطّعن لمحكمة عالميّة تُقرِّر درجة الثّقة المستوحاة من مختلف الدّول.

الحقّ أنّ سهولة إصدار الأوراق النّقديّة من دون ضمان معدنيّ يسمح للدّول بخلق مصدر اصطناعيّ لثراء موقّت. لكن، بقدر ما تزداد الإصدارات، وهي ظاهرة مُصنَّفة على أنّها تضخُّم، تتناقص الثّقة، وقيمة الأوراق النّقديّة تهبط سريعًا إلى الصّفر، وتلكم هي الحال التي اختبرتها ألمانيا.

وبعد، من شأن التّضخّم المستمرّ أن يُفضي إلى الخراب، والتّقوّض، قل كذلك عن الإفراط في اللجوء إلى القروض.

لكن إذا أثبتت التّجربة أنّ التّضخّم طويل الأمد ينتهي بالخراب دائمًا، فهي تُظهر أيضًا أنّ هذا التّضخّم يُمكن أن يُقدِّم، موقّتًا، خدمات جليلة لأيّ بلد.

في الواقع، بسبب الاستخدام طويل الأمد للأوراق النّقديّة التي تخضع لسعر صرفٍ إجباريّ، استطاعت إنجلترا أن تحصل على الموارد الضّروريّة من أجل محاربة نابليون. كانت الأوراق النّقديّة الإنجليزيّة أوفر حظًّا من أوراقنا النّقديّة الحديثة، ذلك بأنّ الأوراق النّقديّة الإنجليزيّة لم تخسر أبدًا أكثر من 50 بالمئة من قيمتها، وبعد الحرب أمكن لها أن تؤمِّن مخاطر استخدامها.

تلكم كانت هي الحال تمامًا مع المارك الخاضع لسعر صرف إجباريّ، إذ استطاع الألمان بفضله أن يُعيدوا بناء أسطولهم، وتشييد مصانع ضخمة، والتّحضير لنهضتهم الاقتصاديّة. لقد سمحت لهم أن يؤسّسوا في الخارج احتياطًا ماليًّا مُقَيَّمًا، سيُشكِّل لاحقًا ضمان العملة الجديدة، فحالما سقط المارك القديم إلى حدود الصّفر، سُحِبَ من التّداول.

بدا هذا الاحتياطُ غير كافٍ لكي يكون بمثابة ضمان لإصدار هامّ للعملة الجديدة، لذا وجب أن يُضاف إليه عدد من الأموال غير المنقولة. وعليه، جرت مقارنة الأوراق النّقديّة الصّادرة آنذاك مع السّندات المضمون برهن (obligation hypothécaire) لتسليفنا العقاريّ (Crédit Foncier)، من أجل الحصول على الضّمان التّامّ. بفضل هذا الضّمان، أُلغِيَت العملة الجديدة مُتَحرِّرة من تغيّرات الصّرف، وظلّت كذلك ثابتة شأنها في ذلك شأن الليرة الإنجليزيّة أو الدّولار الأمريكيّ.

من بين خصائص أخرى كثيرة، يعرض تطوّرُ المارك الألمانيّ ذو الأهميّة البالغة، لهذه الظّاهرة الغريبة، ومفادها أنّ ألمانيا بلغت موقّتًا درجة عالية من الازدهار على الرّغم من رداءة عملتها المكوَّنة من المارك المُستهلَك، في حين أنّها أَلِفَت نفسها محرجةً على الرّغم من جَودة عملتها، وذلكم ما أظهره وجود 1.700.000 عاطل عن العمل على أراضيها.

تنجم هذه الظّاهرة عن ندرة العملة بحيث لا يُمكن زيادتها من دون الوقوع في فخّ التّضخّم.

في فرنسا، مورسَ التّضخّم على نطاق واسع، وزوّدنا في خلال سنوات كثيرة بوهم الثّراء، لكنّ التّضخّم تزايد، والقروض تضاعفت، تمامًا كما هي الحال اليوم، فأكثر من نصف الميزانيّة المقدَّرة بأربعين مليارًا مُخصَّصة لدفع فوائد المبالغ المقترَضة.

إذا أثبتت التّجربة أنّه نادرًا ما يوجد شعبٌ يخدم شعبًا آخر، فإنّ فرنسا كرّرت أخطاء ألمانيا نفسها، ونعني الأخطاء المتعلّقة بالقروض والتّضخّم.

في فرنسا، كما في ألمانيا، احتجنا إلى بعض الوقت لكي نفهم أنّ الورقة النّقديّة لا يُمكن أن تُشكِّل قيمة ثابتة ومُستقرّة إلّا اعتبارًا من اليوم الذي تُصبِح فيه قابلة للتّبادل عند الرّغبة في مقابل كمّيّة من الذّهب أو النّقود مساوية للكمّيّة المطبوعة على ورقة النّقد. يتعلّق الأمر بمبدإٍ أساسيّ بحيث تظهر أهميّته في مشكلَتَي استقرار العملة وإعادة تقييمها اللّتين سنتناولهما الآن بالدّرس.

# الفصل الثّاني: استقرار العملة وإعادة تقييمها

أجبرت الحرب الدّول الأوروبيّة الكبرى على دفع نفقات تفوق كثيرًا مصادرها. لذلك أُرغِمت هذه الدّول على استخدام العملة الاصطناعيّة (الوهميّة)، أي الأوراق النّقديّة من دون ضمان. إذا كان هذا المصدر الظّاهريّ للثّراء ذا استخدام سهل، فإنّ الدّول الكبرى تعسّفت في استخدامه وصولًا إلى اللحظة التي خسرت فيها العملة المصطنعة المخلوقة كلّ قيمتها، تمامًا كما حصل في ألمانيا، أو على الأقلّ جزءًا كبيرًا من قيمتها، كما حصل في فرنسا، وبلجيكا، إلخ.

والحال أنّ الأمر انتهى بالحكومات إلى ملاحظة أنّ الانخفاض المستمرّ للعملة يجعل العلاقات التّجاريّة صعبة للغاية، لذا كان لا بدّ لها من إيجاد علاج لهذه الوضعيّة.

لقد جرت، تباعًا، تجربة عدّة طرق. لنلخّصها بإيجاز.

بدت الطّريقة الأبسط في تقليل القيمة الممنوحة إلى الأوراق النقديّة منخفضة القيمة. في هذا السّياق، صرّح البلجيكيّون، على سبيل المثال، بأنّ عملة خمس الفرنكات القديمة لن تُعتَمَد إلّا بوصفها تُساوي فرنكًا واحدًا. مهما يكن الاسم المعطى لهذه العمليّة، فإنّها تُشكّل إفلاسًا بسيطًا. في وضعيّة بلجيكا، كان الإفلاس بنسبة ثمانين بالمئة.

إلى جانب هذا الاستقرار القانونيّ، ومن ثمّ الإلزاميّ، اكتفت بعض الدّول، من مثل فرنسا، إلى اللحظة التي أخطّ فيها هذه السّطور، بالاستقرار بحكم الأمر الواقع، أي الاستقرار الذي رسّخه القانون العام للعرض والطّلب. تُماثل طريقةُ العمل هذه تصوّرَ الاقتصاديّين الّذين يعتقدون أنّ:

«الاستقرار الفعليّ هو ذاك الذي يحصل من تلقائه، عندما تكون قيمة العملة، خلال فترة طويلة، ثابتة في سوق التّبادل والتّداول».

يؤكّد اقتصاديّون آخرون أنّ إعادة تقييم الفرنك المتحصَّل عليها نتيجة الازدهار الاقتصاديّ المتنامي لبلد ما، ستتفوّق على الإفلاس الّذي كوّنه الاستقرار القانونيّ. لقد لاحظوا أيضًا أنّ إعادة التّقييم التي تخلفُ نقض القيمة (dévalorisation) ليست حدثًا فريدًا في التّاريخ، إذ إنّ إنجلترا شنّت الحرب على نابليون وفي يدها أوراق نقديّة ذات سعر صرف إجباريّ، لكنّ الأمر انتهى بها إلى خسارة ثمانين بالمئة من قيمتها، لكنّها سرعان ما استعادت تدريجيًّا هذه القيمة، بعد ازدهار اقتصاديّ امتدّ إلى خمسة عشر عامًا.

للأسف، لا يبدو هذا المثال قابلًا للانطباق على وضعيّة الدّول الأخرى، وفرنسا تحديدًا.

فالدّيون، والرّواتب، إلخ، ترسّخت في الفترات التي كانت القيم المتعاقبة للفرنك مختلفة للغاية. فمن البديهيّ، على سبيل المثال، أن القروض المأخوذة بتعَادُل الذّهب، أي في الحقبة التي لم تهبط فيها قيمة الفرنك، وتلك المأخوذة في اللحظة التي فَقَدَ فيها الفرنك أربع أخماس قيمته، على الرّغم من تشابه الأرقام المدرَجة على الأوراق النّقديّة، تُمثّل قيمًا مختلفة للغاية. نرى هذا الأمر مباشرة عندما نُحوِّل وفاقًا لسعر الصَّرف القِيَم المعطاة بالفرنك إلى دولار أو ليرة.

إنّ تثبيت الدّيون، أي تحويل دينٍ واجب السّداد فورًا إلى دينٍ ذي استحقاقٍ بعيد، وسيلة من الوسائل المطروحة ليس من أجل تحقيق استقرار العملة، وإنّما من أجل تأخير ميعاد الدّفع، ومن ثمّ، تخفيف الأعباء الماليّة عن البلاد.

استعملت الحكومة البلجيكيّة هذه الطّريقة عندما استخدمت السّلطات المطلقة التي حصلت عليها من البرلمان. أصدر إذ ذاك الملك مرسوم 31 تمّوز 1926، وثبّت بموجبه الدّين الدّاخليّ السّائر (dette flottante) برمّته تقريبًا، الدّين المتمثّل بسندات تبلغ قيمتها أربعة مليارات، وحيث موعد استحقاق السّند هو الأوّل من شهر كانون الثّاني القادم. تلقّى الدّائنون مقابل سنداتهم القديمة أسهمًا عينيّة ممتازة من الشّركة الوطنيّة لسكك الحديد. وعليه، كان من المقرَّر تعويض حاملي السّندات، الذين رفضوا هذه المبادلة، عن طريق السّحب بالقرعة وذلك في حدود توفّر المال في الخزينة، أي بطريقة غير مضمونة.

الواقع أنّ الأخلاقيّة الماليّة لهذه العمليّة هي بطبيعة الحال محلّ شكّ. بيد أنّ المسألة تعلّقت بمعرفة ما إذا كان يجري تفضيلها على التّضخُّم الّذي كان لا بدّ من اللّجوء إليه من أجل تسديد السّندات في تاريخ استحقاقها.

إنّ محاولة العودة إلى قاعدة الذّهب أو اللجوء إلى الإفلاس الجزئيّ، كما حصل في بلجيكا، هي عمليّة مفيدة ظاهريًّا من وجهة نظر رياضيّة، لكنّها ليست كذلك من وجهة نظر سيكولوجيّة.

الواقع أنّها ليست كذلك من وجهة نظر سيكولوجيّة للأسباب الآتية:

عندما لا تُقبَل الورقة النّقديّة لمئة الفرنك في الخارج إلّا بقيمة عشرين فرنكًا، فإنّ الفرنك يكون قد استقرّ موقّتًا عند حدود خُمس قيمته. وعليه، يُقال الأمر نفسه هنا عن الّذي قام به البلجيكيّون، أي إذا قدّمنا ورقة نقديّة بقيمة عشرين فرنكًا قابلة للتّبديل إلى ذهب، فإنّنا نُصرّفها أو نبادلها بورقة نقديّة عاديّة بقيمة مئة فرنك.

في الحقيقة، هذه العمليّات المتعدِّدة، ذات المظهر نفسه، هي عمليّات مختلفة كثيرًا من النّاحية السّيكولوجيّة. في الواقع، احتفظ الفرنك في دول كثيرة، وفي فرنسا تحديدًا، بمكانة صوفيّة مستقلّة عن قيمة المبادلة. فالعامل الذي يُعرَض عليه راتب قدره عشرة فرنكات ذهب عوضًا عن خمسين فرنكًا ورقيًّا، الأمر الذي سيكون مع ذلك هو عينه، لا يقبل بهذا التّبديل، وبخاصّة أنّ مورِّديه المعتادين لن يقرِّروا إلا ببطء أن يُعطوه مقابل عشرة فرنكات ذهبية كمّيّة من البضائع مماثلة لتلك التي سُلِّمَت مقابل خمسين فرنكًا ورقيًا.

ينبغي لنا أن نُلاحظ أيضًا أنّ النّصحَ بتثبيت الفرنك بشكل نهائيّ عند حدود خُمس قيمته القديمة، عمليّةٌ تتضمّن حتمًا إفلاسًا بنسبة ثمانين بالمئة. لاحظت الـWestminster Gazette ما يلي: «بدو أنّنا نسينا أنّ هذه العمليّة ستؤدّي حتمًا إلى إزالة جزء كبير من الثّروات والأموال التي يمتلكها الشّعب».

بطبيعة الحال، قَلَّص الاستقرارُ بحكم الواقع، بمعزل عن كلّ فعل حكوميّ، الفرنك إلى خمس قيمته، لكنَّ أصحاب المصلحة يحتفظون بأمل أن يستعيد الفرنك قيمته القديمة.

الاستقرار بحكم الواقع، والاستقرار الإلزاميّ هما في العمق الأمر نفسه، لكنّ الاستقرار القسريّ يتعلّق، كما هي الحال في بلجيكا، بتقويض حتميّ لأربعة أخماس الثّروة، فهو لا يترك مكانًا لأيّ أمل. على العكس، يسمح الاستقرار الطّبيعيّ بالأمل والتّطلّع إلى عودة العملة إلى قيمتها القديمة. وعليه، في السّياسة كما في الدّين يعيش النّاس على الآمال.

تجعل هذه التّأثيرات السّيكولوجيّة، التي لا تُقيم اعتبارًا للخبراء، الحلولَ الجذريّة، التي تطرحها من خلال إعطائها حججًا رياضيّة كسندٍ لها، تجعلها خطيرة للغاية. علاوة على ذلك، لا تكفي هذه الحجج البتّة من أجل تبرير استقرار قسريّ ذكرنا للتوّ عيوبه السّيكولوجيّة.

الواقع أنّ الأسباب الرّياضيّة للعمليّة التي جرت في بلجيكا لن تكون أسبابًا صحيحة أو معقولة إلّا إذا كانت الأوراق النّقديّة الصّادرة حديثًا لديها ما يُماثلها منَ الذّهب في خزائن المصرف الّذي أصدرها، لكنّ الأمر كان بخلاف ذلك تمامًا.

في الواقع، وجب عمليًّا الاكتفاء بضمان ذهب أقلّ بكثير من رقم إصدار الأوراق النّقديّة.

الحقيقة أنّ الأوراق النّقديّة الجديدة لم تمتلك سوى ضمان ذهبٍ جزئيّ، لذا أُلْغِيَت، بموجِب هذه الحقيقة وحدها، خاضعة لاعتبارات البورصة، أي لكلّ تقلّبات أسعار الصّرف. سوف يختبر البلجيكيّون، على الأرجح، هذا الأمر سريعًا.

بالنّظر إلى وضعيّة فرنسا، في اللحظة التي أخطّ فيها هذا الكتاب، يُمكن القول إنّ الحلّ الأمثل الحاليّ لمشكلات الاستقرار هو ذاك الّذي صاغه وزير المال وأطلقه من على أحد المنابر:

«جب أن يسبق الاستقرار بحكم الواقع الاستقرار القانونيّ. فالاستقرار بحكم الواقع لا يتحقّق بموجب مرسوم، وإنّما يُحصَل عليه عن طريق الحكمة. فهو لا يُمكن أن يُوجد إلّا عندما تختفي الأسباب الرّئيسة لاضطرابات العملة، وللأسف لم نصل إلى هذه المرحلة بعد».

نحن نعلم الانتقادات العنيفة التي تسبّب فيها رفض وزير الماليّة وضع استقرار قانونيّ للعملة لدى النّواب الاشتراكيّين. فهؤلاء الأخيرون كانوا مقتنعين بأنّ المجتمعات تُعيد تشكيل نفسها عن طريق المراسيم. بعبارة أخرى، اقتنع هؤلاء المشرّعون السّذّج بأنّه يكفي إصدار مرسوم من أجل إجبار كلّ شعوب العالَم على قبول الأوراق النّقديّة الفرنسيّة بالسّعر الّذي يُحدّده القانون.

في ظلّ الظّروف الحاليّة، ينبغي التّعايش إذًا مع عملة منخفضة القيمة، لكن ينبغي لنا ألّا ننسى أنّ أيّ عملة تُصبح جيِّدة مذ تزدهر الصّناعة والتّجارة. لقد جهدنا في تحسينهما وعدلنا عن ذلك، على الرّغم من نصائح الخبراء المتعلّقة بمخاطر القروض الأجنبيّة. الحقّ أنّ هذه القروض تزيد ميزانيّتنا عن طريق دفع الفوائد، وعلاوة على ذلك، ينتهي الأمر بها بأن تضع فرنسا تحت وصاية الأجنبيّ. والحال أنّ وضعيّتها هي أسوأ من ذلك بكثير.

غالبًا ما صُوِّرَ الأمريكيّين بوصفهم مضاربين ضدّ العملات الأوروبيّة منخفضة القيمة لكي يُمعنوا في تخفيض قيمتها، لكنّهم، على العكس، مكترثون جدًّا من أجل تحقيق استقرار هذه العملات، وعملة فرنسا تحديدًا. ففي مؤتمر عُقِد بخصوص الرّابطة الاقتصاديّة الدّوليّة، لاحظ السيّد أُوين يونغ M.Owen D.Young، أحد المشاركين في خطّة دوز(77) :Plan Dawes

«الحقّ أنّه أهم بالنّسبة إلى الولايات المتّحدة أن تستعيد استقرار عملات العالَم، وأن تُخلِّصها من تقلّبات الصّرف، من الحصول على دفع مستحقاتنا من الأمم الغريبة».

«واجبنا الآن أن نسهر على أن تستند وسائل التّبادل بين كلّ الدّول إلى أساس يجعل الائتمان ممكنًا، والقروض آمنة. لذلك يُشكّل الذّهب الّذي بقيَ في حوزة الولايات المتّحدة صندوق ضمان لقيَم العالَم».

إنّ مشكلة استقرار العملات، التي خصّصنا هذا الفصل لدراستها، هي مثال جديد عن النّزاعات بين القوى الاقتصاديّة، والتّأثيرات السّيكولوجيّة التي تميّز العصر الحاليّ.

إنّ حلّ المشكلات النّاجمة عن هذه الصّراعات يبقى صعبًا. إنّها تُمثِّل، في الواقع، معادلات حيث لا يجمع بين مصطلحاتها أيّ معيار مناسب. إنّها تنطوي على عناصرَ اقتصاديّة تُرخي بثقلها بسهولة، وعلى تأثيرات سيكولوجيّة لا تتوفّر لنا أي طريقة بتقدير حجمها بشكل دقيق. إلى ذلك، تنزع القوى الاقتصاديّة التي يُمكن وزنها إلى السّيطرة على العالَم، لكنّ القوى السّيكولوجيّة التي لا يُمكن وزنها، هي في بعض الأحيان، القوى الأقدر أحيانًا.

# الفصل الثّالث: عوامل اقتصاديّة وسيكولوجيّة متعلّقة بمشكلة استقرار العملة

لقد درسنا للتوّ مشكلة استقرار العملة بإيجاز. لذا لن يكون من غير ذي طائل التّذكير ببعض النّقاشات التي كانت هذه المشكلة موضوعها. سوف يُوضح هذا العَرض إلى أيّ حدّ من الصّعوبة التّوصّل إلى إجابات يقينيّة في ما يتعلّق بالمسائل السّياسيّة والسّيكولوجيّة.

نحن نعلم أنّنا في محاولة للعثور على وسائلَ تُمكّننا من إصلاح نظامنا الماليّ، وتحديدًا، تحسين قيمة الفرنك، اضطلعت لجنة خبراء بمهمّة العثور على طرائق واتّباعها. من بعد اجتماعات مضنية توصّلت إلى صياغة النّصائح الآتية:

1 ـ الاعتراف مباشرة بالدّيون المستحقّة للولايات المتّحدة.

2 ـ الحصول على قروض كبيرة في الخارج بغية الحصول على مجموعة من القوى العاملة تسمح بالحؤول دون تقلّبات الفرنك.

3 ـ تأمين استقرار قيمة الفرنك عن طريق إصدار المراسيم.

على الرّغم من السّلطة الكبيرة الممنوحة إلى الخبراء، فإنّه لم يجرِ اتّباع أيّ نصيحة من نصائحهم. لقد جرى تحسين قيمة الفرنك، كما أشارت بتهكّم إلى ذلك صحيفة إنجليزيّة كبيرة، من خلال معالجتها بطريقة مختلفة تمامًا عن تلك التي أشار إليها الخبراء. فقد صرّح المسؤولون معتبرين أنّه من غير المجدي الاعتراف بالدّيون الخارجيّة، وعليه، لم يعترفوا بها. وأعربوا عن عدم الحاجة إلى الاستعانة بقرض خارجيّ كبير، والحال أنّ وضعيّة الفرنك تحسّنت من دون اللّجوء إلى أيّ اقتراض. وأكّدوا أهميّة تحقيق استقرار ضروريّ للفرنك، لكنّ استقرارًا كهذا لم يحصل على الإطلاق.

لكن، كما يحدث في غالبيّة الأحيان، تفوّقت حكمة أحد الرّجال على حكمة الجماعة. في هذا السّياق، أشار وزير الماليّة من على المِنبَر إلى أنّ اتّباع نصائح الخبراء كان ليكون مُكلفًا للغاية، وأضاف قائلًا: «نّ الوضعيّة الحاليّة كانت لتكون أصعب لو أنّنا ثبّتنا المساعدة الأجنبيّة عند سعر مرتفع».

في المشكلات المتعلّقة بِتَعْلِيَةِ سعر الفرنك، لعبت الأوهام، كما هي الحال في كثير من الآراء الجمعيّة، دورًا كبيرًا.

وعليه، استوحى الخبراء الأوهام الأكثر انتشارًا، ولذلك كانت استنتاجاتهم متواضعة للغاية. في ما يتعلّق بتحقيق الاستقرار عن طريق المرسوم، تحديدًا، لاحظ السيّد Charles Dupuy، نائب مدير كليّة العلوم السّياسيّة، ما يلي:

«الاستقرار غير قادر على إعطاء الثّبات، لأنّ الثّبات لا يُمكن أن يتعلّق بتنظيم تشريعيّ، فهو ينجم فقط عن توازن حقيقيّ، أي غير مصطنع، بين المصادر والالتزامات. فالاستقرار لا يعني الثّبات، لأنّ الاستقرار لا يضمن الثّبات».

إنّ المشكلات المطروحة على الخبراء كانت في الوقت نفسه ذات طابع اقتصاديّ وسيكولوجيّ. الواقع أنّ الحكومة نجحت في رفع قيمة الفرنك استنادًا إلى العوامل السّيكولوجيّة على وجه الخصوص.

يُظهر تقرير السيّد شيرون M. Chéron إلى مجلس الشّيوخ كم كانت الوضعيّة حرجة، في لحظة ما:

«حذّرَ حاكم مصرف فرنسا، بتاريخ 21 تمّوز 1926، الحكومة من اقتراب وَقْف السّداد من قِبَل المؤسّسة. لقد تدفّقت طلبات السّداد من قِبَل الدّفاع الوطنيّ. إنّ تهديدات الكارتل (اتّحاد المنتجين) قتل الثّقة. في 20 تمّوز 1926 بلغت قيمة الجنيه الإسترليني في البورصة 210 فرنكات و25، أمّا الدّولار فبلغت قيمته 49 فرنكًا و22... والحال أنّ الدّولة

وجدت نفسها محاصرة بين اللّجوء إلى تضخّم جديد من شأنه أن يُسرِّع من انهيار الفرنك، واحتمال تعليق مدفوعاتها، وهو خيار شاقّ وعسير».

بيد أنّ الوضعيّة تغيّرت تمامًا بفضل رئيس مجلس عرف كيف يكسب ثقة الجميع.

الواقع أنّ نتائج تدخّله كانت سريعة: ففي 11 كانون الأوّل 1926 بلغت قيمة الليرة 122 فرنكًا و50 بمعدّل انخفاض قدره 120 نقطة عمّا كانت عليه في شهر تمّوز.

حقيقة الأمر أنّ الأزمة التي كادت تأتي على ائتمان فرنسا، وزعزعت البلاد بأسرها، كانت أزمة ثقة.

فالثّقة التي سمحت بنهوض الفرنك كانت نتيجة عوامل كثيرة، وتحديدًا إعادة التّوازن المتعلِّق بالميزانيّة والعقبات التي وقفت حائلًا دون التّهديدات الاشتراكيّة.

في هذا السّياق، لخّصت صحيفة كبيرة، بشكل رائع، من خلال الكلمات الآتية، الدّور الّذي لعبته التّأثيرات السّيكولوجيّة:

«عندما حكم الاشتراكيّون من خلف الكواليس، ظلّت قيمة الليرة في حدود 210 فرنكات، وكانت الكارثة قريبة. لكن مذ توقّف الاشتراكيّون عن التّأثير في الحكومة، بلغت قيمة الليرة 123 فرنكًا، وتحقّق الاستقرار بحكم الواقع».

الحقّ أنّ الثّقة هي دعامة من الدّعامات السّيكولوجيّة للعملة، لكنّ هذه الدّعامة موقّتة. والحال أنّه لا يُمكن الحفاظ على سعر العملة، كما أشرتُ إلى ذلك سابقًا، إلّا عن طريق زيادة الثّروة الوطنيّة التي تعود بدورها إلى تقدّم الصّناعة والزّراعة. إلى ذلك يُمكن القول إنّ المسائل المتعلّقة بالعملة تتلاشى حتمًا عندما يستطيع أيّ بلد أن يدفع ثمن وارداته من صادراته. كلّ عملة تُصبح عندئذ عديمة الفائدة.

حقيقة الأمر أنّ دور الثّقة في نهوض الفرنك لم يَفُتِ الخبراء. لكنّ الوسائل التي اقترحوها من أجل تجديدها كان من شأنها أن تجعلها خطيرة أكثر منها وسائل مفيدة.

تظهر من بين هذه الوسائل، كما قلنا أعلاه، 1 ـ ضرورة تنظيم الدّيون بين الحلفاء، 2 ـ وضرورة الاستعانة بقرض كبير مُخصَّص من أجل تزويد مصرف فرنسا بالعملات الضّروريّة القادرة على زيادة ضمان أوراق المصرف النّقديّة، وزيادة قيمتها أيضًا، 3 ـ وتحقيق استقرار الفرنك عن طريق إصدار المراسيم.

أثبتت الوقائع أنّ تحسين الفرنك، الّذي تخطّى كلّ تطلعات الخبراء، قد حُصِلَ عليه من دون اللّجوء إلى أيّ وسيلة من الوسائل التي أشاروا إليها. سوف نتبيّن أسباب الأوهام، التي وقعت ضحيّتها جماعة الرّجال الحكماء هذه، من خلال مناقشة مقترحاتهم.

هل يُمكن لدفع الدّيون المشتركة بين الحلفاء أن تؤثّر في الوضعيّة الماليّة؟ اعتقد الخبراء، والكثير من رجال الاقتصاد ـ الإنجليز والأمريكيّين خصوصًا ـ أنّ تحسين وضعيّة فرنسا الماليّة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالاعتراف بديونها المستحقّة تجاه حلفائها السّابقين.

مع ذلك، من الجليّ للعيان، من دون الحاجة إلى تفكير طويل، أنّ دفع مليارات كثيرة سنويًّا إلى الخارج، عوضًا عن أن يُحسِّن الفرنك، لم يؤدِّ إلّا إلى التّسريع في انهياره. من أجل الحصول على الجنيهات والدّولارات الضّروريّة للسّداد، ينبغي لنا أن نبيع في الأسواق الخارجيّة كميّات هائلة من الفرنكات. بسبب سيادة قانون العرض والطّلب، أدّت هذه العمليّة إلى خفض قيمة الفرنك بشكل هائل، وهي نتيجة تتعارض تمامًا مع النّتيجة المتوخّاة.

إذا أقررنا أيضًا أنّه بوسع المصارف الأجنبيّة أن تكون مؤثّرة من خلال الاعتراف بالدّيون، فمن المحتمل جدًّا أن تكون المليارات التي أقرضتها لنا أقلّ بكثير من احتياط الذّهب الضّروريّ من أجل تحسين سعر خمسين مليارًا من الأوراق النّقديّة الفرنسيّة قيد التّداول.

لقد أشرتُ سابقًا إلى أنّ الأمريكيّين أنفسهم بدأوا يرون معايب هذه الدّيون التي اعترف بها الخبراء بسهولة. في هذا السّياق، أُضيف إلى الاستشهادات، التي أوردتها في فصل سابق، مقتطفًا للسيّد M. Baker، وهو وزير سابق للحرب في الولايات المتّحدة:

«من غير المتصوّر أن يستمرّ باقي العالَم في القيام بالأعمال التّجاريّة معنا في خلال الاثنين والسّتين العام، حيث سترى كلّ دولة أنّ الضّرائب الثّقيلة المفروضة على صناعاتها الخاصّة، والّتي تُدفع للولايات المتّحدة، لا تختلف كثيرًا عن الجزية التي كانت روما تفرضها على أعدائها».

عِلاوة على ذلك، لا يبدو أنّ الخبراء امتلكوا مفاهيم سيكولوجيّة سليمة حول ذهنيّة المصارف الأمريكيّة. في الحقيقة، هذه المصارف لا تعدو كونها تجّارًا لا يرغبون في جعل الذّهب الّذي يُشكّل جوهر بضاعتهم غيرَ منتجٍ. فهم لا يُطالبون باستخدامه في قروض مُثمرة فحسب، لكنّهم يبحثون أيضًا عن أخذ فوائد من الصّناعات التي تدرّ ريعًا كبيرًا. لذلك ترى هذه المصارف تمتلك اليوم أسهمًا كثيرة في مختلف الشّركات في ألمانيا.

من كلّ ما تقدّم، نرى أنّ طرح الخبراء المتعلّق بتحسين وضعنا الماليّ عن طريق الاعتراف بالدّيون الثّقيلة المستحقّة للخارج يُشكّل وهمًا خطيرًا.

هل يُمكننا تحقيق استقرار العملة عن طريق الاسترداد من البورصة؟ هذا الوهم المشترك بين رجال مال مشهورين كلَّف ألمانيا مليار مارك، عندما أرادت أن تمنع هبوط عملتها، وكلّف بلجيكا 500 مليون في محاولتها الأولى تحقيق الاستقرار.

إلى ذلك، تَشَارَك الوهمَ نفسه كلُّ وزراء المال الفرنسيّين الّذين تعاقبوا على الوزراة منذ زمنٍ ليس ببعيد. تسبّب هذا الوهم في تبديد ملايين كثيرة، ومن دون تغيير الوزارة، لَكَانَ خضع احتياط مصرف فرنسا من الذّهب للزّوال التّام.

عندما نصحنا خبراؤنا بالاعتراف بديون فرنسا المستحقّة تجاه حلفائها، فإنّهم افترضوا من دون شكّ، هم أيضًا، أنّنا نستطيع بمعيّة المليارات، التي أقرضتنا إيّاها المصارف متأثّرة بهذا الاعتراف بالدّيون، أن نُكوِّن «كتلة من المناورات»، تسمح من خلال الاستردادات الممنهجة بالحفاظ على سعر الفرنك.

بطبيعة الحال، يُمكننا، من خلال طلب العملات المتداولة في البورصة، أن نرفع بشكل مصطنع سعر الفرنك، لكن، لكي ننجح في المحافظة، بشكل دائم، على هذا السّعر، يجب على الدّولة أن تمتلك، بوصفها مشتريًا لعملتها الخاصّة، احتياطيَّ الذّهب، الأمر الذي يُعْوِزها في هذا المقام، ذلك بأنّ افتقارها إلى الذّهب، تحديدًا، هو الّذي يتسبّب في انخفاض قيمة العملة.

من دون شكّ، تتخيّل الدّولة المُستردّة (التي تُعيد شراء العملة) طواعية، أنّ إعادة شراء العملة التي تناقصت قيمتها باستخدام الذّهب من شأنه أن يُوحيَ بالثّقة مجدّدًا، ولا سِيّما أنّ العامّة ستحتفظ، بعد عددٍ من عمليّات السّداد، بعملتها الورقيّة من دون أن تلجأ إلى مبادلتها أو تصريفها.

وقع ضحيّة هذا الوهم، على التّوالي، عدد من الحكّام الألمان والبلجيك. وبدورنا كُنّا ضحيّة هذا الوهم، باتّباعنا الأخطاء نفسها.

وبعد، أمكن لبلجيكا، إبّان سعيها الأوّل إلى تحقيق استقرار العملة، أن تُحافظ على سعر صرف الليرة عند حدود 107 فرنكات، لأنّها امتلكت ما يكفي من الذّهب، أو من العملات الأجنبيّة المعادلة له، لكن حالما أُنْهِك احتياطها، توقّفت قسرًا عن سداد ديونها. والحال أنّ اللّيرة ارتفعت سريعًا إلى 150 فرنك، وهو معدّل وجب تخطّيه سريعًا.

وعليه، إنّ تحسين العملة عن طريق الاستردادات من البورصة لم ينجح في أيّ بلد.

لا يبدو أنّ استحالة المحافظة بشكل مصطنع على نسب النّقود الورقيّة عن طريق الاسترداد من البورصة تتأتّى عن الدّوافع الاقتصاديّة أو السّيكولوجيّة فحسب، بل تتأتّى كذلك عن بعض الأسباب الرّياضيّة.

في الواقع، يُظهر حساب الاحتمالات أنّ اللاعب ذا الثّروة المحدودة، في لعبه مع آخر يمتلك ثروة لا متناهية، محكوم عليه حتمًا بالانهيار. تُمثِّل أيّ بورصة، بسبب علاقاتها التّلغرافيّة الفوريّة مع كلّ بورصات العالَم، صالة لعب كبيرة تضمّ مُضاربين من كلّ أنحاء العالَم. فالبلد الّذي يُعيد شراء عملته يُمثِّل اللاعبَ ذا الثّروة المحدودة الّذي أتيتُ على ذكره أعلاه. أمّا اللاعب الّذي يملك ثروة غير محدودة يتكوّن من كلّ اللاعبين في العالَم. بسبب هذا القانون الرّياضيّ المصوغ أعلاه، يُمكن القول إنّ اللاعب الذي يملك ثروة محدودة، أي الدّولة العاديّة، محكوم عليه حتمًا بأن يُبدِّد كلّ الذّهب الّذي يملكه في سعيه إلى رفع قيمة عملته.

تُثبت التّجربة، أيًّا تكن قيمة الحجّة الرّياضيّة السّابقة، أنّه ليس بمقدور أيّ استرداد من البورصة أن يرفع طويلًا قيمة العملة، إذا كانت العامّة لا تملك ثقة بهذه العملة.

في ظلّ غياب التّجارب التي أُشيرَ إليها سابقًا، والحجج التي ذكرناها للتوّ، سوف يظهر استدلال بسيط للغاية بسهولة كم أنّ التطّلعات المتعلّقة بفعاليّة حجم المناورات كانت خاطئة.

لنفترض، في الواقع، أنّ ثمّة دولة تملك كتلة مناورة مُعلنة بما يكفي من أجل حرمان المضاربين من فكرة التّسبّب في انخفاض العملة من خلال اللّجوء إلى البيع. إذا كانت الاستحالة المفترضة حقيقيّة، فإنّه ينجم عن ذلك أنّ الدّولة التي تملك كتلة مناورة بإمكانها أن تطبع عددًا غير محدود من الأوراق النّقديّة من دون أن تُعرِّض نفسها لإمكانيّة تخفيض قيمتها. الحقّ أنّها ستغدو الدّولة الأغنى في العالَم.

(76) وحدة قياس حجم.

(77) خطّة دوز (على النّحو المقترح من قبل لجنة دوز، برئاسة تشارلز جيتس دوز) كانت خطة في عام 1924 لحلّ قضيّة تعويضات الحرب العالميّة الأولى التي كانت مطلوبة من ألمانيا. لقد أنهت أزمة في الدبلوماسيّة الأوروبيّة بعد الحرب العالميّة الأولى، ومعاهدة فرساي. أسهم احتلال الرور من قبل فرنسا وبلجيكا الصناعيّة في أزمة التضخّم الجامح في ألمانيا، ويعزى ذلك جزئيًا إلى تأثيرها المعطّل على الاقتصاد الألمانيّ. تنصّ الخطّة على إنهاء احتلال الحلفاء، وخطّة سداد مذهلة لتعويض ألمانيا عن تعويضات الحرب. نظرًا إلى أنّ الخطّة حلّت أزمة دوليّة خطيرة، فقد شارك دوز في تَسَلُّم جائزة نوبل للسّلام في عام 1925 عن عمله. لقد كانت الخطة تدبيرًا مؤقّتًا وثبت أنّه غير عملي. أُعتمدت خطة يانغ في عام 1929 لتحلّ محلّها.

# الكتاب التّاسع: دور المثل العليا في حياة الشّعوب الدّيانة الاشتراكيّة

## الفصل الأوّل: تطوّر المثل العليا الحديثة

إذا كانت العبقريّات الكبرى لليونان وروما، التي أضاءَ فِكْرُها الكثير من الأجيال، تعود إلى عصر الأنوار، فإنّ هذه العبقريّات ستنبهر بمجرّد تعداد العجائب التي تحقّقت منذ قرن: فثمّة قوًى ـ لم تكن متوقَّعة قديمًا ـ وُضِعَت في تصرّف الإنسان، من غزو الفضاء، واستشعار البرق، وانتقال الكلمة على الفور في أنحاء العالَم كافَّة، والكثير من الاكتشافات الأخرى أيضًا.

هؤلاء المفكّرون المشهورون سيندهشون حتمًا، لكنّ عبقريّتهم النّافذة ستكتشف سريعًا أنّه إذا كان العقل قد حوَّل مظهر الحضارات الماديّ، فإنّه لم يُمارس سوى تأثير ضئيل في سلوك النّاس. الواقع أنّ المعتقدات السّياسيّة والاجتماعيّة ترتكز على الأسس الشّعوريّة والصّوفيّة نفسها، شأنها في ذلك شأن المعتقدات الدّينيّة السّابقة. الحقيقة أنّ المشاعر التي سَلَّحت قديمًا عددًا كبيرًا من الشّعوب بعضها ضد بعض تُماثل المعتقدات التي تُسلّحها اليوم. فالانقسامات التي دمّرت اليونان القديمة، والحروب الأهليّة التي وضعت حدًّا للجمهوريّة الرّومانيّة، وُلِدَت من مشاعرَ تُماثل تلك التي تُزعزع اليوم حياة الأمم.

أمام اكتشافات العلم، أمل الفلاسفةُ أن يُصبِح عصرُنا عصرَ العقل المحض، وأن تحلّ المختبرات محلّ المعابد والكهوف، المختبرات التي تنبثق منها القوى التي تتفوّق على القوى التي توفّرها الآلهة، فضلًا عن تطلّعهم إلى وفاق عالميّ يُوحِّد الشّعوب.

بيد أنّ شيئًا من هذا لم يحصل، والحقّ أنّه ليس في هذا الأمر ما يُدهش. إذ كيف يُمكن لاكتشافات ذات أصل عقلانيّ أن تُغيِّر المشاعر التي تُشكِّل بنية طبيعتنا؟

لا شكّ في أنّ العلم زوّد المشاعر بوسائل تأثير جديدة، لكنّه لم يُحوّلها. ولذلك، عوض أن تُفضي الاكتشافات العلميّة إلى إرساء السّلام في العالَم، لم تفعل شيئًا سوى أنّها جعلت الحروب الحديثة أفْتَكَ وأكثر وحشيّة من الماضي.

في هذا السّياق، لاحظ العلماء، الّذين تحدّثتُ عنهم أعلاه، أنّ الأوهام الصّوفيّة هي قويّة اليوم أيضًا تمامًا كما كان شأنها في الزّمان الذي نشأت فيه. الحقيقة أنّ هذه الأوهام تُشكِّل جزءًا من طبيعة الإنسان، لذا لا يُمكن أن تموت شأنها شأن الحبّ، والطّموح، والكراهية. لقد تدفّق الاشتراكيّون سريعًا، كما تدفّق المؤمنون منذ 8000 عام وسجدوا أمام معابد إيزيس. والحال أنّ الاشتراكيّين هؤلاء حوّلوا الدّولة إلى المتحكّم الأسمى في مصير النّاس الّذين ينتمون، من وجهة نظر سيكولوجيّة، إلى العائلة نفسها. حقيقة الأمر أنّ التّأثيرات الصّوفيّة التي هيمنت على المؤمنين هي عينها التي تُسيطر على الاشتراكيّين.

بعبارة أخرى، لم تتقبّل الشّعوب، من دون حدوث انقلاب، موتَ آلهتها. ولذلك، حالما يتحوّل مَثَلٌ أعلى إلهيّ، تتحوّل الحضارة التي يُلهمها.

فتحت تأثير المثل العليا المتأتية من تأمّلات بوذا، ويسوع، ومحمّد، تدمّرت إمبراطوريّات كبرى، وأُسّست أخرى.

بعيدًا من المثل العليا الدّينيّة، تأثّرت كلّ حقبة بمَثَلٍ أعلى سيّاسيّ تغيَّر، بصفة عامّة، بعد عدد قليل من الأجيال. فعلى سبيل المثال، كان المثل الأعلى السّياسيّ في فرنسا في القرن السّابع عشر هي الملكيّة المطلقة المُمَثَّلة بلويس الرّابع عشر. في القرن الثّامن عشر، نجحت الثّورة في تدمير النّظام الملكيّ، جزئيًّا، وأفضت ختامًا إلى خلق ملكيّات دستوريّة تاركة للشّعب سلطات سيّاسيّة حيث سمحت له الثّورات المتتالية ببسط هذه السّلطة. شهد القرن

العشرون تطوّر السّلطات الشّعبيّة، وفي الوقت نفسه، تشكُّل دول جديدة مثل إيطاليا وألمانيا، والحقّ أنّها تكوّنت نتيجة اتّحاد مجموعة دول صغيرة كانت منفصلة في الماضي.

إلى ذلك، أفضى تطوّر الأفكار الدّيمقراطيّة بعامّة، والمساواة بخاصّة، إلى توسيع سلطة تأثير الاشتراكيّين. الواقع أنّ تطبيق هذه الأفكار في مختلف البلدان خَلَّف فوضى قادت الكثير من الدّول الكبرى في أوروبا إلى اتّخاذ أشكال دكتاتورية متنوّعة. يبدو أنّ هذه الأفكار ستأخذ في التّوسّع إذا استمرّت الحكومات الاشتراكيّة في إثبات عجزها عن التّكيّف مع الضّرورات التي تحكم العالَم في يومنا هذا.

يُظهر فشل المساعي الّتي بُذِلت في روسيا، وفي دول أخرى، كم من الصّعب على شعوب أضناها مثل أعلى قديم أن تخلق مثلًا أعلى جديدًا يكون قادرًا على توحيد النّفوس.

الحقّ أنّ الصّعوبة أكبر اليوم، إذ لا يُمكن لمثل أعلى أن يملك تأثيرًا مستمرًّا إلّا إذا لم يتعارض، على غرار المثل الأعلى الاشتراكيّ، مع المتطلّبات الاقتصاديّة الجديدة التي أدّى تطوّر العلوم والصّناعة إلى ظهورها.

تتصارع في العالَم اليوم ثلاثة أشكال كبرى من المثل العليا: المثل الأعلى الدّينيّ، والقوميّ، والعالميّ.

لا يملك المثل الأعلى الدّينيّ، الذي ما زال راسخًا وحيويًّا للغاية أيضًا لدى الكثير من الأمم، تأثيرًا سياسيًّا عميقًا إلّا لدى شعوب آسيا، والمسلمين منهم تحديدًا. في أوروبا تنزع الدّيانة الاشتراكيّة إلى أن تحلّ محلّ المعتقدات الدّينيّة القديمة.

تطوّر المثل الأعلى القوميّ، الذي تُشتقّ منه فكرة الوطن، لدى الكثير من الشّعوب منذ الحرب، وبخاصّة لدى الشّعوب التي تكوّنت بشكل مصطنع بفعل معاهدة السّلام.

أمّا المثل الأعلى العالميّ، الّذي يرفض المثل الأعلى للوطن، فقد جرى الدّفاع عنه من قِبَل الاشتراكيّين والشّيوعيّين، الّذين تخيّلوا أنّ إلغاء فكرة الوطن من شأنها أن تُفضي إلى سلام

عالميّ.

أثبت التّاريخ أنّه ما من أمّة تُغيّر مثلها الأعلى من دون أن تتحوّل حضارتها سريعًا. ينجم ممّا تقدّم أنّ مستقبل الشّعوب يتوقّف على المثل الأعلى الّذي يُوجّه مشاعرهم وأفكارهم.

إذا دُرِسَت المثل العليا على هَدْيِ أنوار العقل فحسب، فإنّ الغالبيّة السّاحقة منها تُصبِح خيالات وهميّة، لكنّ الملاحظات المتكرِّرة على امتداد عصور طويلة تُثبت أنّ هذه الخيالات تنطوي على حقائق قائمة. فبوذا، ويسوع المسيح، ومحمّد حوّلوا العالَم، وها هم يُوجّهون، من قاع قبورهم، تفكير ملايين النّاس.

غالبًا ما امتلكت المثل العليا الدّينيّة ـ والمثل العليا السّياسيّة في بعض الأحيان ـ حتّى الآن سلطة خلق وحدة المشاعر والتّفكير الّتي من دونها لا يُمكن لأيِّ حضارة أن تستمرّ.

لا يرزح أنصار نظريّة الماديّة التّاريخيّة تحت التّأثير القويّ للمثل العليا الصّوفيّة. الحقّ أنّ أتباعها يدعمون الفكرة القائلة إنّ الشّعوب تُقاد من خلال الحاجات الماديّة فحسب، في حين أنّ الحوادث الكبرى، التي تُشكِّل بنية التّاريخ، تجد أصلها في المثل العليا الصّوفيّة الغريبة عن هذه الحاجات. إنّ تأسيس الإمبراطوريّة الإسلاميّة، والحروب الصّليبيّة، والحروب الدّينيّة، وحوادث أخرى كثيرة مماثلة، تجد مردّها في التّأثيرات الصّوفيّة وليس في الحاجات الماديّة. الحقيقة أنّ المثل العليا تُوجّه روح الشّعوب، بالقَدْر نفسه الّذي تُوجّهها فيه الحاجات.

في أيّامنا هذه، تضاءلت أهميّة المثل العليا الدّينيّة، لدى الكثير من الشّعوب، قياسًا إلى المثل السّياسيّة أو الاجتماعيّة، مثل الرّغبة في السّيطرة، والنّظريّات الاشتراكيّة، إلخ.

إلى ذلك، وجب أن ينتصرَ المثل الأعلى للهيمنة ـ بما هو شكل مُبالَغ فيه من أشكال المثل القوميّ الأعلى، والّذي غالبًا ما يُصنَّف بأنّه مثل أعلى تسلطيّ واستبداديّ ـ بمعيّة الأسلحة

الألمانيّة، لكنّه لم يكن المثل الأقوى، لذا نرى أنّ المثل الأعلى الاشتراكيّ هو الّذي يحلّ اليوم محلّ المثل العليا الصّوفيّة التي لم يستطع الإنسان البتّة أن يتجاوزها.

على غرار كلّ المثل العليا، يستلهم هذا المثل معتقدات لا يُمكن أيُّ استدلالٍ أن يَمسسها، لكنّ هذه المعتقدات، التي هي شرط من شروط قوّته، تُشكّل أيضًا سببًا من أسباب ضعفه. في الواقع، وصل العالَم إلى عصرٍ باتت فيه الضّرورات الاقتصاديّة، التي لا تلين البتّة، تَحِدُّ بشكل وثيق من سلطة الأوهام. عندما نجح محمّد، باسم الدّين الجديد الّذي هو بالمناسبة من بنات خياله، في زعزعة العالَم القديم، لم يجد نفسه أمام حائط الضّرورات الاقتصاديّة المسدود الّذي يُصادفه تلاميذ ماركس الآن.

لكن، إذا كانت السّلطة المكوِّنة للمثل الأعلى الاشتراكيّ ضعيفة للغاية، فإنّ تأثيرها التّدميريّ يُمكن أن يُصبِح كبيرًا. الحقّ أنّ روسيا اختبرت هذا الأمر. لقد وجب توفُّر تأثير دكتاتور مقتدر من أجل وضع حدّ في إيطاليا للفوضى التي تسبّب فيها تطبيق العقيدة الاشتراكيّة.

من بين كلّ المثل العليا الموروثة من الماضي، يُمكن القول إنّ المثل الأعلى الأقوى هو المثل القوميّ الّذي شكّلته عبادة الوطن.

عوضًا عن اللّجوء إلى الحجج العقلانيّة أو الوجدانيّة، يكفي أن نُهاجر لبعض الوقت لكي نتبيّن ماهيّة الوطن.

الوطن ليس أرض الأجداد التي تُكمِل الأجيال الجديدة حياتهم فحسب، بل هي أيضًا مجموعة التّراثات، والأفكار، والمشاعر المشتركة، والأحكام المسبقة نفسها، التي تجعل كلّ أُناس بلد ما يشعرون بأنّهم أُخوة. في هذا السّياق، يكفي أن ننقل أعنف رسل الأمميّة إلى الشّعوب الأجنبيّة لكي نجعلهم يتبيّنون سريعًا عمق الهاوية السّيكولوجيّة التي تفصل بين الشّعوب ذوات الذّهنيّات المختلفة.

تُلاحَظ هذه الاختلافات عندما يجتمع أناس من أوطان مختلفة في أيّ مؤتمر. إذ سرعان ما تنشب الخلافات، ليس في ما يتعلّق بالمصالِح فحسب، بل كذلك في ما يتعلّق بالمشاعر والأفكار التي تحول دون تفاهمهم. الحقيقة أنّ معتقداتهم السّياسيّة تُقرّبهم بعضهم مع بعض لبُرهة، لكنّ ماضيهم يُفرّقهم، وسرعان ما يتبيّنون هذا الأمر.

يُظهر تاريخ العالَم القديم بوضوح، هو أيضًا، قوّة فكرة الوطن. لقد سيطر الرّومان على العالَم وَمَدَّنوه عندما كانت عبادة روما تحكم نفوسهم. لكن عندما ضعفت عبادة الوطن في القلوب، بفعل الحروب الأهليّة التي خلقتها الصّراعات الاجتماعيّة، بدأ الانحطاط.

يُمكننا أن نُلخِّص كلّ ما تقدّم من خلال الاستنتاجات الآتية:

بعيدًا من الحاجات الماديّة الضّروريّة التي تُعْوِز الإنسان من أجل المحافظة على حياته، ثمّة عناصر وجدانيّة تُوجّهه: الطّموح، والكراهية، والحبّ، إلخ، وتأثيرات صوفيّة تحكمه: معتقدات دينيّة، وسيّاسيّة، واجتماعيّة، ناهيك بالتّأثيرات العقلانيّة التي ما زالت سلطتها ضعيفة للغاية.

إلى ذلك، تُولِّد المعتقدات الصّوفيّة المثل العليا التي تُسيطر على كلّ شعب من الشّعوب، وتسمح له بألّا يبقى عبارة عن غُبارِ أُناسٍ بلا مقاومة ولا قوّة.

هذه المثل، التي تجسّدت قديمًا في الآلهة الشّخصيّة، تنزع إلى أن تحلّ محلّ المعتقدات والشِّعارات التي تُعزى إليها القوّة نفسها، لكنّها تصطدم بضرورات اقتصاديّة لا سبيل إلى ردّها.

الواقع أنّ الانقلابات والفوضى الحاليّة التي يشهدها العالَم ستستمرّ وصولًا إلى اليوم الذي تخلق فيه الحاجات الصّوفيّة ـ التي لا يُمكن أن تموت لأنّها تُشكِّل جزءًا من الطّبيعة البشريّة ـ مثلًا أعلى جديدًا لا يصطدم بالوقائع الاقتصاديّة التي حوّلت العصر الحديث.

# الفصل الثّاني : تطوّر الدّيانة الاشتراكيّة

لا نستطيع أن نفهم جيّدًا قوّة الاشتراكيّة والشّيوعيّة إلّا إذا نظرنا إليهما على أنّهما ديانة جديدة تستلهم الإيمان الصّوفيّ نفسه على غرار الأديان السّابقة.

هذه المشابهة، الّتي جرى اعتبارها مُخالفة للإجماع في الحقبة التي صغته فيها في واحد من كتبي القديمة، قد اعتُمِدَ اليوم، عمومًا، حتّى من قِبَل الاشتراكيّين. في هذا السّياق، صرَّح زعيمهم في فرنسا من أعلى المنصّة البرلمانيّة بهذا الأمر من خلال استخدامه العبارات الآتية:

«عندما قيل لنا: «أنتم كنيسة»، لم يهينونا على الإطلاق... نحن كاثوليكيّون! نحن أيضًا ندّعي السيطرة الرّوحيّة. نحن أيضًا نخلق شيئًا ما يُشبه الإيمان. ونحن أيضًا، على غرار الكنيسة الكاثوليكيّة، ونحن أيضًا فخورون بالنّظر إلى الحوادث والأشياء من منظور أبديّ.

... لم يُحَقَّق دور التّحكيم بين الأمم عن طريق الكنيسة، بل نحن، أي الاشتراكيّة، الّذين طالبنا به، والحال أنّنا نُطالب بهذه الاستمراريّة الرّوحيّة».

غالبًا ما تترافق ولادة ديانة ما، وهي ظاهرة نادرة الحصول في التّاريخ، مع حدوث انقلابات. لقد انبثقت من تأمّلات بوذا تحت شجرة الحكمة، قبل عصرنا بخمسة عصور، ديانة غيّرت الوجود في الشّرق الأقصى، ووجّهت تفكير 400 مليون إنسان. قل كذلك عن المسيحيّة التي أحدثت تحوّلاتٍ عميقة أيضًا. وسمح الإله الّذي خرج من أحلام محمّد للبدو الغامضين بأن يؤسّسوا إمبراطوريّة اختفت اليوم، لكنّ الإيمان الّذي ولّدته حَيٌّ على الدّوام.

إذا امتلكت الأديان قوّة كهذه، فذلك لأنّها تُزوِّد النّاس بتلك الأفكار والمشاعر المشتركة التي تخلق الوحدة، ومن ثمّ، تخلق اقتدار الأمم.

يعود توسّع الاشتراكيّة غير المتكافئ لدى مختلف الشّعوب إلى الاختلافات في الذّهنيّة التي تفصل بينها. سوف نُلخِّص بعضًا من هذه الاختلافات من خلال تصنيف الشّعوب تصنيفًا دولانيًّا وفردانيًّا.

لدى الفردانيّين، تُدار المؤسّسات الكبرى كلّها من خلال المبادرة الفرديّة. لدى الدّولانيّين، يُناط بالحكومة أكبر عدد ممكن من الوظائف الممكنة، ولا يحتفظ المواطنون إلّا بنسبة ضئيلة من المبادرة والاستقلال.

بسبب هذه الاختلافات في الذّهنيّة تتصدّى الشّعوب الفردانيّة بعامّة، والأمريكيّون بخاصّة، برعب للاشتراكيّة. على العكس، تعترف الشّعوب اللاتينيّة بها بسهولة، شريطة ألّا تكون مَحُوطة بمخاطر التّقويض والتّخريب.

إلى ذلك، بدا الأمريكيّون فخورين جدًّا بفردانيّتهم، وإذا خضعوا للدّولانيّة في خلال الحرب، بحكم الضّرورة العسكريّة، فإنّهم سرعان ما عدلوا عنها في اللّحظة التي وُقِّعَت فيها معاهدة السّلام.

إنّ الاختلافات في التّكوين الذّهنيّ، التي أشرنا إليها للتوّ، لها تبعات هامّة من وجهة نظر اقتصاديّة واجتماعيّة.

أثبتت التّجارب، الّتي تتكرّر باستمرار، أنّ كلَّ صناعات الدّولة أكثر تكلفة من الصّناعات الفرديّة، وأنّ الشّعوب التي تبنّت الاشتراكيّة أَلِفَت نفسها في وضعيّة دونيّة تجلّت بوضوح بالنّسبة إلى الشّعوب التي لم تتبنَّ هذه العقيدة. والحال أنّه ينبغي لغالبيّة الدّول، التي لا تستطيع أن تعيش إلّا إذا حصلت من الخارج على الموادّ الأوّليّة التي لا تُزوّدها بها أرضها، أن تدفع ثمن هذه الموادّ بمعيّة بضائع لا تتخطّى أسعارُها أسعارَ البضائع المنافسة لها في السّوق العالميّة.

الواقع أنّ أمّة مُدَوْلَنَة بالكامل عن طريق الاشتراكيّة ستجد نفسها مجبرة على بيع منتجاتها بسعر أكثر ارتفاعًا من أسعار منتجات منافسيها. وعليه، سوف تشهد هذه الأمّة تكاليف حياة مرتفعة، وستشهد بطالة، ومن ثمّ، على غرار ما حصل في روسيا، سيختبر عمّالها البؤس في حين تدّعي الاشتراكيّة تحسين مصيرهم.

من بين المبادئ الأساسيّة التي تقوم عليها الاشتراكيّة يُمكن ذكر القضاء على رأس المال، وعلى حالة الأجور. يُظهِر عالم اقتصاديّ شهير، من خلال السّطور الآتية، التي نشرتها صحيفة الـTemps، الجوانب الوهميّة في النّظريّات الاشتراكيّة المتعلّقة بهاتين المسألتين الأساسيّتين:

«لقد نُظِرَ إلى حالة الأجور بوصفها نمطًا بربريًّا من التّعويض يترك العامل يُكافح مع الخشية من المستقبل. يُريد الاشتراكيّون نَقْل مسؤوليّة الخلق المستمرّ للوظائف إلى الدّولة، بحيث يُوَزَّع الرِّبح العام بين العمّال، من دون جباية وسيطة. لا يتعلّق الأمر، بالنّسبة إليهم، بالقضاء تمامًا على رأس المال، بقدر ما يتعلّق بانتزاعه من مُلّاكه الحاليّين، لكي يسلبوا منهم، في الوقت نفسه، كلّ وجهة الأعمال. وعليه، فإنّ الثّورة تغدو ضروريّة، بيد أنّ رأس المال سينجو، وسيرخي بثقل فوائده على موازنة الدّولة، كما هي حال سندات الدّخل اليوم. لكن، على الأقلّ، سيُصبِح العمّال هم الأسياد الظّاهرون لقدرهم.

لقد أمكن لنا أن نرى ما أفضى إليه تطبيق هذا الشّعار في روسيا: الموظّف أثرى من ربّ العمل، ناهيك بالعجز عن تكييف الإنتاج مع الاستهلاك. في نهاية المطاف، يُلفي العاملُ نفسَه يتقاضى أجرًا أكثر من أيّ وقت مضى، لكن بمعدّلات أقلّ، كما يجده خاضعًا لخطر البطالة. في الحقيقة، لا يُمكننا أن نتصوّر تمركز اقتصاد أيّ دولة بين يدي العمّال من دون أن يترتّب على ذلك خراب الدّولة».

من دون شكّ تخضع حالة الأجور للقانون العام الّذي يُلزم المؤسّسات بالتّغيير. يُظهر دمج مصالح العامل مع مصالح ربّ العمل، كما هي الحال في أميركا، وامتلاك العمّال جزءًا من

أسهم المؤسّسات التي يتعاونون معها، يُظهران أنّ حالة الأجور ستتطوّر، لكن بمعنًى مختلف عن ذاك الّذي حلم به الاشتراكيّون.

علاوة على ذلك، لن تتغلّب أوهام المنظِّرين على هذا القانون السّيكولوجيّ الّذي يتعذّر اختزاله، ومفاده أنّ المبادرة، والجهد الفرديّ يُشكّلان، وفقًا للتّجربة، محفِّزين لا يُمكن لأيّ شعور جماعيّ أن يحلّ محلّهما.

لنفترض أنّه تحقّق منذ قرن، بمعجزة ما، حلم الاشتراكيّين تحت تأثير الحكومة العالميّة الأتوقراطية. ولنفرض أنّ الأجور كلّها أصبحت متساوية، وأُلغيَت المنافسة، وكلّ العناصر الأخرى المتعلّقة بالجهد، والمبادرة الشّخصيّة، فإنّ أيّ تطوّر جديد لا يُمكن أن يحدث. فسكك الحديد، والكهرباء، والاكتشافات المختلفة التي حوّلت الحضارة ستكون غير معروفة. والعامل سيستمرّ في عيش حياة الحرمان التي حُكِم عليه بها.

إذا كانت المعجزة، التي افترضنا تحقّقها منذ مئة عام، ستتحقّق غدًا، فإنّ النّتيجة ستكون مماثلة. وما دام هذا النّظام مستمرًّا، سترسف البشريّة تمامًا عند النّقطة التي توجد عليها اليوم.

لا تمسَسُ هذه البديهيّات الاشتراكيّين في شيء. مع ذلك، هم يشعرون أنّ نظامهم يضع الشّعوب التي تقبل به في وضعيّة دونيّة. ولذلك نزع حلمهم إلى ترسيخ دكتاتوريّة عالميّة، تُنظِّم الإنتاج، والأجور، والأسعار، والمبادلات، إلخ، في العالَم بأسره، على نحوٍ تقضي فيه على كلّ منافسة صناعيّة وتجاريّة.

في هذا السّياق، قال السيّد ليون بلوم M. Léon Blum في البرلمان: «ينبغي إدخال نوع من الشّرعيّة الدّوليّة إلى الحياة الخاصّة بكلّ أمّة من الأمم، وينبغي اعتماد نوع من المحدوديّة».

إذا أردنا أن نُترجم هذه التّصريحات إلى كلماتٍ واضحة، فبإمكاننا القول إنّها تعني ببساطة أنّه ينبغي للعالَم أن يُقاد من قِبَل حكومة اشتراكيّة، تُشكِّل بالضّرورة دكتاتوريّة دوليّة مُطلقة.

وبعد، لا تكمن قوّة الدّيانة الاشتراكيّة على الإطلاق في عقيدتها، بل تكمن، أُكرّر، في المشاعر الدّاعمة لها.

لعلّ أبرز هذه المشاعر تميّزًا هي الحاجة إلى المساواة. ومن هنا تنجم الكراهية القويّة لكلّ عناصر التفوّق التي يتمتّع بها الذّكاء والثّروة.

إذا عرفنا أنّ مختلف أشكال التّفوّق كانت فرديّة ولم تكن جماعيّة أبدًا، فيُمكننا أن نتصوّر بسهولة أنّ الكائن الجماعيّ لم يحتملهم على الدّوام. لا يهمّ الجموع كثيرًا أن عجائب العلم والفنّ الّتي حوّلت الحضارات، وحوّلت أيضًا مصير العمّال، تعود حصرًا إلى المهارات والقدرات الفرديّة. الواقع أنّ الجموع تُريد أن تحكم بدورها. يُترجم شعار «دكتاتورية البروليتاريا» بوضوح هذا التّطلّع. من الطّبيعيّ إذًا أن يكون العمل الأوّل الذي أقدمت عليه الاشتراكيّة من بعد انتصارها في روسيا هي التّصفية الممنهجة لكلّ النّخب.

في هذا السّياق، قال روشفوكو Rochefoucauld: «إنّ الحسد هو الغضب الذي لا يحتمل خير الآخرين».

أضافت الاشتراكيّة أيضًا إلى عنصر القوّة هذا الحاجة إلى إيمان صوفيّ لا يُمكن الشّعوبُ على الإطلاق أن تتخطّاه.

أن تغدو الاشتراكيّة ديانة، فهذا يعني أن تتخلّص بموجب هذا الفعل وحده من تأثير العقل والتّجربة. فالأديان الّتي تقود العالَم دائمًا لم تُولد من العقل، ولا تخشى عقولنا على الإطلاق.

والحال أنّه لا يُمكن لضعف المعتقدات التي تطرحها الديانة الاشتراكيّة، ولا للعبوديّة التي تفرضها أن يحولا دون انتشارها.

إلى ذلك، تنطوي الاشتراكيّة على فرعين متميّزين، لكنّهما ينزعان إلى الامتزاج. بادئ ذي بدء، الاشتراكيّة التي يُمكن أن نُصنّفها بأنّها اشتراكيّة البرجوازيّين، ذلك بأنّ أتباعها كانوا من البرجوازيّين، ومن ثمّ، الاشتراكيّة الشّعبيّة، التي يُمكن أن نُسمّيها شيوعيّة، التي يُدافع عنها، بشكل أساسيّ، قادة الطّبقة العاملة.

هذان الشّقيقان يتصارعان في بعض الأحيان، لكنّهما يتّبعان تمامًا الأهداف نفسها: القضاء على الملكيّة الفرديّة، ومصادرة المؤسّسات الصّناعيّة، وإدارتها من قِبَل الدّولة. الحقّ أنّهما لا يختلفان إلّا في طرائق التّرويج والدّعاية. تملك الاشتراكيّة البرجوازيّة وهم إمكانيّة تحويل المجتمع بمعيّة جملة من القوانين، أمّا الشّيوعيّة فتريد تدميره بداية من أجل إعادة بنائه لاحقًا.

بانتظار أن تُوحِّد الدّيانةُ الاشتراكيّةُ النّاسَ، لم تفعل شيئًا سوى أنّها قسّمتهم أكثر فأكثر. إنّ نتائجها الأوضح تمثّلت في جلب البربريّة إلى روسيا، البلد الوحيد الّذي تبنّاها برمّتها، وفي إرغام إيطاليا على التّخلّص منها بواسطة دكتاتور.

من المُحزِن التّفكير في أنّ تراكم الانهيارات، والكثير من بذل الدّماء، يُمكن أن يُؤدّيا إلى تحويل الحياة المجتمعيّة للشّعوب. لكن، في الحقيقة، لم تنجح إعادة تشكيل روحهم المجتمعيّة إلّا إلى تغيير اسم المؤسّسات المُدَمَّرة.

في ما يتعلّق بروسيا، كتب أكاديميّ شهير، السيّد بوردو M.Bourdeau في صحيفة الـDébats، مُذكِّرًا بالبراهين التي طالما ردّدتها:

«إلى أيّ حدّ لا يُبرِّر مثال روسيا أطاريح الدّكتور غوستاف لو بون؟ فقد رأى هذا الأخير، بداية، أنّ الثّورات لا تُغيّر قطّ طبع الشّعوب، وأنّها إذا كسرت سلسلة التّراثات، فإنّها تختلق

تراثات جديدة على غرار التراثات القديمة. فعبادة لينين حلّت محلّ عبادة القيصر. قل كذلك عن الدّكتاتوريّة العسكريّة والبوليسيّة التي تُمارَس على البروليتاريا، فهي لم تفعل شيئًا سوى أنّها عزّزت دكتاتوريّة النّظام الملكيّ. لقد جرى تجريد الطّبقة القديمة من امتيازاتها، وذبحها من قِبَل الطّبقات الجديدة التي خلفتها. لم يكن بإمكان المساواة السّياسيّة أن تتحقّق إلّا من خلال المساواة الاقتصاديّة والاجتماعيّة».

يكمن أبرز خطر من مخاطر الاشتراكيّة في فرنسا، في أنّها استقطبت الأحزاب السّياسيّة المريبة التي تأمل، من خلال تحالفها معها، في كسب أصوات النّاخبين.

لقد نسيت هذه الأحزاب أنّ قانون تسارع الحركات الثّوريّة يُمثال القانون الّذي يحكم سقوط الأجسام. في غضون عامين اثنين، قادتِ العربةُ نفسها، إلى المقصلة، الجيروندييّن المعتدلين، الّذين خالوا أنفسهم أيضًا قادرين على إعادة تشكيل العالَم عن طريق القوانين والخطابات، ودانتن(78) Danton الهارب، الّذي أسّس محكمة مُعَدّة لكي تحكم بالإعدام، بلا إبطاء، على محتقري إيمانه، وختامًا روبسبيير البائس الّذي أَمِلَ في تجديد فرنسا من خلال قطع أكبر عدد ممكن من الرّؤوس.

وبعد، لوحظ منحنى الحركات الثّوريّة هذا تمامًا في روسيا. فبعد مجلس الدّوما(79) الباهت، ومن ثمّ، كيرنسكي(80) الثّرثار، ظهر لينين مع عمليّات الإبادة الجماعيّة، برفقة موكبه المؤلَّف من الحرّاس الصّينيّين الّذين استقدمهم لتحسين وسائل التّعذيب.

الواقع أنّ تبعات التّطرّف هي نفسها في كلّ مكان. فبعد شفرة المقصلة التي استخدمها روبسبيير، والإبادة الجماعيّة التي أقدم عليها لينين، سيظهر سيف الدّكتاتور الذي سوف يضع حدًّا سريعًا للفوضى. الحقيقة أنّه لم يظهر في روسيا، لكنّ مجيئه حتميّ.

ينبغي لمثيري الشّغب عندنا أن يتذكّروا أنّه إذا كانت فرنسا ثوريّة في بعض الأحيان ثوريّة، كما هي حال كلّ الدّول ذات التطوّر البطيء، فإنّها تمتلك روحًا تأسّليّة راسخة منذ زمن طويل، الأمر الذي يجعلها، في نهاية المطاف، دولة محافظة جدًّا.

هذه الخاصيّة المزدوجة: ثوريّة في الشّكل، ومحافظة في المضمون، يجب أن تُذكر جيّدًا من أجل فهم تاريخنا، وميل الجماهير الثّابت إلى العودة إلى قيصر ليبراليّ عندما تتعاظم الفوضى. يُفسّر هذا الميل اللّجوء إلى بونابرت في اللّحظة التي أَلِفَت فرنسا نفسها فيها متعبة من الفوضى الثّوريّة، فراحت تبحث عن سيّد لها. ويُفسّر أيضًا اللجوء إلى الإمبراطوريّة الثّانية، عندما ألفى الشّعب نفسه قلقًا من تقدّم الاشتراكيّين، فمنح سبعة ملايين صوت للدّكتاتور الذي سمح بإعادة فرض النّظام. تبدو حوادث التّاريخ متحدّرة من الصُّدَف غير المتوقّعة. الحقّ أنّ القوانين الأزليّة هي الّتي تحكمها.

الواقع أنّ العقائد الاشتراكيّة ستستمرّ في الانتشار، أيًّا تكن الحجج التي يُمكن أن نسوقها ضدّها، لأنّ أتباعها هم فيالق ضخمة من الأناس السّاخطين على مصيرهم، ومن ثمّ لا تكفيهم المثل العليا القديمة.

من بين تلك الفيالق، يبرز الموظّفين والبرجوازيّين الصّغار الّذين أوصلوا الكثير من المتطرّفين إلى البرلمان لأنّهم عقدوا آمالهم عليهم في تحسين وضعهم، وإعادة إحياء رغد العيش الّذي أتت عليه الاضطرابات الماليّة. لكن من المؤكّد أنّهم سيتخلّون سريعًا عن الاشتراكيّة، عندما سيرون أنّ المدافعين عنها عاجزون عن استعادة رغد العيش المفقود.

يُقدِّم المقطع الآتي، المنشور في نيسان 1926 في أكثر الصّحف الاشتراكيّة الفرنسيّة تأثيرًا، مُلخَّصًا واضحًا جدًّا عن تطلّعات الحزب، وعن التّبعات التي يُمكن أن يُفضي إليها تحقيقها.

في ما يتعلّق بأوّل أيّار 1926، دعت هذه الصّحيفة أعضاء الحزب إلى:

«المطالبة بفرض الضّريبة على رؤوس الأموال الكبيرة، وتأميم المصارف، والاحتكارات الرّأسماليّة، فهي التّدابير الوحيدة القادرة على جعل الأغنياء يدفعون الثّمن.

... فالسّلام الفوريّ الّذي حصل في المغرب وسوريا، ما كان ليحصل لولا الضّغط الّذي مارسته طبقة البروليتاريا على الحكّام الّذين يعملون في خدمة المصارف المستعمِرة».

يُلحظ اليوم انتشار النّظريّات الاشتراكيّة في كلّ مرافق الحياة اليوميّة، وصولًا إلى البلديّات التي تنزع أكثر فأكثر إلى التّدخّل في الصّناعات وفي التّجارة المحليّة. لقد لوحظ وبحقّ أنّ الاشتراكيّة البلديّة هي أكثر خطورة من اشتراكيّة الدّولة، بالنّظر إلى تسلّل الشّيوعيّة إلى العديد من المناطق الحضريّة أو الرّيفيّة.

يُمثّل العصر الحاليّ حقبة ارتيابات ناجمة عن الصّراعات التي تقسم الشّعوب والأحزاب السّياسيّة لكلّ شعب.

وسوف يستمرّ هذا الأمر، أُكرِّر، ما دام الإنسان المعاصر لم يختبر مثلًا أعلى جديدًا يمتلك، على غرار المثل العليا القديمة، سلطة قيادة الحياة، وخلق الإرادات القويّة، والعمل الدّؤوب. بيد أنّ المثل الأعلى الاشتراكيّ، بما هو مثل مُدمِّر، لن يمارِس دورًا كهذا.

حقيقة الأمر أنّ الاشتراكيّة هي أخطر بكثير لجهة الذّهنيّة الثّوريّة، والحسودة التي تنشرها، منها لجهة العقائد التي تقترحها. في الواقع، حالما تتحقّق هذه العقائد، ستصطدم بحائط الضّرورات الاقتصاديّة، والاستحالات السّيكولوجيّة التي ستكشف عن ضعفها، لكنّ الذّهنيّة الجديدة ستبقى.

إلى ذلك، يصبّ المنظِّرون، غير القادرين على فهم دونيّة عقائدهم، جامّ غضبهم على النّاس، ويذبحون بالآلاف كلّ أولئك الّذين ينسبون فشلهم إليهم.

في السّياسة، لا تملك الاستدلالات إلّا تأثيرًا ضعيفًا، وحدها التّجارب المتكرِّرة التي تؤثّر في روح الشّعوب. لكنّها، للأسف، لا تؤثّر إلّا بعد أن تتكرّر بما فيه الكفاية، وتُكلِّف كثيرًا. فالتّجارب الاشتراكيّة، التي قوّضت روسيا، وكادت تُقوِّض إيطاليا، سُبِقَت بتجارِبَ أخرى مُكلفة للغاية. وخير شاهد ما حصل في فرنسا، وتحديدًا في العامين 1818 و1871.

في العام 1818، كلّفتنا هذه التّجارب ثورةً، وتقسيم فرنسا إلى أحزاب متنافسة، وختامًا، تصويت سبعة ملايين لدكتاتور قاد فرنسا لاحقًا إلى غزو خطير. إلى ذلك، كان من تبعات ولادة الكومونة الاشتراكيّة في العام 1871 ارتكاب الكثير من المجازر، وحرق أجمل معالم العاصمة وآثارها.

غدت الاشتراكيّة، وشكلها المتطرِّف، ونعني الشّيوعيّة، خطيرَين للغاية. لقد جرى تقدير عدد النّاخبين الشّيوعيّين في فرنسا بـ800 ألف، وهو رقم أكبر بكثير من اليعاقبة المتمرّدين. ولذلك كان قادة البلشفيّة الموسكويّون محقّين عندما صنّفوا الحزب الشّيوعيّ الفرنسيّ في المرتبة الثّانية من حيث قوّته.

أمّا الحزب الرّاديكاليّ،(81) الّذي لعب دورًا كبيرًا في فرنسا من بعد أن توحَّد، فقد زحف رويدًا رويدًا باتّجاه المقطورة الاشتراكيّة، التي تُعَدّ قطب جذب كبير للنّفوس الضّعيفة. والحال أنّه لم يكن بإمكان هذه النّفوس أن تتجاوز معتقدًا قادرًا على توجيه أفكارها.

من دون شكّ، ينتهي الأمر دائمًا بالقوى السّلفيّة، كما رأينا سابقًا، إلى وضع حدّ للتّقلّبات الخطيرة للجماهير. لكنّ هذه القوى تؤثّر ببطء، ولن يكون بإمكانها أن تمنع أعمال التّخريب التي قد تُحدثها التّأثيرات المتطرِّفة.

نحن نخشى كثيرًا، اليوم، أعداء الخارج، لكن ينبغي لنا أن نخشى أكثر أعداء الدّاخل.

فالاشتراكيّون، والشّيوعيّون، والنّقابيّون، على الرّغم من أنّهم يُمثّلون نظريّات مختلفة، فإنّهم يتوحّدون في وجه النّظام الاجتماعيّ القائم. لقد حطّموا هذا النّظام في روسيا، وكادوا يُدمّرونه في إيطاليا، وإسبانيا، واليونان.

كان من السّهل للغاية توقّع تبعات التطوّر الاشتراكيّ منذ أمدٍ بعيد، إذ إنّ هذه العقيدة لم تظهر اليوم، بل ظهرت في العالَم تحت أشكال مختلفة، كما رأينا سابقًا. لقد أشرت في

مؤلَّف قديم إلى أنّ الحروب الاجتماعيّة أدّت إلى سقوط الإمبراطوريّة الرّومانيّة، ومهّدت لقدوم القياصرة، وذلك من بعد أن قادت اليونان إلى العبوديّة. في هذا السّياق، كتبتُ أقول:

«سوف يُضطّر الكثير من الشّعوب إلى تحمّل المرحلة الاشتراكيّة المروِّعة. والحال أنّها لا تستطيع أن تستمرّ نتيجة تعسّفها الشّديد. نسأل أنفسنا أحيانًا، كيف تحمّل الرّومان في زمن الأباطرة، بسهولة، وحشيّة هؤلاء المستبدّين. الواقع أنّهم هم أنفسهم أيضًا مرّوا بالصّراعات الاجتماعيّة، والحروب الأهليّة، وفقدوا طبعهم الخاصّ. لقد وصل بهم الأمر إلى اعتبار هؤلاء الطّغاة الوسائل الأخيرة للخلاص. وإذا ما تسامحوا معهم فذلك لأنّهم لم يعرفوا كيف يستبدلونهم. الحقّ أنّهم لم يُسْتَبدَلوا. الجدير بالذّكر أنّ ما حدث بعدهم كان التّحطّم النّهائيّ تحت أقدام البرابرة، أي نهاية العالَم. الواقع أنّ التّاريخ يدور في الدّائرة نفسها».

# الفصل الثّالث: الذّهنيّة البلشفيّة

بعيدًا من النّظريّات التي تدعم البلشفيّة في بعض الأحيان، والتي لم تتناهَ إلى مسامع غالبيّة أتباع هذه العقيدة، فإنّ البلشفيّة تُشكّل ذهنيّة خاصّة منتشرة للغاية اليوم.

وعليه، نتساءل أين تكمن قوّة هذه الذّهنيّة المنتشرة للغاية، إذا كانت عقيدتها السّياسيّة لم تنتشر إلّا في روسيا، وإذا كان اجتياحها بعض الدّول المُتحضِّرة، مثل المجر، لم يدم طويلًا، إذ سرعان ما كانت تُدْحَر من قِبَل أولئك الّذين قَبِلوا بها؟

تملك الذّهنيّة البلشفيّة سمات رئيسة أبرزها: روح التمرّد المستمرّ ضدّ كلّ أشكال السّلطة، باستثناء سلطة قادة العقيدة، والكراهية الحاسِدة لكلّ عناصر التّفوّق، والعودة إلى الغرائز البدائيّة، والرّغبة الشّديدة في إزالة كلّ القيود المجتمعيّة، بعنف، لا سيّما أنّ الحضارة تفرض هذه القيود لكي تُعارض تلك الغرائز.

هذه الذّهنيّة، الآخذة في الانتشار يومًا بعد يوم، تجلّت بالفعل منذ بدايات حقبة السّلام. لقد أمكن لي أن أُكوِّن المفهوم الأوّل عنها عندما اختار آلاف النّاخبين الباريسيّين نقيبًا بلشفيًّا ليمثّلهم في البرلمان، من دون أن يتبيّنوا شيئًا من عقيدته.

كنتُ أجهل في تلك الحقبة ماذا تعني البلشفيّة، وما تنطوي عليه، لذا بحثتُ عن معرفة ما أجهله، عشيّة تلك الانتخابات، من صديق لي، وهو فيلسوف عجوز.

للأسف، كان هو أيضًا يجهل بمقدار جهلي، لكنّه أكّد لي أنّني إذا رغبتُ في تناول العشاء معه، فإنّ بإمكان عبارات خادمته وتعليقاته، التي أصبحت متمرِّدة للغاية مؤخَّرًا، أن تُزوّدني بما أُريد معرفته.

لقد زوّدتني تعليقاتها بالفعل بما أحتاج إليه. فعلى الرّغم من أنّها لم تكن متعلِّمة كثيرًا، فإنّ هذه الخادمة البلشفيّة أَسْدَتني، في إجابتها عن تساؤلاتي، نصائح حكيمة.

قالت لي: «لتترك كتبك جانبًا، ولتشاهد اضطرابات الحياة. الكتب تتحدّث عن أشياء ميتة، ولذلك العلماء الّذين يُنفقون وقتهم في قراءتها لا يعرفون الكثير عن العالَم. انظر حولك، وربّما تتوصّل إلى فهم البلشفيّة».

هذه النّصائح، على الرّغم من شكلها الأدبيّ البسيط، تنطوي على مخزونِ حقيقةٍ سارعتُ إلى أخذه بالحسبان.

الحقّ أنّ الصّدفة خدمتني كثيرًا. في اليوم التّالي، التقيتُ في منزل صديقٍ لي كان يرمّم شقّته بمجموعة من العمّال يتبادلون الأفكار الثّوريّة حول الانتخابات الأخيرة، والحقّ أنّها كانت أفكارًا تفتقر إلى الرِّفق بأرباب العمل الّذين يوظّفونهم. تدخّلتُ في حديثهم، وقلتُ بصوت مرتفع لأكثر المتحدّثين في الفرقة إثارة للجلبة، قلت له إنّ البلشفيّة كانت، من دون شكّ، وفقًا لادّعاءات دعاة هذه العقيدة، تطبيقًا لمبادئ كارل ماركس.

كارل ماركس؟ لا أعرفه. لا بُدّ أنّه أحد ملوك الألمان الّذين خُلِعوا حديثًا. عُدنا بغير بحاجة إلى الملوك والبرجوازيّين. ينبغي للعامل الآن أن يغدو برجوازيًّا بدوره. تلكم هي البلشفيّة.

هذا الحكم، المختصَر من دون شكّ، كان واضحًا بما يكفي لكي يجعلني أستمرّ في أبحاثي.

الحقّ أنّ هذه الأبحاث كانت مفيدة، إذ ظهر لي بوضوح من خلالها بنية الذّهنيّة البلشفيّة: كراهية العامل لربّ العمل، وعدائيّة الموظَّفين لرؤسائهم، وغيرة مَن هم أقلّ ممّن هم أرفع شأنًا، وتحرير الغرائز من القيود المجتمعيّة التي فُرِضت قديمًا، واحتقار السّلطة أينما وُجِدت.

ينجم بوضوح عن هذه الملاحظات، وعن ملاحظات أُخرى تحمل الطّابع نفسه، أنّ البلشفيّة وضعت اسمًا جديدًا لحالة ذهنيّة قديمًا للغاية، إذ إنّها تجلّت بالفعل حتّى من قبل الطّوفان. فقابيل الأسطورة التّوراتيّة الّذي قتل أخاه بسبب غيرته من رخائه هو السَّلَف الحقيقيّ للبلشفيّين. فقابيل تعامل مع هابيل تمامًا كما تعاطى لينين لاحقًا مع البرجوازيين الّذين يتميّزون بثروتهم أو ذكائهم.

لقد أوجزنا للتوّ الذّهنيّة البلشفيّة. لنقل، الآن، بضع كلمات عن العقيدة.

يبدو، في الظّاهر، أنّ هذه العقيدة جُدِّدَت عن طريق نظريّات كُتُبيّة، لكنّها، في الواقع، ليست سوى عودة بسيطة إلى شيوعيّة العصور الأولى.

في الحقيقة، تُمثِّل هذه النّظريّات الحاجة إلى ثورات مُظَفَّرَة من أجل إيجاد تبرير عقليّ لأعمالها العنفيّة. فالعقد الاجتماعيّ لجان جاك روسّو، الّذي علّمَنا أنّ الإنسان وُلِد طيّبًا بطبعه لكنّ المجتمعات هي التي أفسدته، كان كتاب روبسبيير المقدَّس، وساعد على عقلنة المقصلة. قل كذلك عن كتاب اليهوديّ كارل ماركس، الّذي غالبًا ما كانت أطاريحه صبيانيّة شأنها في ذلك شأن أطاريح روسّو. لقد أصبح الكتاب المقدَّس للينين وشركائه. الحقّ أنّه سمح بتبرير المجازر الممنهجة بحقّ المفكّرين، والنّهب العام للثّروات.

في الواقع، لم تنشغل الجماهير المتمرِّدة قطّ بالأنظمة. إلى ذلك، لا توجد إلّا من بعيد جدًّا علاقات بين الأيديولوجيا الماركسيّة، وتنظيم الجمهوريّات السّوفياتيّة. الحقّ أنّ الشّيوعيّين الرّوس لا يعرفون جيّدًا الكاهن الأكبر كارل ماركس، قل كذلك عن الشّيوعيّين الفرنسيّين الّذين لا يعرفونه البتّة. لقد اعترف واحد منهما، في البرلمان الفرنسيّ، بأنّه لم يقرأ أبدًا سطرًا واحدًا من السّطور الّتي خطّها هذا المنظِّر الشّهير. ينبغي لنا أن نُثنيَ عليه، لأنّ كتب كارل ماركس تنطوي على عدد كبير من المزاعم والتّأكيدات التي كذّبتها الوقائع في ما بعد، بحيث تكفي قراءتها لتُشفي كلّ عقل مُحايد ونزيه من الشّيوعيّة.

يبدو من غير ذي طائل التّركيز على النّظريّات الشّيوعيّة، لذا سنكتفي بالإشارة باختصار إلى الأشكال الّتي اتّخذتها البلشفيّة في الممارسة العمليّة.

من النّاحية النّظريّة، يبدو أنّ البلشفيّة الشّرقيّة تُمثِّل السّيطرة الكليّة للوجود المجتمعيّ على الوجود الفرديّ. في روسيا، ثمّة هرم من مجالِس العمّال، المسمّاة مجلس السّوفيات، (82) يمتدّ من القرى إلى لجنة التّوجيه المركزيّة. لقد أقصت هذه المجالسُ البرجوازيّين، والأساتذة، وكلّ المثقّفين.

إنّ دكاتوريّة البروليتاريا الظّاهرة هذه ليست في الحقيقة سوى وهم. فالآلة الحكوميّة تبقى برمّتها مُدارة من قِبَل عدد صغير من القادة الّذين يملكون سلطة مُطلقة لكي يلغوا كلّ الحريّات، من مثل حريّة الرّأي، وحريّة الصّحافة تحديدًا. في هذا السّياق، يكفي إطلاق النّار لفترة وجيزة حتّى يُقضَى مباشرة على أيّ محاولة لإظهار المعارضة.

علاوة على ذلك، البلشفيّة الرّوسيّة لا تعدو كونها استمرارًا للنّظام القيصريّ القديم. إنّها تستمرّ للأسباب نفسها التي دعمت ذاك النّظام القديم. فروسيا نصف البربريّة، الّتي تتكوّن من أعراق مختلفة، لا تستطيع، على غرار كلّ الدّول الآسيويّة، أن تحتفظ بوَحدة ما إلّا بين يدي قادة ذوي سلطات مطلقة.

إنّ الاختبار الحاليّ للشّيوعيّة في روسيا ليس الاختبار الوحيد في الشّرق. فالصّين، تحديدًا، اختبرت الشّيوعيّة مرّاتٍ كثيرة في القرن الحادي عشر، تحت حكم الإمبراطور Tocheng - Tsong، حيث أُلغِيَتِ الملكيّة الفرديّة، وقُضِيَ على رؤوس الأموال، وصُودِرَت الأراضي والشّركات الصّناعيّة.

فبعد خمسة عشر عامًا من التّجربة، أطاح العمّال والمزارعون بالنّظام الّذي مسّتهم، في نهاية المطاف، مساوئه الخطيرة. فالأرض والصّناعة لم يجلبا شيئًا، بسبب عدم اكتراث المستثمرين، إذ لم يكونوا مدفوعين بمصالح شخصيّة.

وعليه، كادت تجربة جديدة للشّيوعيّة أن تُقوِّض الصّين في منتصف القرن الأخير. لقد استمرّت تمامًا خمسة عشر عامًا، أدركت الجماهير نفسها، في نهايتها، أنّ مأساتهم ازدادت عوضًا عن أن تتناقص بفضل النّظام الجديد.

إذا نزعت الشّيوعيّة إلى الانتشار لدى بعض الأمم الكبرى، فذلك لأنّ الحضارات، كما أوضحتُ سابقًا، خلَّفَت وراءها، نتيجة تعقّدها، عددًا كبيرًا من الكائنات غير القادرة على التّأقلم معها، والرّاغبة، من ثمّ، في الإطاحة بها.

وبعد، غالبًا ما لوحِظت ظواهر مماثلة في التّاريخ. فعندما يتوصّل عرق أدنى، مُصادفة، إلى السّيطرة عن طريق القوّة على حضارة راقية جدًّا، فإنّ هذه الأخيرة تُدمَّر بعنف. لقد رأينا هذا الأمر، تحديدًا، عندما أفنى البرابرة الحضارة الرّومانيّة في بلاد الغال، الحضارة التي كانت راقية جدًّا بالنّسبة إليهم. ورأيناه أيضًا في أيّامنا هذه، عندما قام زنوج Saint - Domingue وHaiti بإفناء الحضارة التي جلبها الأوروبيّون لهم، من دون أن يتمكّنوا (أي الزّنوج) من إرساء دعائم حضارة أخرى.

الحقّ أنّ ظواهر أخرى مماثلة تتجلّى حاليًّا في روسيا. يُفسِّر مُراقِب نَبيه، M.Chessin، كيف أنّ النّظام الشّيوعيّ قاد حربًا وحشيّة ضدّ المثقّفين. لقد أدلى بهذا البيان الّذي نشرته صحيفة الـPravda:

«طرَحَ الفلّاحُ الرّوسيّ الشّرقيّ جانبًا نظريّات العلم الغربيّ، وأجبر العالِم على أن يحنيَ ظهره للعامل الأسود القذِر».

إلى ذلك، صرَّح واحدٌ من كبار أساتذة العقيدة الشّيوعيّة، زينوفياف Zinovief، أنّه يرى «في كلّ مثقّف عدوًّا للسّلطة السّوفياتيّة».

بسبب هذه الذّهنيّة جرى استبعاد تعليم التّاريخ، والفلسفة، والأخلاق من المدارس.

«بحسب الكاتب المذكور أعلاه، حَظَر أسياد السّلطة، تحت طائلة عقوبات نموذجيّة، في المكتبات العامّة، مؤلّفات أفلاطون، وأرسطو، وديكارت، وكانط، وسبنسر، إلخ. الحقّ أنّ كبار الكتّاب الرّوس المعاصرين جرى استبعادهم».

بحسب الكاتب نفسه، أصبح يجري اختيار أساتذة الجامعات من بين تلاميذ مدارس العمّال، الّذين لا يملكون أيّ معارف أخرى سوى قواعد الحساب الأربع، وبعض أساسيّات النّحو.

الواقع أنّ روسيا عادت مجدّدًا إلى الأشكال الدّنيا للحضارة، الأشكال التي يحلم بها كلّ من هم غير أسوياء.

لقد لخّصنا للتوّ الذّهنيّة البلشفيّة وتطبيقاتها.

حقيقة الأمر أنّ العقيدة البلشفيّة خطيرة، لكنّ الذّهنيّة التي تستلهمها أخطر أيضًا. إذا استمرّت هذه الذّهنيّة في في غزو العالَم، فإنّها ستأتي حتمًا على كلّ المبادئ التي تُعَدّ أساس الحضارات الكبرى.

العقيدة البلشفيّة في طور تدمير الرأسمال الماديّ للشّعوب، لكنّ الذّهنيّة البلشفيّة تُهدّد رأسمالٍ أخلاقيًّا أثمن من كلّ الثّروات العابرة، رأسمالٍ تطلّب قرونًا طويلة من بذل الجهود لكي يتكوّن.

# الفصل الرّابع: نضالات الاشتراكيّة والحركة النّقابيّة ضدّ الحضارة

يُمكن النّظر إلى الاشتراكيّة، وإلى شكلها الأخير الّذي اتّخذته ونعني الشّيوعيّة، من ثلاثة أوجه مختلفة: 1 ـ بوصفها دينًا، 2 ـ وبوصفها عقيدة سياسيّة، 3 ـ وبوصفها حالة ذهنيّة.

لقد درسنا في الفصل السّابق الحالة الذّهنيّة. فالعقيدة الاشتراكيّة هي، إلى حدّ كبير، تلك التي صاغها قديمًا كارل ماركس. أمّا الدّين فتكوّن بفعل التّطلّعات إلى جنّة أرضيّة وُعِد بها البروليتاريّون: المصنع للعمّال، والمنجم لعمّال المناجم، والسّلام الّذي تفرضه المؤتمرات الدّوليّة للعمّال. فالمزيد من الحروب، يعني المزيد من البؤس.

يُمثِّل معتقد سيّاسيّ أو دينيّ كتلةً يستخرج كلّ واحدٍ منها ما يتناسب مع طبيعة عقله، ولذلك نجد أنّ المعتقدات السّياسيّة والدّينيّة بانتقالها من شعب إلى آخر تتحوّل إلى حدّ يُصبح معه من المحال، في بعض الأحيان، التعرّف إليها. وخير مثال على ذلك البوذيّة، التي كانت في البداية ديانة تفتقر إلى الآلهة، لكنّها أصبحت، بانتقالها من الهند إلى الصّين، ديانة متعدِّدة الآلهة. الواقع أنّ الكتب المقدَّسة، أو حُرّاس المعتقد الأصليّ، تبقى مقدَّسة دائمًا على الرّغم من أنّها أصبحت مختلفة تمامًا عن المعتقد الّذي قامت بداية بترجمة عقيدته. النصّ الأصليّ لم يتغيَّر، لكنّ هذا النّصّ لا تربطه الآن أيّ علاقة مع المفاهيم الّتي مثّلها قديمًا.

عند تطبيقنا هذه الملاحظات على البلشفيّة، نستخلص أنّها تُمثِّل، بحسب البلدان، أفكارًا مختلفة للغاية لا تربطها غالبًا أيّ علاقة مع الماركسيّة الّتي ظلّت، نظريًّا، إنجيلها المقدَّس.

تُشكِّل الشّيوعيّة ببساطة، لدى غالبيّة الشّعوب، ميلًا نحو تحرير الغرائز البدائيّة، وحاجة مُلِحّة لتدمير النّظام الاجتماعيّ القائم، والرّغبة، بالنّسبة إلى الفقراء، في السّيطرة على ثروات الأغنياء.

في فرنسا، كما في روسيا، لا يُخفي الشّيوعيّون برنامجهم. فالحرب الأهليّة العامّة تُشكّل، بالنّسبة إليهم، الخطوة التّمهيديّة الضّروريّة.

في هذا السّياق، لحظت صحيفة l'Humanité هذا الأمر بشكل مميَّز، من خلال السّطور الآتية الّتي خُطَّت في آذار العام 1927، بصدد مشروع قانون يتعلّق بإعادة تنظيم الجيش:

«بالنسبة إلينا تُعَدّ مسألة التّنظيم العامّ للأمّة من أجل زمن الحرب مسألةً في غاية الوضوح.

... يتعلّق الأمرُ، حصرًا، بالنّسبة إلينا، بتنظيم تحوّل الحرب الاستعماريّة إلى حرب أهليّة، وإعداد التّعبئة العامّة للجيش من أجل خدمة البروليتاريا».

حقيقة الأمر أنّ البلشفيّة، التي عرف اليونانيّون القدامى أسسها بالفعل، كانت السّبب الرّئيسيّ في الصّراعات الاجتماعيّة التي أفضت، في نهاية المطاف، إلى عبوديّتهم.

سواء أكانت البلشفيّة قديمة أو حديثة، فإنّها لا تؤَسَّس ولا تستمرّ ردحًا طويلًا من الزّمن إلّا باللجوء إلى دكتاتورية قاسية للغاية. ها هي روسيا تُزوّدنا اليوم بمثال جديد. فأتوقراطية القادة هناك استبداديّة إلى حدّ يُمكننا القول معه وبحقّ إنّ دكتاتوريّة البروليتاريا كانت، في الحقيقة، دكتاتوريّة ممارَسة على البروليتاريا.

بهذا المعنى، لخّص السيّد M. Jules Sauerwein، من خلال العبارات الآتية، فظاعة النّظام السّوفياتيّ.

«يقود هذا النّظام إلى تدمير الطّاقات المحفِّزة للجهد، فالأفراد يخضعون من خلاله لتنظيم صارم ولشروط تفرض عليهم حياة يُنزل فيها كلّ شيء إلى مستوًى متدنٍّ للغاية. لقد أُلغِيَت كلّ مظاهر الفرح، ما خلا بعض المظاهر الفنيّة في المدن الكبرى. والآمال ضاعت سدًى، والطّموحات حُظِرَت. عاد لا يوجد نخبة، أي عادَ لا يملك أيُّ شخص، انطلاقًا من جهده الخاصّ، الحقَّ في الوصول إلى السّلطة، وفي تعزيز قدراته، والحصول على السّعادة الفرديّة. فالاغتناء أصبح جريمة، والارتفاع فوق مستوى الآخرين بات خيانة.

... إذا استمرّت الأمور على هذا النّحو، فإنّ أوروبا ستعود تدريجيًّا إلى العصر الوسيط. بالفعل، عوضًا عن التّوجّه إلى مؤسّسات الدّولة الكبرى، بنى الكثير من النّاس بأيديهم منازل حقيرة، واستبدلوا النّوافذ بأيّ شيء آخر، وصنعوا بعض الأشياء الأساسيّة على طاولة حرفيٍّ موقّتة. فالمزارعون لا يعملون أبدًا إلّا من أجل كسب قوتهم».

الحقّ أنّه ما من شعب متحضِّر يتحمّل طويلًا نظامًا كهذا. إذا أمكن له أن يستمرّ في روسيا، فذلك لأنّ «هذا البلد الآسيويّ الكبير، ونصف البربريّ»، كما قال ميشيليه Michelet، «طبَّق على الدّوام مبادئ الشّيوعيّة» في كثير من المناطق والأراضي الّتي كان كلّ سكّان القرى يملكونها، منذ زمن طويل، بشكل مَشاعيّ مُشترك.

والحال أنّه لا تُجَنَّد الشّيوعيّة من عالَم العمّال الأمّيّ فحسب، بل كذلك، الأمر الّذي ذكرته مرارًا، من جيش غير المتكيّفين الكبير، أي من الكائنات الّتي تعيش في حضارة مُعَقَّدة للغاية بالنّسبة إليها، أو الكائنات التي تخال أنّ لديها ما تشتكي منه.

يُشكِّلُ الأفراد السّاخطون على مصيرهم جزءًا كبيرًا من هذا الجيش، والحقّ أنّهم ضحايا خلل وراثيّ: مرضى الزُّهريّ الوراثيّ، وأبناء مُدمني الخمور، إلخ، إنّها كائنات غير مكتملة تسمح رعاية الطّفولة المبكرة بجعلها تتطوّر، وإن بصعوبة. لقد أمكن لنا أن نُلاحظ، خلال انتصار البلشفيّة في المجر، أنّ الشّيوعيّين المصابين بخلل وراثيّ أظهروا ضراوة لا ترحم إزاء ضحاياهم، وأزهقوا أرواح أكثر المواطنين شهرة من جرّاء استخدام أساليب التّعذيب المروِّعة.

بموجب القانون المذكور أعلاه، والمشترَك بين جميع المعتقدات، تحوّلت الشّيوعيّة بفعل تغيير البيئة. لقد أصبحت، في الصّين والهند، ضربًا من القوميّة، مُتَبَنِّية الشِّعار الآتي: «الصين للصّينيّين، والهند للهنود، ونبذ التّأثيرات الخارجيّة».

يُمكن للمثل العليا الدّينيّة والسّياسيّة لأيّ شعب إمّا أن تتعايش بالتّوازي بعضها مع بعض، أو أن تندمج، أو أن تدخل في صراع.

الحقيقة أنّ التّاريخ القديم أو الحديث يُزوّدنا بأمثلة كثيرة عن هذه الوضعيّات المختلفة. في روما القديمة، كما في إنجلترا الحديثة، تعايش المثالان الدّينيّ والسّياسيّ معًا من دون أن يتجابها. في العصر الوسيط، سيطر مثل أعلى دينيّ قويّ للغاية في أوروبا على المثل الأعلى السّياسيّ الّذي كان ضعيفًا للغاية. في أيّامنا هذه، دخل المثل الأعلى الدّينيّ في نزاع مع المثل الأعلى السّياسيّ لدى الكثير من الشّعوب، وذلكم ما شكّل بالنّسبة إليهم سببًا كبيرًا للضّعف. ينتهي الأمر بالمثل العليا المتناقضة، بصفة عامّة، إلى التّسبّب في صراعات طويلة الأجل. كانت أوروبا مُلَطَّخة بالدّماء بفعل صراعات كهذه في عصر الحروب الدّينيّة. حاليًّا، دخلت الرّاديكاليّة في صراع ضدّ المثل الأعلى الدّينيّ الإكليريكيّ، ونجمت عن ذلك سلسلة طويلة من الاضطهادات.

لقد انتهى العالَم بأن أصبح غير مكترث للغاية بالمسائل الدّينيّة، لكنّه شهد، في المقابل، منذ قرن تجدّد صراع الجماهير ضدّ النّخب، الأمر الّذي غالبًا ما أثار حفيظة الشّعوب على امتداد تاريخها. الواقع أنّ هجمات الاشتراكيّة والشّيوعيّة ضدّ النّظام القائم ما هي إلّا تجلّيات غير مباشرة لهذا الصّراع الكبير.

من جرّاء الصّراع بين النّخبة الحاكمة، والجماهير الخاضعة للاشتراكيّة نُسِج تاريخنا، جزئيًّا، منذ قرن.

إنّ مراحل هذا الصّراع هي دائمًا نفسها، ويُمكن أن تُختصَر على النّحو الآتي:

بعد أيّ ثورة، ينتصر العدد، لكن لمّا كان هذا الانتصار يترافق مع فوضى، وخراب، تظهر ردّة فعل، وتنبثق سلطة دكتاتوريّة تضع حدًّا للفوضى. ينتهي الأمر بهذه السّلطة، التي لا تخضع للرّقابة، بارتكاب أخطاء سيّاسيّة تتسبّب في سقوطها.

تعاقبت هذه المراحل المختلفة في فرنسا، منذ قرن، وذلكم ما أشرنا إليه سابقًا.

يخشى رجال الدّولة السّلطة كثيرًا، بخلاف الحركة النّقابيّة التي لا تُثير قلقهم. مع ذلك، أُكرِّر، تُعَدُّ هذه الحركة خطيرة أيضًا شأنها في ذلك شأن الاشتراكيّة. فتطوّراتها اليوميّة هي في الواقع أسرع وأكثر تدميرًا. فالإضرابات القديمة لسعاة البريد، وعمّال السّكك الحديد في فرنسا، وإضرابات عمّال المناجم في إنجلترا، أظهرت جميعها المخاطر التي يُمكن للحركة النّقابيّة أن تُهدِّد بها حياة الأمم. الاشتراكيّة خطر بعيد، أمّا الحركة النّقابيّة فهي خطر داهم.

مرّة جديدة نعثر على الخلاصات التي صغناها سابقًا، ومفادها أنّ الصّراعات الدّاخليّة أصبحت أكثر تهديدًا من الصّراعات الخارجيّة الّتي عُقِد من أجل مواجهتها عدد كبير من المؤتمرات غير المجدية.

# الفصل الخامس: التّصدّي للشّيوعيّة

ينبغي للـ«فرنسي المتوسِّط» غير المطّلع كثيرًا على خبايا المصلحتين العامّة والخاصّة الّتي تُحرِّك رجال الدّولة، ألّا يفهم شيئًا من تبدّلات السّياسة المعاصرة.

اعترف وزير إنجليزيّ في Gènes بحكومة روسيا الشّيوعيّة، وبعد بضع سنوات، قطع وزير إنجليزيّ أيضًا كلّ العلاقات الدّبلوماسيّة مع هذه الحكومة.

التغيّرات نفسها لوحِظت في فرنسا. امتلك البلشفيّون سفارة فيها، وكان الشّيوعيّون البسطاء يتحالفون في بعض الأحيان مع المتطرّفين في الانتخابات. من ثمّ، تغيّر كلّ شيء. «الشيوعية هي العدوّ» أكَّد مُتطرِّف اشتراكيّ أصبح وزيرًا، وما لبثت الحرب أن أُعلِنَت على الحلفاء القدامى.

أن تُصبِح الشّيوعيّة هي العدوّ، ذلكم، لعمرنا، أمر من الصّعب أن نشكّ فيه. لكن أن يحتاج بعض السّياسيّين وقتًا طويلًا لكي يتبيّنوا هذا الأمر، فذلك يُظهر إلى أيّ حدّ غير قابل

للتّصديق يُمكن لبعض رجال الدّولة أن يدفعوا العمى.

في الواقع، لم يُخفِ الشّيوعيّون أبدًا نياتهم التّدميريّة. أكّد أحد قادتهم، أمام البرلمان، أنّ العداء يزداد في كلّ مكان بين البرجوازيّة وطبقة العمّال. وهذه الطّبقة الأخيرة، التي سئمت الاستغلال، تحلم بتدمير الطّبقات الحاكمة من خلال حرب أهليّة لا تعرف الرّحمة.

ها هم الشّيوعيّون يتحضَّرون للانتقال من النّظريّة إلى الفعل. فالكثير من الصّحف، وتحديدًا La Revue de Paris (تاريخ 15 أيّار 1927)، أشارت إلى احتشاد جيش حقيقيّ من الشّيوعيّين بالقرب من باريس، جيش يبلغ تعداده 12 ألف رجل، يحتفظ بكمّيّة كبيرة من الموادّ الحربيّة. يلبس جنود هذه الميليشيا زيًّا مُوَحَّدًا، يقودهم ضبّاط يعملون تحت إمرة هيئة أركان.

مع فرقة ثوريّة مُنَظَّمة جيّدًا، يُمكن أن يُطاح بالحكومة فجأة من خلال رأيٍ يُمثّله أشخاص مختصّون، وبمعيّة انقلاب شبيه بانقلاب العام 1871 الّذي استبدل سلطة بعض المتمرّدين بسلطة M.Thiers.

نحن نعلم بالحرائق، والمجازر، التي أعقبت سيطرة الكومونة على باريس. يبدو من غير ذي طائل التّركيز على دروس الماضي هذه، فالذّاكرة العاطفيّة هي قصيرة للغاية لكي يستطيع رجالُ الدّولة العاديّون أن يتأثّروا بذكرى حوادث تعود إلى نصف قرن مضى. إنّ مصالحهم الانتخابيّة المستقبليّة أعمتهم إلى حدّ جعلتهم عاجزين عن تبيّن مخاطر الوقت الرّاهن.

إلى ذلك، جاء اكتشاف خطر الشّيوعيّة، فجأة، من قِبَل وزير الدّاخليّة، متأخِّرًا. الواقع أنّ الدّعاوى القضائيّة المقترحة من أجل التّغلّب على الخطر لها قيمة ضعيفة للغاية.

لكن لماذا هذا الضّعف المتمادي للراديكاليّين إزاء الشّيوعيّين؟ لا يعود هذا الأمر إلى أنّ هذين الحزبين يتحالفان غالبًا في الحملات الانتخابيّة فحسب، بل يعود كذلك إلى أنّ تساهل الحزب الرّاديكاليّ له أسباب سيكولوجيّة أعمق.

الشّيوعيّة هو المصطلح النهائيّ والحتميّ للراديكاليّة. في الواقع، يقتصر دورها على تطوير نتائج مبدأ المساواة.

كتبت الـTemps: «تُلقَى الشيوعية تمامًا في تراث العام 1793، فهل فعلت شيئًا سوى أنّها استنسخت ثورتنا، وجعلتها تتّخذ شكلًا أكثر تدميرًا، وأكثر دمويّة؟... إنّ العقيدة المحض لثوريِّي العام 1793، هي نظريًّا تحرير الفرد، ولكنّها عمليًّا تحطيم له تحت وطأة الجماعة... إلى ذلك، تتكلّم أفعال الرّاديكاليّين بوضوح أكبر من كلماتهم نفسها... وهم دائمًا ما يذهبون إلى اليسار، كما كان أسلافهم يفعلون... فبذريعة الدّفاع عن الفردانيّة، ينحازون إلى جانب الجماعيّة الأكثر احتقارًا لحقوق الإنسان، بل إلى جانب الشّيوعيّة نفسها. فخلف عقائدهم الخاصّة، بالنّسبة إلى يعاقبة اليوم كما يعاقبة الأمس، توجد العقيدة الأساسيّة، والفكر الموجِّه والملهِم، ونعني العقد الاجتماعيّ الّذي يستوجب تغرّب الفرد التّام عن ذاته، ونقل كلّ حقوقه إلى المجتمع. فالمحاصيل للجميع، كما قال روسّو، والأرض ليست ملكًا لأحد، ذلك بأنّ كلّ واحد منّا يتشارك أمواله وممتلكاته مع الجميع، ناهيك بكون حياته وكلّ طاقته تخضعان للتوجيه الأعلى للإرادة العامّة... فالعقد الاجتماعيّ هو الشّريعة، والأنبياء هم الرّاديكاليّون اليساريّون. وإذا سمحنا لهم بهدم كلّ الهيئات الاجتماعيّة التي هي السّبيل الأفضل للوصول إلى الحريّة الفرديّة، وحريّة التّملّك، وحريّة التّصرّف، وحتّى حريّة التّفكير، ضدّ الاعتداءات العنيفة لحزب يتصرّف في سلطة الدّولة كما يحلو لهم. الحقّ أنّ الفرد هو الّذي يسقط في فخّ العبوديّة... علاوة على ذلك، إنّ «فكرة روبسبيير» الّتي لم توجد إلّا ليُفكّر فيها من قِبَل شخص آخر غيره، ونعني روسّو، هي فكرة راديكاليّينا الاشتراكيّين».

على الرّغم من أنّ الحكم الّذي سبق الثّورة كان مختصرًا، فإنّنا لا نستطيع أن ننفي أنّ الشّيوعيّة تتأتّى من فكرة المساواة. ففي سعي الثّورة إلى تحرير الإنسان من الأوهام الدّينيّة، الّتي وجّهت حياته لقرون طويلة، قادت النّاس إلى البحث على الأرض عن المساواة التي كان ينبغي أن تتحقّق في السّماء.

علاوة على ذلك، من الجليّ أنّ مفهوم المساواة لا يتلاءم ومفهوم الحريّة. إذ لم يكن بإمكان روسيا الشّيوعيّة أن تصمد وتستمرّ إلّا من خلال القضاء على كلّ الحريّات. والحال أنّ الدّولة، الّتي أصبحت إلهًا بدورها، ظهرت غير متسامحة شأنها في ذلك شأن آلهة الماضي.

لذا ينبغي ألّا يُعَوَّل كثيرًا على الحزب الرّاديكاليّ من أجل مُحاربة أخٍ له (لا يعدو كونه عدوًّا موقّتًا)، ونعني الشّيوعيّة. وعليه، إذا لم تُوصل الانتخابات إلى السّلطة عددًا كافيًا من النوّاب المعتدلين، كما حصل في إنجلترا، فإنّ فرنسا مهدّدة بالخضوع لنظام اشتراكيّ قريب من الشّيوعيّة. الحقّ أنّ هذا النّظام سيتسبّب بطبيعة الحال، كما حصل في إيطاليا، على فترة فوضى سوف تُفضي، وفقًا لقانون قديم جرى التّحقّق منه مرّات كثيرة على امتداد العصور، إلى وضع حدّ لتسلّط أيّ ديكتاتور.

بخلاف الوهم العام الشّائع، تخشى الجماهير الأكثر ثوريّة، في الظّاهر، الفوضى، وينتهي الأمر بها دائمًا بالمطالبة بزعيم لها. لا يتعلّق الأمر هنا بالخوف، كما قال Lucrèce، بل بالأمل، وبالحاجة إلى توجيه ذهنيّ، وهما اللذان ملآ العالَم القديم بالآلهة.

إلى ذلك، لم تستطع تطوّرات العلوم أن تُقَلِّص من حاجة الجماهير إلى قائد يُمسِك بزمام أمورها. ولذلك نرى أنّ المجموعات النِقابيّة، الاشتراكيّة منها والشّيوعيّة، تخضع بشكل أعمى، وبإخلاص تامّ لأوامر قادتها. علاوة على ذلك، يملك هؤلاء القادة إرادات قويّة تفرض نفسها، في حين أنّ حكّامنا لا يملكون سوى إرادات ضعيفة تفتقر إلى الهيبة.

لذلك يُمكن لثورة اشتراكيّة أن تنتصر بقوّة في فرنسا، تمامًا كما انتصرت وحافظت على استمراريّتها، في حين أنّها انتصرت في إيطاليا لكنّها لم تستطع أن تستمرّ طويلًا. بيد أنّ النّظام الاشتراكيّ لن يدوم طويلًا، لأنّ العقيدة ستصطدم بعوائقَ وعقبات اقتصاديّة تبقى كلّ النّظريّات عاجزة حيالها.

ها هي روسيا تختبر هذا الأمر اليوم. على الرّغم من أنّ النّظام الاشتراكيّ سيحتفظ، نظريًّا، بمكانته فيها، إلّا أنّ الحكّام سيُلفون أنفسهم مضطّرين إلى التّنازل تدريجيًّا عن تطبيقه. لقد

أثبتت لهم التّجربة أنّ أَجر العامِل، في ظلّ النّظام الشّيوعيّ، أقلّ ممّا كان عليه في ظلّ النّظام الرّأسماليّ.

الواقع أنّ سبب هذا الاختلاف بسيط للغاية. فروسيا، شأنها في ذلك شأن غالبيّة شعوب العالَم، لا تستطيع أن تعيش إلّا إذا اشترت من الخارج الموادّ التي لا تُزوّدها بها أرضها. بطبيعة الحال، تدفع ثمن هذه الموادّ من خلال بضائعها، لكن لكي تستطيع هذه الأخيرة أن تكون وسيلة للمبادلة، ينبغي ألّا يتجاوز سعر مبيعها في الأسواق الخارجيّة سعر البضائع المنافسة لها. والحال أنّ التّجربة أثبتت دائمًا، وها هي تُثبت مرّة أُخرى في روسيا، أنّ المنتجات التي تصنعها مصانع الدّولة أغلى بكثير من تلك التي تصنعها المصانع الخاصّة.

وفقًا للعقيدة الشّيوعيّة المحض، تولَّتِ الدّولة في روسيا تصنيع كلّ المنتجات، لكنّ سعر تكلفتها مرتفع جدًّا لذا لا يُمكنها أن تُعطي أيّ ربح.

كتب M.Max Hoschiller: «الحقّ أن روسيا لا تُنتِج منتوجات بتكلفة منخفضة: فمتوسِّط مستوى أسعارها الدّاخليّة يتخطّى بنسبة 25 بالمئة أسعار السّوق العالميّة. فعندما تُقَدَّم منتجات مُعيَّنة في ظلّ ظروف تسعيريّة مميَّزة، مثل الحبوب، فإنّ التّكاليف، التي يتسبّب فيها جهاز الدّولة البيروقراطيّ، تكون مرتفعة، الأمر الّذي جعل الدّولة تُصدِّر بخسارة».

لقد رأينا بموجِب هذا المثال الجديد إلى أيّ حدّ تتغلّب الضّرورات الاقتصاديّة، التي تقود العالَم، على أحلام اليقظة الخاصّة بالمتنوّرين الّذين يرغبون في إصلاحه كما يحلو لهم.

حقّقت الشّيوعيّة في روسيا الحلم اليعقوبيّ: «كلّ الحريّات، بما في ذلك حُرّيّة الرّأي، جرت مصادرتها مباشرة. وحدها الحكومة تمتلك الحقّ في التّفكير والتّصرّف».

في مقابل عبوديّة كهذه، هل العامل أكثر سعادة ممّا كان عليه في ظلّ النّظام الرّأسماليّ؟ لم يردَّ أيّ شخص زار روسيا بالإيجاب. والحال أنّ الحرب الأهليّة المروِّعة، التي يحلم بها الشّيوعيّون، ستقود العامل إلى العبوديّة التّامّة، بدلًا من تحريره، ذلك بأنّ الشّيوعيّين

يأملون في تدمير الطّبقة البرجوازيّة التي تستحقّ، بفضل تقدّم الحضارة، كلّ التّحسينات الاجتماعيّة التي تستفيد منها الطّبقة العاملة.

يبدو أنّ العسكريّة (هيمنة العسكر) والفاشيّة هما التّبعتان الحتميّتان للشّيوعيّة. هذه الأنظمة لا تحتمل أي حريّة، لكن إذا كانت الشّيوعيّة تنتمي إلى سلسلة القوى التدميريّة، فإنّ الفاشيّة والعسكريّة تُشكّلان جزءًا من القوى البنّاءة.

نحن نعرف أسطورة السّاحر المبتدئ الّذي امتلك المعادلة السّحريّة القادرة على جعل الماء يتدفّق من الأرض، لكنّه جهل المعادلة التي تمكّنه من إيقافها، لذا غمرته السّيول الّتي تسبّب فيها.

إلى ذلك، يُمكن أن يكون راديكاليّونا غير المتبصّرين، هم أنفسهم، ضحايا قوّة الشّيوعيّة التّدميريّة التي طالما دعموها في الفترات الانتخابيّة. في هذا السّياق، أكّد أحد أكبر قادة الرّاديكاليّة أنّه لم يعرف أي أعداء يساريّين. مع ذلك، تزايد عددُ مدمّري حزبه المستقبليّين على يد هذا اليسار تحديدًا. وفقًا لقانون تاريخيّ ثابت، فإنّ الحركات الثوريّة، التي لم تُقمَع في بدايتها، تتعاظم بسرعة، وينتهي الأمر بها بأن تكتسب قوّة تتعذّر مقاومتها.

غالبًا ما تُتاح لنا فرصة العودة إلى هذا المفهوم الأساسيّ ومفاده أنّ المؤسّسات، والأديان، واللّغات، والفنون، لا تنتقل أبدًا من شعب إلى آخر من دون أن تتحوّل. لقد احتاج الرّاديكاليّون إلى وقت طويل كي يفهموا هذه الحقيقة، التي، علاوة على ذلك، تتناقض مع أسس عقيدتهم نفسها. ومع ذلك، أصبح بعضٌ منهم أكثر تبصّرًا، شاهدنا في ذلك أنّ الوزير المذكور أعلاه رأى بوضوح أنّ الماركسيّة الألمانيّة التي جُلِبَت إلى روسيا خضعت لتغيّرات عميقة.

يقول الوزير المذكور: «لقد أمكن الشّيوعيّة الحاليّة أن تدمج بقوّة مع جوهر الماديّة الماركسيّة الأصليّ هذا الخليط المزدوج من العنصرين الجديدين: المسيحيّة الروسيّة، والطموحات الخاصّة بالسياسة الروسيّة... الحقّ أنّ الشّيوعيّة الحاليّة تحمل البصمة

المزدوجة التي أضفتها المَرَضِيّة الروسيّة وإمبرياليتها على الشيوعيّة الأولى. لقد استعارت، في المقام الأوّل، فكرة صوفيّة تتعلّق بتجديد العالَم عن طريق تهديم روح الغرب. أمّا في المقام الثّاني، فاستعارت الطّموحات الثّابتة والطرائق القديمة للتوسّع السّياسيّ الروسيّ ضدّ المصالح أو التّأثيرات السياسيّة لهذا الغرب نفسه».

وعليه، أظهرت انتخابات مختلفة قوّة تأثير الشّيوعيّة في روح الشّعب. فالحملة الدّعائيّة، التي قادها أتباع البلشفيّة الروسيّة ضدّ المجتمع الحديث، هي ـ كما أشرتُ إلى ذلك في كتاب سابق(83) ـ حرب صليبيّة يُمكن مقارنتها بالحملة الدّعائيّة الإسلاميّة في زمن محمّد، وفي عصر الحروب الصّليبيّة الدينيّة الكبيرة التي جعلت الغرب ينقضّ على الشّرق في العصر الوسيط.

مع ذلك، ينبغي لنا ألّا نفترض أنّ الأصوات الحديثة التي مُنِحَت لمُرَشَّحي الحزب الشّيوعيّ تأتّت دائمًا من قناعات حقيقيّة راسخة. لقد تأتّت بخاصّة من قِبَل جيش السّاخطين، علاوة على أنّ الاضطرابات الاجتماعيّة النّاجمة عن الحرب أسهمت في تزايد عددهم يومًا بعد يوم. هؤلاء السّاخطون صوّتوا لأتباع لينين، تمامًا كما صوّتوا قديمًا لنابليون الثّالث أو للجنرال بولونجيه Boulanger. فما من حجّة عقليّة دعمت تصويتهم.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ أسباب سخط النّاخبين ليست ذات طابع ماديّ فحسب. من دون شكّ، كما قال رئيس الحزب الشيوعيّ أمام مجلس النوّاب، يوجد اليوم، في الكثير من الدّول، نفورٌ عميق من الطّبقة البرجوازيّة ومن طبقة العمّال، لكن كان بإمكان الخطيب المذكور أن يُضيف أيضًا أنّ النّفور نفسه يُلاحظ بين مختلف طبقات البرجوازيّة.

لكن هل يجد هذا النّفور مردّه، كما أكّد رئيس الحزب الشيوعيّ، في أنّ البرجوازيّة تعتزم سحق الطبقة العاملة واستغلالها؟ في الحقيقة، هذا الدّافع ظاهريّ أكثر منه واقعيّ. فالكثير من العمّال متعلّمون بما يكفي لكي يعلموا أنّ الأرباح الصناعيّة الكبرى تأتي من الجمع الطويل للمبالغ القليلة التي تُفرَض على كلّ واحد منهم، وأنّ توزيعها الإجماليّ على العمّال

يرفع أجورهم بنسبة ضئيلة. مع ذلك، انتشرت الشيوعيّة في الطّبقات التي تتحصّل على أجور مرتفعة، مثل طبقة المعلّمين.

إذا كانت الاختلافات في الأجور لا تكفي لكي تُفسِّر دوافع النّفور الّذي لوحظ لدى مختلف طبقات الشّعب، فما هي أسبابه الحقيقيّة؟

هنا، نحن ندخل في الميدان الواسع المسمّى «المستعصيات على التّناول». وبالمناسبة، هذا المصطلح غير ملائم على الإطلاق، ذلك بأنّ المستعصيات هذه تملك وزنًا كبيرًا. لقد أفضت إلى زعزعة العالَم، وما زالت تُزعزعه.

والحال أنّه ينبغي لنا أن نبحث في المستعصيات هذه، وليس في الدّوافع الّتي يُتَذَرَّع بها، عن الأسباب العميقة للانقسامات التي تفاقمت بين مختلف طبقات المجتمع الفرنسيّ.

من دون ادّعاء القبض على كلّ أسباب هذه الظاهرة، سنكتفي بملاحظة أنّ فرنسا منقسمة إلى طبقات عديدة مُتباينة للغاية، طبقات لا تعترف بعضها ببعض، وبالكاد تتسامح بعضها مع بعض، ناهيك بكون الأفراد ذوي الامتيازات من مثل أولئك الّذين يحملون ألقابًا، أو يملكون ثروات، إلخ، يُكِنُّون للآخرين احتقارًا عميقًا. الواقع أنّ ضحايا هذا الشّعور عانوا من جروحٍ عميقة تتعلّق باحترام الذّات. والحال، أنّ جروحًا من هذا النّوع تلعب دورًا كبيرًا في نشأة الكثير من الثورات ـ الثّورة الفرنسيّة تحديدًا.

في أيّامنا هذه جرى استبدال الامتيازات النّاتجة عن المنافسة بامتيازات الولادة، لكنّ الإقطاع الجديد النّاجم عن هذه المنافسات كان في بعض الأحيان أكثر تعجرفًا، وأكثر تطلّبًا أيضًا من الإقطاع القديم النّاتج عن الولادة، ناهيك بكونه أقلّ تسامحًا أيضًا.

الواقع أنّ نظام الطّبقات لم يُدمَّر إلّا في الظاهر عن طريق الثّورة الفرنسيّة. يكفي أن يعيش المرء في قرية صغيرة من أيّ مقاطعة لكي يستنتج من فوره استمرار هذا النّظام مع

المنافسات والكراهيّات التي يتسبّب فيها. الحقّ أنّ تأثيره في السياسة، وبخاصّة في الفترات الانتخابيّة، كبير للغاية.

تكمن القوّة الهائلة للولايات المتّحدة في عدم انقسامها إلى طبقات. فالعمّال وأرباب العمل يلبسون الزيّ نفسه، ويعيشون نمط الحياة عينه، وعلى الرّغم من الاختلاف في الوضعيّة، فإنّهم يتردّدون بعضهم على بعض أيًّا تكن رتبتهم، تمامًا كما يفعل الضبّاط في فرنسا.

من أجل الحصول على المساواة في الشّروط، عن طريق دكتاتوريّة البروليتاريا، أرادت الشيوعيّة، بادئ ذي بدء، تدمير كلّ عناصر الحضارة: الصّناعة، والجيش، والمستعمرات، إلخ.

وعليه، يعود للمُمسكين بزمام السّلطة أن يُدافعوا عنها. علاوة على ذلك، الوسائل ليست كثيرة البتّة. بيد أنّ الأمر الأهمّ يكمن في المطالبة باحترام القوانين، والتصدي، بقوّة وحزم، للبروباغندا المناهضة للروح العسكريّة التي انتشرت في صفوف الجيش، بمعيّة أكثر من عشرين صحيفة شيوعيّة، إذ ما من حكومة تستطيع أن تقوم لها قائمة من دون مساعدة الجيش.

أمّا في ما يتعلّق بالصّراع بين الطّبقات، فإنّه لا يُمكن أن يزول إلّا عن طريق إصلاحات شبيهة بتلك التي لخّصتها في فصل سابق، وأعني الإصلاحات التي جعلت العامل الأمريكيّ شريكًا لربّ العمل. الحقّ أنّ أميركا هي بلد المساواة الحقيقيّة، في حين أنّ فرنسا بلد التّفاوتات العميقة المستترة خلف شعارات المساواة الظّاهرة. ربّما ستحلّ الثّورات محلّ التفاوتات هذه، لكنّها لن تدمّرها البتّة، ذلك بأنّ الحاجة إلى التّفاوتات تُشكّل، لدى بعض الشّعوب، جزءًا من تراثٍ سلفيّ لا يُمكن للثّورات أن تبلغه.

# الفصل السّادس: تناقضات العصر الحديث

## رؤى مستقبليّة

إنّ فترات الاضطراب والفوضى، التي يشهدها تاريخ الشّعوب، تقود بشكل عام إلى مراحل استقرار موقّتة. فعهد يوليوس قيصر في العصر القديم، وعهد لويس الرّابع عشر في الأزمنة الحديثة، مثالان صريحان على هذه المراحل.

ثمّة تأثيرات مختلفة، وحروب اجتماعيّة، وأشكال حظر، سبقت حكم يوليوس قيصر، وثمّة حروب دينيّة، ناهيك بتمرّد طبقة النّبلاء، سبقت مجيء لويس الرّابع عشر إلى السّلطة. كلّ هذه الظّروف هيَّأت المناخ لهذه الفترات ذات الثّبات الموقَّت.

إلى ذلك، تُمثّل الولايات المتّحدة اليوم جزءًا من أندر أجزاء المعمورة التي شهدت بعض الاستقرار. أمّا أوروبا فما زالت رازحة تحت وطأة أزمات ناجمة عن تناقضات كثيرة للغاية، وقويّة للغاية، إلى حدّ يُمكن معه تصنيف الحقبة الحاليّة بأنّها عصر التناقضات. سنقتصر في هذا الفصل على تعداد بعضٍ منها.

لعلّ التّناقض الأكثر خطورة هو ذاك الّذي يُلاحظ في العلاقات بين الشّعوب. الواقع أنّ التّطوّر الصناعيّ خلق اتّكالًا متبادلًا اقتصاديًّا بين الأمم، بحيث لا يكون بمقدور أيّ أمّة أن تستمرّ من دون الأمم الأخرى.

لكن في الوقت نفسه الّذي يُقَرِّبُ فيه اشتراكُ المصالحِ النّاسَ بعضهم من بعض، يفصلهم تباعد مشاعرهم الوراثيّ. لم تكن الكراهيات بين الأمم قويّة كما هي الحال اليوم.

التّناقض بين المفاهيم السيّاسيّة ليس أقلّ عمقًا. لقد جرى استبدال حكومات ديمقراطيّة بملكيَّات قديمة. حقيقة الأمر أنّ الحكّام الأخيرين الّذين ما زالوا يحكمون، لا يحكمون البتّة.

بعبارة أوضح، بمقدار ما تعاظمت سلطة البرلمانات تعاظم ضعفها، فعادت غير قادرة على ممارسة الحكم بشكل فعّال. لقد امتدّ هذا الضّعف ليشمل بلدانًا مختلفة، بحيث وجب أن

تحلّ محلّ هذه البرلمانات سلطات شبه دِكْتاتورية. وخير شاهد على ذلك الدّكتاتوريّات كما في إيطاليا وإسبانيا، ورؤساء الوزراء الـفَطِنون كما في فرنسا وإنجلترا.

لذلك يبدو أنّه محكوم على الشّعوب الحديثة أن تختار بين مُصطلحي هذا التّناقض: الخضوع لحكومات جمعيّة ضعيفة، أو القبول بدكتاتوريّات شخصيّة مع كلّ المخاطر التي تمثّلها.

الواقع أنّ التطلّعات السلميّة، ومخاطر الصّراعات بين الشّعوب المختلفة، أو بين طبقات شعبٍ بعينه، تُشكّل تناقضات خطيرة تُشبه سابقاتها.

إلى ذلك، يُعَدّ التّناقض، الذي خلقته الحاجات المتنامية إلى المساواة، والتّفاوتات المتأتية من التّعقيدات العلميّة والصّناعيّة للعالَم الحديث، تناقضًا خطيرًا للغاية. اختلط هذا التّناقض على جيش غير المتكيِّفين الكبير، ودفعهم إلى إبداء رغبتهم في أن يقودوا، بعنف، الحضارات الأعقد إلى أشكال دنيا، خدمةً للعقول التي لم تتطوّر بما فيه الكفاية.

إلى ذلك، تجد التّناقضات، الّتي عدّدناها للتوّ، سببها الرّئيسيّ في التّناقض بين الحقائق التي لا تتزعزع أبدًا، والأوهام الّتي يخلقها السّعي وراء مُثُل جديدة.

ليس بالإمكان بعد تحديد تبعات هذه الصّراعات. إذ لا يوجد عقل واسع بما يكفي لتوقّع مستقبل أوروبا وحضارتها.

يكفي تعداد الانقلابات، التي توالت منذ الثّورة الفرنسيّة، لكي نتبيّن صعوبة توقّعات كهذه.

كان يُمكن لعقل ثاقب، إذا لزم الأمر، أن يَلْمَح ظلَّ بونابرت خلف ممارسات روبسبيير العنفيّة، وخلف فوضى حكومة المديرين،(84) لكن كيف كان بمقدوره أن يُخمِّن سلسلة الثّورات، والحوادث المختلفة التي جرت حتّى أيّامنا هذه؟ إنّ اللا متوقّع هو الّذي يُسيطر على التّاريخ.

تتوقّف أقدار أوروبا على الحلّ الـمُعطى لبعض المشكلات الأساسيّة التي يُمكن تعداد أهمّها:

1 ـ هل بمقدور فرنسا وإنجلترا أن يتجنّبا حربًا جديدة مع ألمانيا سواء أكانت معزولة أم مُتحالفة مع روسيا؟

2 ـ هل أوروبا مُهدَّدة بصراع كبير مع آسيا؟

3 ـ هل بمقدور العالَم الغربيّ أن يتفادى أعمال التّدمير التي يقوم بها الاشتراكيّون؟

4 ـ هل ستنتقل الهيمنة الاقتصاديّة ـ التي نَقَلتها الحرب من ألمانيا إلى إنجلترا ـ من أوروبا إلى قارّة أخرى؟

5 ـ هل سيتقلّص دور الدّول الأوروبيّة، لتُصبح تابعة، اقتصاديًّا وماليًّا، لأمريكا؟

سوف يتوقّف حلّ هذه المشكلات المختلفة، بخاصّة، على سيطرة بعض عناصر الحياة الذّهنيّة للشّعوب، مع العلم أنّه من المحال توقّعها.

الواقع أنّ التّأثيرات العاطفيّة، والصّوفيّة، والعقلانيّة، التي تقود الشّعوب، تمارس الفعل عينه في الحقبات المزدهرة التي تعرفها الحضارات. وإذا دخلت هذه التّأثيرات في صراع بعضها مع بعض، فإنّ الثّورة تغدو حتميّة.

في أيّامنا هذه، يبدو أنّ العناصر العقلانيّة هي التي تُسيطر، لكنّ هذه السّيطرة لا تُلاحظ، في الحقيقة، إلّا في المصانع والمختبرات. فبعيدًا من أسوارهما، تبقى الدّوافع الصّوفيّة والعاطفيّة هي المسيطرة. الحقّ أنّ هذه الأخيرة غالبًا ما تتعارض مع التّأثيرات العقلانيّة، وذلكم هو سبب من الأسباب الكبرى للفوضى التي غرقت فيها أوروبا.

حقيقة الأمر أنّ الصّراعات بين التّأثيرات الصّوفيّة، والعاطفيّة، والعقلانيّة، التي تتنافس في توجيه العالَم، تتجلّى يوميًّا في مجالات الحياة كافّة، بما في ذلك مجالات المصالِح الاقتصاديّة. ولذلك يُمكننا أن نتساءل ما إذا كانت الكراهيات العميقة التي تقسم الشّعوب

سوف تزن كثيرًا في ميزان أقدارها كما تزن المصالح الاقتصاديّة القادرة على التّقريب في ما بينها.

لو كان المنطق العقلانيّ هو الّذي يحكم مسار التّاريخ، لأقرّ النّاس بلا نقاش بأنّهم يملكون مصلحة أكبر في التّشارك منها في التّقاتل. لكنّ الدّوافع العاطفيّة، والصوفيّة، التي تتأتّى عنها غالبيّة أفعالنا، تملك قوّة كبيرة تفوق قوّة المصالح العقلانيّة الأوضح التي غالبًا ما تتلاشى أمامها. لقد شهدنا تجربة جديدة تؤكّد هذا الضّعف والعجز، وذلك تحديدًا عندما اعتزمت، بعنف، ترحيل الأجانب. على الرّغم من الارتباط البديهيّ لمصالح الأمم، فإنّها لم تنجح، إلّا بصعوبة كبيرة، في التّوحّد قليلًا من أجل الدّفاع عنها.

سوف يتوقّف السّلام في أوروبا على النيات السّلميّة أو الحربيّة للإمبراطوريّة الألمانيّة، أي على السّيطرة التي يُمكن أن تمارسها حاجات الانتقام والعظمة على المصالح العقلانيّة.

إذا لم تُهيمن التّأثيرات العقلانيّة، فإنّ حربًا أوروبيّة جديدة ستقع حتمًا في مهلةٍ لن تكون قريبة، ذلك بأنّ كلّ الشّعوب، بما في ذلك الشّعب الألمانيّ، في أَمسّ الحاجة إلى السّلام، لكنّ هذه المهلة ستكون أقصر من المهلة التي فصلت حرب 1870 عن الصّراع الأخير.

خلافًا لأوهام الحالمين بنزع السّلاح الخطيرة، كلّما تسلّحت الأمم الكبيرة، ازدادت حظوظها في تفادي اعتداءٍ جديد، إذ ما من دولة تعتدي على شعوبٍ تمتلك ما يكفي من القوّة. بيد أنّ اختزال الجيوش إلى ضربٍ من الميليشيا، كما أراد الاشتراكيّون قبل العام 1914، وكما يُريدون اليوم أيضًا، فذلكم، لعمرنا، سيؤكّد نشوب الحرب.

نتساءل هنا: ما الأفكار التي يُشكّلها عن مستقبل أوروبا رجال الدّولة الّذين يقودون مصيرها؟ الحقّ أنّ ما يُسيطر على آرائهم، بعامّة، هي مسألة معرفة ما إذا كان السّلام يُمكن أن يستمرّ، وإذا ما كانت أوروبا ستستطيع دحر التّأثيرات الاشتراكيّة، بشكل نهائيّ، تمامًا كما نجحت إيطاليا.

«إذا اندلعت حرب جديدة في أوروبا، أكّد رئيس وزراء الإمبراطوريّة البريطانيّة، السيّد شامبرلان M.Chamberlain، ستكون تبعتها النّهاية الأخيرة لحضارات الغرب». فالعواصم الكبيرة الحديثة: لندن، وباريس، وروما، إلخ، الّتي أنارتِ العالَم بمثل هذا التألّق، ستُعاني المصير نفسه الذي عانته الكثير من البلاد القديمة، مثل بلاد بابل، بحيث لم يبقَ منها سوى الخراب والذّكريات.

يعتبر الوزير نفسه أنّه، بعيد من الحرب، «يُشكّل انتشار الاشتراكيّة الخطر الأكبر الّذي يتهدّد أوروبا».

يبدو رجالُ الدّولة الفرنسيّون، المتنوِّرون قليلًا، متشائمين أيضًا. كتب وزير سابق، السيد بيرارد M.Bérard:

«.. إنّ فكرة المساواة مُتجسِّدة بعمق في أفكارنا، وفي أخلاقنا... مساواة في أنصاف المعرفة، في ما يتعلّق بالنّظام الفكريّ، ومساواة في البؤس، في ما يتعلّق بالنّظام الاقتصاديّ، كلّ ذلك بانتظار التّجاوز الأسمى الّذي من شأنه أن يُدمّر كلّ ما لا نستطيع أن نمتلكه».

يكمن أبرز عناصر قوّة الولايات المتّحدة في تحرّرها تمامًا من تأثيرات الاشتراكيّين التي تنخر أوروبا، وتهدّدها بالعودة إلى عصر البربريّة.

(78) جورج دانتن (بالفرنسية: Georges Jacques Danton) (1759 ـ 1794) زعيم ثوريّ فرنسيّ، محامٍ، وخطيب بارع من زعماء الثورة الفرنسية. كان شديد الذكاء فإذا به يصبح من ألمع محامي باريس. كان زعيم حركة اليعاقبة المتطرّفة في الجمعية الوطنية الفرنسية. لعب دورًا مهمًّا في سقوط الملكيّة في فرنسا سنة 1792. كانت حملاته على الزعماء المناهضين للثورة الفرنسية من أسباب فراره إلى إنكلترا، غير أنّه ما لبث أن عاد إلى باريس، ليصبح وزيرًا للعدل في الحكومة الموقتة. وعلى الرّغم من أنّه لم يكن مسؤولاً مباشرًا عن الكثير من الفظائع التي ارتكبت في الثورة الفرنسية، فقد كان مشتركاً مع الذين

كانوا مسؤولين عن ذلك، واقتَرع على موت الملك لويس السادس عشر. كان دانتون رئيسًا للجنة الأمن والسلامة العامة لمدة من الزمن، وعمل مع محاكم الثورة. اختلف مع روبسبيير على كثرة الإعدام والعنف المبالغ فيه، واستقال من اللجنة بعد إعادة تنظيمها، فكلّفه ذلك حياته. كان له أعداء كثيرون يتشوّقون لسقوطه، وفي جملتهم رجل الثورة روبسبيير. اتُهم زورًا وبهتانًا بأنّه يتآمر لإعادة الملكية، فقطع رأسه على المقصلة في 6 نيسان 1794، وهو في السادسة والثلاثين من عمره.

(79) الدوما ((بالروسية: Ду́ма، ˈdumə)) هي أيّ من المجالس التمثيليّة المختلفة في روسيا الحديثة والتاريخ الروسي. ومجلس الدوما في الإمبراطورية الروسية والاتحاد الروسي يتوافق مع مجلس النواب في البرلمان. وببساطة هو شكل من أشكال المؤسسات الحكومية الروسية، التي تشكلت في عهد القيصر الأخير، نيكولاس الثاني. وهو أيضا عبارة عن مجلس للحكام الروس الأوائل، فضلاًعن مجالس المدن في الإمبراطورية الروسية والهيئات التشريعية الإقليمية في الاتحاد الروسي.

(80) ألكسندر كيرينسكي (بالروسية: Алекса́ндр Фёдорович Ке́ренский، 1881 ـ 1970: هو سياسي روسيّ بارز ونبيل ورئيس الوزراء في الحكومة المؤقتة إبان ثورة فبراير عام 1917، وأحد زعماء الحركة الماسونية في روسيا في مطلع القرن الماضي.

(81) الحزب الراديكالي الفرنسيّ هو حزب سياسيّ أُسِّسَ سنة 1901، وهو من أقدم الأحزاب الفرنسية. كان الحزب في البداية عبارة عن تجمع من اليسار الجمهوري واشتراكيي أقصى اليسار، واشترك في أغلب الوزارات بين الأعوام 1902 ـ 1914. لكن الحزب بدأ يبتعد عن الفكر الشيوعي وبدأ بجذب رجال الأعمال، الأمر الذي أبعده عن الحزب الاشتراكي.

(82) مجلس السّوفيات: هو مجلس مندوبي العمّال والفلّاحين والجنود في الاتّحاد السّوفياتيّ.

(83) غوستاف لو بون، **سيكولوجيا الأزمنة الجديدة**، ترجمة باسل الزّين، دار الرافدين.

(84) حكومة المديرين أو مجلس الإدارة أو حكومة الإدراة هو نظام سياسي فرنسي إداريّ اعتُمد من قبل الجمهورية الفرنسية الأولى، من 26 أكتوبر 1795 إلى 9 نوفمبر 1799. استوحي اسمه من كلمة «Directoire» أي «الدليل»، وهي مجموعة تتشكل من خمسة مديرين تتوزع بينهم السلطة التنفيذية والوزارات، لتجنب الاستبداد والتحكم في السلطة، ومقرّهم في قصر لوكسمبورغ.

# استنتاجات

إنّ الاستنتاجات المختلفة التي ينطوي عليها هذا الكتاب قد جرى تلخيصها بالفعل في فصول كثيرة، لذا يكفي التّذكير بأهمّها.

الحقّ أنّها ليست كثيرة. في الواقع، يُمثِّل العصر الحديث حقبة صراعات ما زلنا نجهل نهايتها، حقبة صراعات بين الأوهام السياسيّة، والضّرورات الاقتصاديّة الجديدة.

من بين هذه الأوهام، تلعب الاشتراكيّة الدور الأبرز. على غرار المسيحيّة في بداياتها، أصبحت الاشتراكيّة ديانة السّاخطين وغير المتكيّفين الّذين تُثير الحضارات الكبيرة سخطهم حتمًا.

يحلم كلّ هؤلاء الّذين يشعرون بالدّونيّة في الحياة بأن يُعيدوا عالمًا مرتفعًا جدًّا، بالنّسبة إليهم، إلى أشكال تنظيميّة تتناسب وذهنيّتهم.

إذا انتصرت الاشتراكيّة في الغرب، فإنّ الولايات المتّحدة سترث مشعل الحضارة، في حين أنّ العواصم الأوروبيّة الكبرى ستُعاني انحطاطًا شبيهًا بالانحطاط الّذي وقعت روسيا الاشتراكيّة ضحيّته.

في الوقت الّذي يتعاظم فيه دور الأوهام السياسيّة المثير للقلق، يتعاظم أيضًا تأثير العلوم في كافّة أشكال التطوّر الحديث. الحقيقة أنّ العلم غيَّر الوجود الماديّ للشّعوب، كما غيَّر تفكيرها أيضًا.

مع ذلك، يُمكن القول إنّ تأثير العلم في عالَم الأخلاق أبعد ما يكون عن أن يُساوي تأثيره في العالَم الماديّ. فقد ظهرَ عاجزًا عن تحقيق السّلام بين النّاس، وعن خلق مَثَل أعلى قويّ بما فيه الكفاية لكي يُوجّههم.

على الرّغم من التبصّرات المتأنّية للفلسفة، فإنّها لم تنجح، شأنها في ذلك شأن العلوم، في حلّ المشكلات الكبرى التي تُثير فضول المفكّرين: هل العالَم مُتناهٍ أو لا متناهٍ، مخلوق أو غير مخلوق، زائل أو خالد؟ ومن أيّ أفكار غامضة اشتقّ الفكر والحياة؟ وهل الإنسان مُجرَّد ذرّة ضئيلة تائهة في شَسَاعةٍ يتعذّر أن نعرف بدايتها أو أن نتوقّع نهايتها؟ إنّها مسائل غير قابلة للحلّ.

ولذلك نجد أنّ الشّعوب التي تحتاج دائمًا إلى آمال وهميّة، تعود نحو آلهة الماضي أو تُؤْثِر الخضوع الأعمى لعقائدَ تُعزى إليها قوًى سحريّة.

علاوة على ذلك، لا يعود بُطءُ زوالِ التديّن السّلفيّ إلى كون العلم والفلسفة عاجِزَيْنِ عن حُكم العالَم الأخلاقيّ فحسب، بل يعود كذلك إلى كون التّجريدات العلميّة باردة للغاية لكي تستولي على القلوب. فمعابد المعرفة، الّتي بَنَتها المختبرات، هي هندسة صارمة للغاية، مقارنة بالمباني الجليلة حيث تبلورت في ظلّ المذابح، على امتداد قرون طويلة، دوافعُ حيويّةِ النّاس. الحقّ أنّ رُسُل العلم، ورُسل الأديان لا يتكلّمون اللّغة نفسها. ففي حين يعد رُسل الأديان بالنّعيم المستقبليّ في الجنّة الأبديّة، ينشغل رُسل العلم بالحقائق الحاضرة.

إلى ذلك، يُمكن تلخيص تطوّر نقاط الفكر البشريّ الأساسيّة، منذ فجر التّاريخ، على النّحو الآتي:

مذ أمكن الإنسان أن يُفكّر قليلًا، شعر بقوًى عليا تُسيطر عليه، من مثل الخوف والرّجاء اللّذين سرعان ما قدَّسا هذه القوى. فكوكب المشتري هو الذي يُطلق العنان للبرق، ونبتون يرفع الأمواج، وسيرس يُنْضِجُ الحصاد.

الحقّ أنّ قرونًا من البحث كانت ضروريّة من أجل اكتشاف أنّ الآلهة الشّخصيّة لم تعدُ كونها صورة عن قوى لاشخصيّة لا يُمكن الوصول إليها عن طريق الصّلاة. وعليه، تبيّن أنّ الكهرباء هي التي تُولِّد البرق وليس كوكب المشتري، وأنّ جاذبيّة بعض الكواكب هي التي تتسبّب في ارتفاع الأمواج، وليس نبتون.

من دون شكّ أنّ الطّبيعة الباطنيّة لهذه القوى تبقى مجهولة تمامًا، لكنّنا نعلم على الأقلّ بأنّها لا تنجم عن نزواتٍ إلهيّة.

يُشكّل هذا الانتقال من الآلهة القديمة الشّخصيّة إلى القوى غير الشّخصيّة تطوّرًا من أعظم التطوّرات التي عرفها العقل البشريّ، وكانت نتائجه حاسمة.

بادئ ذي بدء، كان الإنسان عبدًا لطبيعةٍ تخضع بدورها لقوانين ثابتة ليس بمقدور أحد أن يُغيّر مسارها سوى الآلهة، لكنّه أصبح قادرًا على مواجهتها، والتّغلّب عليها.

نجمت عن هذا الاكتشاف العظيم تحوّلات عميقة في مسار الحضارات. لقد بدا التّغلّب على قوى الطّبيعة أكثر فعاليّة من التماس الحماية من الآلهة.

من جرّاء التطوّرات النّاجمة عن هذا الغزو، ظهرت آفاق غير متوقّعة، وبالفعل أمكن استشفاف فجر إنسانيّة جديدة متطوِّرة للغاية لكي تفهم، بمعيّة العلل الأولى للأشياء، الأسرار المذهلة التي ما زال العالَمُ ينطوي عليها.

ـ انتهى ـ

1. الغلاف
2. التطوّر الرّاهن للعالَم:
3. مقدّمة المترجم
4. إهداء
5. مُقدّمة: الوجه الرّاهن للعالَم
6. الكتاب الأوّل: القوى التي تقود العالَم
7. الكتاب الثّاني: الأوهام المتعلّقة بمسألة الأمن
8. الكتاب الثّالث: الحروب الحديثة: أسبابها وتبعاتها
9. الكتاب الرّابع: القوى السّياسيّة الجديدة
10. الكتاب الخامس: ضرورات تُحدِّدُ عمل المؤسّسات السياسيّة
11. الكتاب السّادس: أوهام متعلّقة بأصل الثّروات وتوزيعها
12. الكتاب السّابع: وضعيّة العالَم الماليّة
13. الكتاب الثّامن: دور العُملة في التطوّر الاقتصاديّ للعالَم
14. الكتاب التّاسع: دور المثل العليا في حياة الشّعوب الدّيانة الاشتراكيّة
15. استنتاجات